كتاب

معيار الاختيار

فى ذكر المعاهد والديار

للمؤرخ الوزير لسان الدين بن الخطيب السلمانى
٧١٣ - ٧٧٦ هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

كتاب

معيار الاختيار

فى ذكر المعاهد والديار

للمؤرخ الوزير لسان الدين بن الخطيب السلمانى
٧١٣ - ٧٧٦ هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

طبعة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٧٧٠٧
I.S.B.N الترقيم الدولي	977-341-066-8

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر - القاهرة
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - ف: ٥٩٣٦٢٧٧

مقدمة

ان كتاب « معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار » لابن الخطيب من اطرف كتب المؤلف الشهيرة ، فقد صاغه على هيئة مقامة ادبية ذات منهاج واسلوب فنى انفرد به لسان الدين روعة وابداعا ، مستهدفا وصف اهم المدن الاندلسية والمغربية جغرافيا واجتماعيا كما رآها وعاصرها فى منتصف القرن الثامن الهجرى (منتصف الرابع عشر الميلادى) . فلم تكن المقامة التقليدية لديه هدفا لذاتها من شعوذة واستجداء كما هى عند الحريرى والهمذانى وغيرهما ، او وعظ وتذكير بالدار الاخرة وما فيها من ثواب وعقاب كما هى عند الزمخشرى والدمياطى وامثالهما ، بل ان المؤلف كانت غايته علمية بحتة ابرزها فى صورة ادبية ثقافية ممتعة ، وبالرغم من قيود السجع والمحسنات البديعية الا ان وصفه للبلدان فى مناحى شتى قد جاء فى صورة مشوقة تنبض حياة ، وتتالق براعة . ويصف المقرى هذا الكتاب فيقول : « وللسان الدين مقامة عظيمة بديعة ، وصف بها بلاد الاندلس والعدوة ، واتى فيها من دلائل براعته بالعجب العجاب (1) » .

ولقد اورد ابن الخطيب « معيار الاختيار » ضمن مؤلفه الادبى الضخم « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » الذى ما يزال مخطوطا ، وان كان بعض الباحثين قد قام بتحقيق اجزاء منه ، فمن اشهر نسخ « الريحانة » التى ورد بها « المعيار » واقتضت طبيعة التحقيق والدراسة الرجوع اليها فى كل من المغرب (الرباط — فاس) وتونس والجزائر والقاهرة واسبانيا وروما :

1 — نسختان بدار الكتب بالقاهرة .

الاولى : يوجد منها الجزء الاول وبعض الجزء الاخير فى مجلدين ، وبخط مغربى ، فى ثناياها ثقوب ونقص واضطراب ، وهذان الجزآن مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس ، ويقعان فى 309 لوحة ، مسجلين برقم 19875 ز .

---

1) النفح : ج 8 ص 315 ط محى الدين — القاهرة .

الثانية : بها نقص يسير من الخطبة ، اولها بعد الديباجة : « . . وسميته لتنوع بساتينه المنسوقة ، وتعدد افانينه المعشوقة ، بريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب » . . الخ ، وتقع هذه النسخة فى مجلدين كتبا بخط النسخ ، وقد نقلا عن الجزاين المخطوطين المقيدين بدار الكتب المصرية برقم 524 ادب س ، ويقعان فى 460 ــ 650 صفحة ، مسطرتها 21 سطرا ، وقد سجلا تحت رقم 3459 ز ، وقد اتخذنا لهذه النسخة فى التحقيق الرمز « د » .

2 ــ نسخة الاسكوريال بمدريد .

وهى مسجلة برقم 554 من فهرس الغزيرى ، وهى نسخة جيدة للغاية قد كتبت بخط اندلسى باهت ، وتقع فى 281 لوحة كبيرة ، اعنى 562 صفحة ، بكل صفحة 27 سطرا ، وفى كل سطر 12 كلمة فى المعدل العام ، وقد ذكر فى نهاية هذه النسخة انها كتبت سنة 888 هـ ، وقد رمزنا اليها خلال البحث بالرمز « أ » .

3 ــ جزء مخطوط بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، مكتوبة بخط مغربى وهى عبارة عن السفر الثالث من « الريحانة » ، وعدد لوحاتها 119 لوحة كبيرة ، مسجلة برقم 252 .

وقد احتوى هذا السفر على « معيار الاختيار » ، ورمزنا لهذا المخطوط اثناء التحقيق بالرمز « ف » .

4 ــ قطعة مخطوطة اخرى فى مكتبة الجزائر الوطنية من « الريحانة » ، تشتمل على 181 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، مكتوبة باكثر من خط معظمه قديم ، والبعض منها ــ ولاسيما الوسط ــ قد اكمل مؤخرا، أو بتاريخ احدث ، وهذه النسخة تشتمل على النصف الثانى والاخير من « الريحانة » ، حيث تبدأ بالفصل الذى يحمل عنوان « جمهور الاغراض السلطانيات » ، ويغلب على الظن ان هذه النسخة هى اقدم جزء من المخطوط رقم 2010 ، وقد احتوى هذا الجزء ــ ضمن ما احتوى ــ كتاب «معيار الاختيار» موضوع الحديث ، وقد رمزنا اليها بالرمز « ج » .

5 ــ وفى خزانة القرويين بفاس قطعتان من « ريحانة الكتاب » :

الاولى : تضم السفرين الرابع والخامس ، وتقع فى 99 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، فى كل صفحة منها 27 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى ، وفى نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها ، وهو يوم الاحد قبل الزوال عام تسعة عشر

ومائة والف (لم يذكر تاريخ اليوم او الشهر) وهي برقم 40 — 565 ، ورمزها « س » فى تحقيقنا .

اما القطعة الثانية : فهي برقم 3011 ، وتنطبق عليها نفس اوصاف الاولى ولاسيما الخط .

6 — اما فى الخزانة العامة بالرباط (قسم المخطوطات والمحفوظات) فتوجد عدة نسخ من « الريحانة » ، اظهرها واشهرها النسخة الكتانية المسجلة برقم 331.ك ، وهي عبارة عن مجلد ضخم يتالف من 609 صفحة من القطع الكبير ، وفى كل صفحة 25 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى واضح ، وبها زيادات حديثة ، اغلب الظن انها ليست من انشاء ابن الخطيب ، ولاسيما الجزء الخاص بذكر ملوك بنى امية والخلفاء من بنى العباس ، وهو غفل من تاريخ كتابته ، اما النسخة الاساسية للريحانة فتقع فى 599 صفحة ، وقد رمزنا اليها بالرمز « ك »

وتوجد بنفس هذه الخزانة غير التى ذكرنا — سبع نسخ من «الريحانة» قد اشتمل معظمها على « معيار الاختيار » وفيما يلى ما تضمن منها « المعيار » :

فاولها : نسخة كاملة عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط ، ويشتمل اولها على 222 لوحة ، مكتوبة بخط مغربى واضح ، والمجلد الآخر عبارة عن 215 لوحة من نفس الحجم ، وقد كتب بنفس الخط المغربى الواضح ، وهذه النسخة بمجلديها مسجلة برقم 2195 بالمكتبة الملكية ، وقد رمزنا اليها بالرمز « ل » اثناء التحقيق .

وثانيتها : تشتمل على السفرين الرابع والخامس من « الريحانة » وعدد لوحاتها 145 لوحة من الحجم الصغير ، ورقم التسجيل 600

وثالثها : عبارة عن النصف الثانى من « الريحانة » ، وهي نسخة تحتوى على الاسفار الرابع والخامس والسادس ، وتقع جميعها فى 186 لوحة .

ورابعها : نسخة ذات اوراق بالية وقديمة تشمل 40 لوحة كبيرة ، قد كتب على الصفحة الاولى منها « السفر الثالث من ريحانة الكتاب » ، وفى نهاية اللوحة الاخيرة عبارة « كمل السفر الخامس » ورقم تسجيلها 6400 .

هذا ، ولا يغيب عن الفكر ان هناك نسخا اخرى من مؤلف ابن الخطيب « ريحانة الكتاب » في حوزة المكتبات الخاصة ، جلها في المغرب الاقصى ، ومعظمها قد انتظم « معيار الاختيار » ، بيد انه لا يتسنى للباحث ان يستدل ويطلع عليها في سهولة ويسر لسبب او لآخر ، فمن ذلك على سبيل المثال النسخة الجيدة التي بمكتبه صديقي الاستاذ عبد الكبير الفهري الفاسي بالرباط ، وقد تصفحت سفرا خاصا بـ « معيار الاختيار » فوجدتها نسخة قريبة الشبه خطا ونسخا من النسخة الاولى الخاصة بالمكتبة الكتانية التي اشرنا اليها في ثنايا الحديث عن نسخ الخزانة العامة بالرباط .

ونرى — بهذه المناسبة — أن نذكر أن مؤرخ المملكة المغربية الاستاذ عبد الوهاب بن منصور قد اخبرنا في صدد « معيار الاختيار » بانه سبق ان رأى نسخة تكاد تكون فريدة منه لدى احد شيوخ مدينة « تلمسان » منذ مدة طويلة ، وترجع أهميتها لكون هذه النسخة قد اشتملت على وصف تلك المدينة وهو ما تنفرد به من دون النسخ الاخرى الخالية منها تماما ، ويعزز رواية الاستاذ عبد الوهاب وجود وصف مدينة تلمسان في كتاب « نفح الطيب » (ج 9 ص 340 — 341) وهي لابن الخطيب كما اثبته المقرى ، والاسلوب في الوصف على نمط الاسلوب الذي انتهجه المؤلف في « معيار الاختيار » من بداية بالاستفسار : « قلت فمدينة تلمسان ؟ فاجابة من الراوي : قال : « تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف .. الخ » ، ثم يعقب وصفه للمدينة بما عودنا من ايراد ابرز المثالب كمثيلاتها ، فقال : « .. الا انها بسبب حب الملوك ، مطعمة للملوك . ومن اجل جمعها الصيد في جوف الفرا ، مغلوبة للامراء ، .. الخ » .

حقا لقد كانت « تلمسان » يومئذ ضمن مملكة بني مرين حينما امتد ملكهم الى الجزائر عام 796 هـ (1393 م) ، واضحى ملك بني زيان تابعا لبني مرين ، وبقي الامر كذلك حتى دب الضعف في الدولة المرينية ، واستبد بنو وطاس ووزراؤهم بالامر ، فهيأ ذلك لبني زيان ان يستقلوا مرة أخرى بامر تلمسان ، كما هيأ مثل هذا الاستقلال للاشراف ان يظهروا في مراكش بجنوب المغرب (1) .

وقد وفد ابن الخطيب في ذلك الابان على مدينة تلمسان سفيرا ثم زائرا، واخيرا عندما لجا فارا من الاندلس ، حيث احتمى بظلال بني مرين على ما

---

1) ابن خلدون في « العبر » ج 7 ص 166 ، والذخيرة السنية ص 148 ، والاستقصا ج 2 ص 16 .

سنفصله فى الترجمة للمؤلف من بعد ، الامر الذى يقطع بان المؤلف اورد وصف تلمسان ضمن « المجلس الثانى » الخاص باهم المدن المغربية ، كما لا نستبعد من ناحية اخرى ان تاليف لسان الدين للمعيار كان زمن امتلاك المرينيين لتلمسان ، وربما كان ذلك اواخر ايامه ، حيث اتيحت له اكثر من فرصة لدراسة المدينة وسواها من مدن المغرب ، ورسم صورة واقعية لها ، كمهدنا به نحو المدن الاخرى التى تناولها بالوصف فى مؤلفه هذا .

لقد كنت تواقا الى رؤية تلك النسخة ، عسى ان اتمكن من ازالة علامة الاستفهام التى ترتسم حيال بقية النسخ من « الريحانة » المشتملة على « معيار الاختيار » والتى خلت — للاسف — من وصف مدينة « تلمسان » ، ومن يدرى فربما كانت نسخة الجزائر اقرب من غيرها الى عصر المؤلف ان لم تكن قد نسخت على ايامه ، ولكن ما الحيلة وقد طوى الزمن صاحب النسخة، ولا ندرى بالتالى الى من آلت، هذا ان لم تكن قد انقرضت هى بدورها حيث لم نسمع عنها حتى يومنا هذا من قريب او بعيد ، ولم تتناولها من قبل فهارس المستشرقين ، كما لم تشر اليها اقلام الباحثين من المهتمين بالتراث الاندلسى خاصة .

وعلى اى حال فلا مناص من الحاق وصف مدينة « تلمسان » فى نهاية « المجلس الثانى » للمدن المغربية ، وذلك نقلا عن « نفح الطيب » بنصه مقترا للاستاذ عبد الوهاب بن منصور لفتته العلمية .

هذا ، وقد نوهت اثناء عرض الكتاب بـ « الفصل الثالث » ان النسخة التى رايت انها اوفى واحق بالاعتماد فى التحقيق — مع اعتبار بقية النسخ — هى نسخة الاسكوريال (554) .

وقد رايت استكمالا للفائدة ، والماما بما قد يحتاجه الباحث ان اختط فى هذا التحقيق النحو التالى فى اربعة فصول :

الفصل الاول :

وقد اوردت فيه ترجمة تكاد تكون وافية بالغرض لحياة المؤلف « لسان الدين ابن الخطيب » .

الفصل الثانى :

وبه بيان لوجهة نظر بعض المستشرقين والباحثين تجاه ابن الخطيب .

الفصل الثالث :

وقد اوردت فيه دراسة خاصة بـ « معيار الاختيار » في عرض تحليلي من الناحيتين الادبية والتاريخية ، واهمية الكتاب كعمل ادبي ، ثم كوثيقة تاريخية هامة .

الفصل الرابع :

وقد اوردت فيه « المجلس الاول » من النص ، وهو الخاص بوصف « المدن الاندلسية » .

الفصل الخامس :

وقد اوردت فيه « المجلس الثاني » من النص ، وهو الخاص بوصف « المدن المغربية » . وفي ذيلا كلا « المجلسين » اثبت في التعليق ما اقتضاه التحقيق ، واستوجبته الدراسة .

ولا يسعني — أن أقدم هذا العمل كتحقيق جديد في مجال التراث الاندلسي — الا أن اعترف بالفضل لكل سابق في هذا الميدان ، ولا سيما حيال من اسهموا بدراسة او تحقيق لابن الخطيب ومؤلفاته فقد كانت بحوثهم عونا جديرا بالتقدير ، كما اذكر لاستاذنا العلامة عبد الله كنون فضله في هذا العمل ، جزاه الله خير الجزاء ، وانوه بسبق الزميل الدكتور احمد مختار العبادي ، معترفا بالاستفادة الحقة من دراسته في هذا الموضوع .

اخيرا ، آمل بهذا التحقيق — على هذه الصورة — لكتاب «معيار الاختيار» ان اكون قد اسهمت بلبنة في صرح الذخائر الاندلسية .

والله اسأل ان يجد فيه رواد الفكر وعشاق التراث ما ينشدون او يؤملون ، انه سميع قريب ، وبالاجابة جدير .

وهو — سبحانه — ولي التوفيق

المحقق
دكتور محمد كمال شبانه
استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية
بجامعات المغرب

القاهرة /٢-٣-٢٠٠٢

الفصلُ الأوّل

حياة ابن الخطيب
وآراء بعض المستشرقين حوله

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ابن الخطيب

713 ـ 776 هـ (1313 ـ 1374 م)

ثانى اثنين أرّخا لعصر بنى الأحمر ، فكشفا عن السلالة النصرية ، حتى عصرهما الذى عاشاه جنباً الى جنب ، ولم ينل من علاقتهما الطيبة سوى التنازع على المزيد من السلطة ، فى دولة طالما استبد فيها الحجاب والوزراء ، وانتقصوا من سلطة السلطان ، فكانت نهايتهم على يـدى من نازعوهم أمـور المملكة ، بايعاز من صاحب سلطة قضائية أو ادارية ، وهذا ما حدث بين ابن الخطيب ، وبين قاضى الجماعة أبى الحسن على النباهى الجذامى ، على نحو ما سنرى من خلال سيرة الأول .

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد ، بن عبد الله ، بن عبد الله ، بن سعيد ، بن على ، بن أحمد ، السلمانى ، نسبة الى سَلْمان ، بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية ، وكانت أسرة ابن الخطيب احدى هذه القبائل ، ومن اليمن وفدت الأسرة الى الأندلس ، حيث اتخذت قرطبة مقراً لها .

ثم هاجرت الأسرة الى طليطلة ـ كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه فى مقدمة « الاحاطة » ـ عام 202 هـ 817 م ، وهو العام الذى حدثت فيه ثورة أهل الربض بقرطبة ، ضد أمير الأندلس الحكم بن هشام ، حيث حرض الفقهاء أهل الربض ضد الأمير ، ولكن الحكم قضى على الثورة فى الموقعة المشهورة

ر (موقعة الربض) وشتتت شمل القائمين بها ، فنفى من نفي ، وشرد من شرد ، وغادر قرطبة جمهور من المعارضين وعديد من العلماء ، ومن هؤلاء أسرة ابن الخطيب ، حيث قصدت طليطلة ، فبقيت بها قرابة قرن ونصف ، ولما أحست أسرة المترجم له بالخطر المحدق بالمدينة ـ حيث أصبحت هدفاً للأسبان فى أواسط القرن الخامس الهجرى (أوائل القرن الثانى عشر الميلادى) ـ بادرت بالنزوح عنها الى مدينة لوشة (1) مسقط رأس ابن الخطيب فى 25 رجب 713 هـ (16 نوفمبر 1313 م) .

تربى ابن الخطيب فى أسرة عرفت بالاصالة والعلم والجاه ، فقد كان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة ، كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه ، حيث ترجم لأبيه فى كتابه (الاحاطة فى أخبار غرناطة) فروى لنا أنه ولد فى (672 هـ = 1273 م) واستقر حيناً فى غرناطة ، ثم عاد الى لوشة مقر الأسرة ، ثم رجع الى غرناطة أخيرا ، حيث التحق بخدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل ملك غرناطة (713 ـ 725 هـ ـ 1314 ـ 1324 م) .

وقد كانت أسرته تحمل اسم « الوزير » الى أن جاء جده سعيد فعرفت باسم « الخطيب » .

ولما توفى هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان أبو عبد الله محمد ، التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضا ، ثم بأخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (733 ـ 755 هـ ـ 1333 ـ 1354 م) ، حيث عاصر الكاتب الكبير ، والرئيس العظيم أبا الحسن على بن الجيّاب ، والذى مُنِح من قِبَله لقب الوزارة ، وأخيراً سقط عبد الله مع ولده الأكبر ـ أخي لسان الدين ـ قتيلا فى موقعة طريف الشهيرة ، التى تمخضت عن فوز الأسبان على المسلمين من الأندلس والمغرب ، وسقوط كل من طريف ثم الجزيرة الخضراء وقلعة بنى سعيد ، وذلك فى جمادى الأولى 741 هـ (1340 م) .

---

(1) تعرف فى الاسبانية اليوم باسم « Loja » ، تقع على بعد 55 كم غرب غرناطة ، وهى احدى المدن الاسلامية الشهيرة أيام حكم العرب ، وقد استردها الأسبان قبل سقوط غرناطة بقليل (891 هـ = 1486 م) ، يقدر عدد سكانها حالياً بعشرين الف نسمة تقريبا ، بينما كان عدد السكان ـ على عهد ابن الخطيب ـ يجاوزون هذا العدد بكثير كما يتضح من تاريخ المدينة يومئذ .

لقد نشأ ابن الخطيب في العاصمة غرناطة ، وتلقى بها دراسته (2) ، فقد كانت وقتئذ ميداناً احتشد فيه الأكابر من العلماء والأدباء ، فدرس اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر ، مثل « أبي عبد الله بن الفخار الألبيرى » شيخ النحاة في عصره ، « وأبي عبد الله بن مرزوق » فقيه المغرب الكبير ، « والقاضي أبي البركات بن الحاج البلفيقي » ، ودرس الأدب والشعر على الوزير « أبي عبد الله ابن الحكيم اللخمي » وعلى الرئيس « أبي الحسن علي بن الجياب » ، وغير هؤلاء . كما درس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ « يحيى بن هذيل » . فلا نبالغ اذن اذا قلنا : ان غرناطة — في ذلك الوقت — كانت أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والاسلامية ، في هذا القطر الغربي من العالم الاسلامي ، وكان هذا من حظ ابن الخطيب الى حد بعيد .

هذا ، وقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسي بحكم منصب والده ، فمنذ شب عن الطوق ونفسه تطمح للوصول الى مركز أبيه ، فلما توفي الوالد دعي ابنه للخدمة مكانه ، وكان حينئذ في الثامنة والعشرين من عمره ، حيث تولى أمانة السر لأستاذه الرئيس « أبي الحسن بن الجياب » وزير السلطان ابي الحجاج يوسف الأول النصرى وكاتبه (3) ، ثم خلف أستاذه في الوزارة ، وتقلد ديوان الانشاء لهذا السلطان ، وكان ابن الخطيب يومئذ قد ملك زمام أرفع الأساليب شعراً ونثراً ، بفضل أستاذه الراحل ، وظهر أثر هذه التلمذة على رسائله السلطانية ، التي حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب ، والتي نعتها المؤرخ ابن خلدون بالغرائب ، وقد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير في كتابه « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، كما أورد المقرى عددا منها في مؤلفه « نفح الطيب » (4) ، ويعتبر كتاب ابن الخطيب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » مجموعة من الرسائل السلطانية التي تمثل العلاقات السياسية بين غرناطة والمغرب ، في منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، على لسان سلطانه يوسف الأول ابن الأحمر ، الى معاصره في فاس أبي عنان فارس المريني .

---

2) العبر لابن خلدون جـ 7 ص 332 .

3) توفي ابن الجياب بوباء الطاعون الجارف ، في شوال 749 هـ (يناير 1349 م) .

4) جـ 3 ص 570 ، وما بعدها ، جـ 4 في عدة مواضع منه .

ولقد كسب ابن الخطيب ثقة هذا السلطان الغرناطي ، حيث قربه من مجلسه ، وخلع عليه الجم من النعم ، كما أنه أصبح أثيرا لديه ، مودعا اياه أمانة سره وكتابته ، وذلك لروعة هذه المكاتبات السلطانية التي دبجها له من جهة ، ولنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب من جهة أخرى ، فقد بعثه عاهل غرناطة سفيرا الى أبي الحسن المريني ملك المغرب عام 749 هـ (1348 م) .

ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلا — في يوم عيد الفطر 755 هـ (19 أكتوبر 1354 م) — خلفه في الملك ولده السلطان محمد الخامس الغني بالله ، واستمر ابن الخطيب في معاونة الوزير أبي النعيم رضوان على خدمة السلطان الجديد ، كما تولى الوصاية على الأبناء القصر للسلطان المتوفى ، ثم قام بسفارة الى السلطان « أبي عنان فارس المريني » عام 755 هـ = 1354 م ، ولقد نجح ابن الخطيب في مهمته هذه نجاحا عظيما ، ذلك أن ملك المغرب استجاب للمطالب التي حملها ابن الخطيب لصالح ملك غرناطة ، وفي مقدمتها العون الحربي لمقاومة اطماع ملك قشتالة .

ولقد ظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى الغني بالله ، اذ منحه ثقته كأبيه من قبل ، وخلع عليه لقب (ذو الوزارتين) ، لجمعه بين وزارة القلم ووزارة السيف .

ولكن حدث أن اندلعت الثورة بغرناطة ، في رمضان 760 هـ = 1359 م ، ونتج عنها فقدان السلطان الغني بالله لملكه ، واستيلاء أخيه الأمير اسماعيل على العرش ، كما تمخضت هذه الثورة عن مقتل الحاجب أبي النعيم رضوان ، ثم فرار الغني بالله الى وادي آش (5) ، وعليه فاصبح ابن الخطيب لا يملك من الأمر شيئا ، غير أنه حاول أن يستميل السلطان الجديد ، فقبله في منصب الوزارة مؤقتا ، ثم تشكك بعد قليل في نواياه ، وذلك بتحريض منافسيه وحساده ، فقبض عليه ، وصادر أملاكه ، وبذلك فقد ابن الخطيب جاهه ونفوذه ، بل ومتاعه بين عشية وضحاها .

---

5) راجع ما كتبناه عن هذه المدينة في وصف ابن الخطيب للمدن الأندلسية من هذا الكتاب .

لم تطل هذه النكبة بابن الخطيب ، فقد بعث ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمساني) الى ملك غرناطة الجديد ، يطلب اليه أن يسمح للملك المخلوع (الغني بالله) ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس الى المغرب ضيفين عزيزين ، فرضخ سلطان غرناطة لهذا الطلب ، سياسة منه في الابقاء على أواصر الوداد مع بني مرين ، واحتفاظاً بهم سندا لمستقبل الدولة الاسلامية بالأندلس . ولهذا أطلق سراح ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه ، حيث لجأ إلى وادى آش ، ومن ثم الى المغرب ، ومعهما نفر كبير من الحاشية ، فوصل الركب فاس فى محرم 760 هـ (ديسمبر 1358 م) حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالا حاراً ، واحتفل بقدومهم احتفالا عظيما ، والقى ابن الخطيب فى هذه المناسبة ـ بين يدى المضيف ـ قصيدته الشهيرة (6) ، يستنصره ويستصرخه ؛ ليعين سلطانه على أمره .

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل ـ بصفته من كبار رجال البلاط المريني ـ فيصفه لنا ويقول : « إن ابن الخطيب استولى على سامعيه ، فأبكاهم تأثراً » .

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب فى رعاية السلطان « أبى سالم » الذى اقطعه الأراضى، ورتب له الرواتب ، حيث استقر فى مدينة « سلا » (7) حوالى ثلاثة أعوام منفياً 760 ـ 763 هـ (1358 ـ 1361 م) ، اقتنى خلالها الضياع والأموال، ولكن لم ينس ـ فى الوقت نفسه ـ نزعته الثقافية والتاليفية، فجاس خلال مدن المغرب دارساً باحثاً ، ملتقياً بالعلماء فى تجواله ، وفى نهاية المطاف يرجع الى سلا ، حيث يرابط بضاحية « شالة » ، قرب أضرحة ملوك بنى مرين .

---

6) نفح الطيب للمقرى جـ 3 ص 46 ـ 48 ، أزهار الرياض لنفس المؤلف جـ 1 ص197 ـ 200 وهى ثمانون بيتا .

7) سنعرف أيضاً بهذه المدينة من بعد فى مناسبة وحماها .

ولقد أصيب ابن الخطيب ـ ابان هذه الفترة ـ فى زوجته أم أولاده ، وبالرغم من كل ما اصابه من نكبات متوالية فانه لم يقعد عن التأليف ، ولم يخلد الى الراحة والسكينة ، ويكفي دليلا على هذا تلك المؤلفات التي حررها وقتئذ ، ومن أهمها :

1) معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار (هذا الكتاب) .

2) نفاضة الجراب ، وعلالة الاغتراب .

3) اللمحة البدر في تاريخ الدولة النصرية .

4) الحلل المرقومة ، فى اللمع المنظومة (8) .

5) رقم الحلل ، فى نظم الدول .

6) كناسة الدكان ، بعد إنتقال السكان .

7) رسائل فى فنون مختلفة ، معظمها نظمه شعرا .

وفى هذه الأثناء تم انقلاب فى فاس ، ترتب عليه مصرع السلطان أبى سالم ، فى ذى القعدة 762 هـ (1360 م) ، وتقلد السلطان صاحب الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله ، الذى أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره ، ووقف الى جانبه فى استرجاع عرشه ، حتى سنحت الفرصة ، وواتت الظروف ، باندلاع ثورة جديدة فى غرناطة ، صرع فيها السلطان اسماعيل بن الأحمر على يد الرئيس أبى سعيد ، الذى فر الى (قشتالة) عقب عودة الغنى بالله الى الأندلس ، واستيلائه على ولاية مالقة ، ثم دخوله غرناطة ، وتربعه على العرش من جديد عام 763 هـ = 1361 م .

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد ، محمد الخامس الغنى بالله ، وزيره المنفي ابن الخطيب ، ليقدم الى دار ملكه ، برسالة مؤرخة : 14 جمادى الآخرة 763 هـ (15 أبريل 1361 م) وليتقلد منصبه السابق ، فاستجاب ابن

---

(8) هذا الكتاب يتحدث فيه ابن الخطيب عن تاريخ الدولة الاسلامية ، وقد أهداه الى السلطان أبى سالم المرينى ملك المغرب ، فكافأه عليه بمضاعفة رواتبه ، كما كتب ـ فى شأن المؤلف ـ الى سلطان غرناطة ، يطلب منه الافراج عن ممتلكات ابن الخطيب المصادرة .

الخطيب ، وجاز البحر صحبة أسرة السلطان وأسرته ، ثم وصل العاصمة ، وهناك وجد من يزاحمه منصبه ، وينافسه السلطة ، وهو شيخ الغزاة (عثمان بن أبي يحيى) ، صاحب اليد على السلطان فى استرجاع العرش ، فنشب خلاف بين الرجلين ، وحقد كلاهما على الآخر ، ولكن ابن الخطيب كان أشد مراساً بأساليب الكيد والدس ، فتغلب على خصمه ؛ اذ زين للسلطان خطورة نفوذ عثمان هذا ، وبدأ يخيفه من غدره وغدر أشياعه ، فاستجاب ابن الأحمر لنصح ابن الخطيب ، وقضى على عثمان وآله فى شهر رمضان 764 هـ = 1363 م ، وبذلك استرد ابن الخطيب كامل سلطته ، دون مناوىء أو منافس ، ولكن الى حين ، فقد شعر مرة أخرى بما يحاك حوله من دسائس ومكائد ، ورأى سلطانه يتأثر بسعاية الخصوم ، وقد تزعم هذه الحملة الجديدة ضد ابن الخطيب رجلان وثيقا الصلة بالسلطان بحكم وضعيتهما فى الخدمة السلطانية ، ولمكانتهما السياسية فى الدولة ، وهما :

1) الشاعر محمد بن يوسف المعروف بـ « ابن زمرك » تلميذ ابن الخطيب ، ومعاونه في الوزارة .

2) قاضى الجماعة أبو الحسن على بن عبد الله النباهى ، ولى نعمة ابن الخطيب .

وحينئذ شعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان ، بين هذين الرجلين الداهيتين ، فدبر أمره على مغادرة الأندلس نهائياً ، دون أن يشعر السلطان مطلقاً بذلك ، وفعلا طلب منه ان يأذن له فى تفقد بعض الثغور والموانىء الأندلسية ، فأجابه السلطان ، وكان وزيرنا ـ من جانبه ـ قد أعد العدة للابحار الى المغرب ، حيث يحل ضيفاً لاجئاً على السلطان أبى عنان فارس بن أبي الحسن المرينى ، وقد تم له ذلك بوصوله الى جبل طارق ، الذى كان يومئذ ضمن أملاك المرينيين ، ونجحت الخطة ، اذ استقبله قائد الميناء بحفاوة ، وسهل له مهمته ، بأمر من سلطان المغرب ، وأجازه الى سبتة هو ومن معه من ولده ، وقبل أن يودع هذه البقاع بعث برسالة مؤثرة الى السلطان الغنى بالله

يعلل فيها مسلكه هذا ، ويبرر تصرفه الاضطرارى ، وأخيراً يطلب غفرانه ، راجياً عونه لأسرته التى خلفها وراءه فى غرناطة .

وصل ابن الخطيب الى سبتة ومنها التحق بتلمسان ، مقر السلطان عبد العزيز الذى احتفى به وأكرمه ، ثم بعث بسفرائه الى غرناطة ، يلتمس من سلطانها ان يجيز أسرة ابن الخطيب ، فأجابه ابن الأحمر الى طلبه ، وكان ذلك عام 773 هـ = 1371 م .

وكان من المتوقع أن يهنأ ابن الخطيب بهذا المقام بالمغرب ، فالسلطان قد أحله مكانته اللائقة به ، وأبدله مما فقد الشيء الكثير ، ولكن – للأسف – اتخذ منافسوه بغرناطة من هربه – على هذه الصورة – مادة دسمة للكيد ، وأكدوا للسلطان محمد الخامس ابن الأحمر ادانته ، وعدم وفائه لولى نعمته ، وزاد الاتهام تأكيداً أن ابن الخطيب كان حريصا على أن يحمل معه أمواله وذخائره الى المغرب ، وفى هذا يخاطب القاضى النباهى غريمه – فى الرسالة المعروفة التى بعث بها اليه : « فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، . . . ثم هربتم بأثقالكم »(9) .

كان القاضى النباهى فيما سبق من أنصار الوزير ابن الخطيب ، بل إن تعيينه قاضياً للجماعة واستصدار ظهير هذا المنصب قد تم على يدى ابن الخطيب نفسه ، كما نجد فى كتاب الاحاطة ترجمة للنباهى تنبىء عن تقدير ابن الخطيب لهذا الرجل ؛ اذ ينعته بأنه « قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف عن نظمه ، ذاكر للكثير ، بعيد المدى فى باب النزاهة ، ماضي غير هيوب . . . الخ » ، ولكن ذلك « النباهي » تنكر تماماً لابن الخطيب ، ولم يحفظ له هذا الجميل ؛ فقد آزر الوزير « ابن زمرك » ضده ، وسعى سعياً حثيثاً فى سبيل القضاء عليه ، وتتجلى هذه الروح الشريرة ، وما يمليه الحقد الشخصى ، والضغائن الدفينة ، فى تلك

---

9) المقرى فى « نفح الطيب » جـ 7 ص 56 .

الرسالة التي بعث بها القاضي النباهي الى ابن الخطيب بالمغرب ، وفيها يعيب عليه الانصراف الى اقتناء الضياع والديار ، كما أنه نسب اليه ـ في بعض مؤلفاته ـ بعض محدثات في الدين ، مما يمس الشريعة الاسلامية ، كما تناول في بعض هذه المؤلفات الأموات من الناس ، وذلك بالطعن أو العيب فيهم ، الأمر الذي يستنكره الدين . . . . ، الى آخر ما جاء في تلك الرسالة من هذه المثالب ، وحتى مغادرة ابن الخطيب للأندلس مؤخراً ـ على تلك الصورة ـ رأى فيها النباهي غدراً بالسلطان ولي نعمته ، كما كذبه في ادعائه الانقطاع للعبادة في المغرب ، وأنه لو أرادها حقيقة لقصد الديار المقدسة ، أو أبقى على نفسه بغرناطة بجوار الكفاح والجهاد ، لنصرة المملكة الاسلامية التي يتهددها خطر الأسبان كل حين .

وفي الأخير ينهي النباهي رسالته بالنيل من أسرة ابن الخطيب ، بأنها حديثة النعمة ، وأن ثروتها هذه لم تأت الا عن طريق المنصب والسلطة . .

وقد كان لهذه الرسالة أثر كبير فيما بعد ؛ حيث كانت صك الاتهام ، وأدين ابن الخطيب على أساس ما ورد فيها ، وذلك عندما حلت نكبته ، ودلت ساعة لحسه (٢٥) .

هذا ، ويرجع تاريخ الرسالة هذه الى أواخر جمادى الأولى 773 هـ = 1372 م ، وقد تسلمها ابن الخطيب بتلمسان ، وأجاب على ما جاء بها مفصلا ، في كتابه « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » ، وشدد النكير على القاضي النباهي ، عندما وصفه بانه « الجعسوس » أي : القزم الدميم ، وزاد ابن الخطيب فوضع رسالة خاصة للنيل من خصمه اللدود ، وسماها « خلع الرسن ، في وصف القاضي أبي الحسن » .

ظل القاضي النباهي وابن زمرك على عزمهما بسحق غريمهما ابن الخطيب ، فبعد احراق كتبه العقائدية ، عهد النباهي الى قضاة غرناطة باستصدار حكم الشرع في جريمة الالحاد ، وهو الاعدام ، وحصل من السلطان على مصادقة بهذا

---

(٢٥) المقري في « أزهار الرياض » ج ١ ص ٢١٢ ـ 224، حيث أورد المؤلف الرسالة كاملة.

الحكم ، وبعث القاضي أبو الحسن بنوابه الى السلطان عبد العزيز وبأيديهم هذا الحكم ، فقابل السلطان رسل غرناطة بالاستنكار ، وخاطبهم قائلا : « هلا انفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه ! ! ! » وبالغ في اكرام ابن الخطيب ، وأضفى عليه مزيداً من عنايته .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ابن الخطيب قد لاحظ وقتئذ قوة المغرب في عهد صديقه السلطان عبد العزيز ، ومبلغ العداء بين فاس وغرناطة وقد بلغ أوجه ، فحرض السلطان على ضم غرناطة لمملكته ، وقد رمى من وراء ذلك الى سحق أعدائه هناك ، وتأمين مقامه بالمغرب ، وما يتبع ذلك من حماية مصالحه .

ويظهر أن هذه السياسة قد لاقت قبولا عند السلطان عبد العزيز ، فصمم على تنفيذها ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ثم تأكدت العداوة بينه (ابن الخطيب) وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب (11) » ، وبلغت ابن الأحمر رغبة ملك المغرب هذه ، فتخوف لذلك كثيراً ، وأسرع الى ايفاد رسله بالهدايا والتحف الثمينة الى بلاط فاس ، آملا في نيل رضا السلطان عبد العزيز ، واتقاء شره . ثم تفاجيء الظروف الموقف ، فيموت السلطان عبد العزيز بعدئذ بقليل ، ويجلس على عرش المغرب ابنه « أبو زيان محمد السعيد » طفلا في الرابعة من عمره ، في ربيع الآخر 774 = 1372 م ، وقبض على زمام السلطة الفعلية وزيره « أبو بكر بن غازي » ، فتغيرت الأوضاع السياسية بالمغرب تماما ، واضطر ابن الخطيب حينئذ أن يتزلف الى الملك الطفل ووزيره ، فألف كتابه المعروف باسم « أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » ، وفيه يبرر هذا الوضع الجديد شرعا ، وعرفا وتاريخا ، وأورد لذلك الأشباه والنظائر ، رداً على المناهضين بالمغرب ، وخاصة بني الأحمر وعملائهم .

---

(11) ابن خلدون في « العبر » جـ 7 ص 338 — 341 .

وفي هذه الأثناء قام السلطان ابن الأحمر بمحاولة أخرى للايقاع بابن الخطيب ، وذلك بأن أوعز الى الوزير « ابن غازى » أن يبعث اليه بابن الخطيب ، فامتنع ابن غازي ، وتوترت العلاقات مرة أخرى ، بين غرناطة وفاس ، الأمر الذى جعل ابن الأحمر يوغر صدور هؤلاء الأمراء المرينيين ضد النظام القائم فى فاس ، وبذل فى سبيل القضاء على هذا النظام مساعدات ضخمة ، كما أقنع من اتصل بهم من حكام الأقاليم ــ وخاصة حاكم سبتة أبا محمد بن عثمان ــ بأن من الأفضل للمغرب أن يكون الملك رجلا راشداً ، لا طفلا صغيرا ، لا يدرك شيئاً ، واتفق معه على تنصيب الأمير المرينى أبى العباس أحمد بن أبى سالم ملكاً على المغرب ، وأنه ــ أى محمد بن عثمان ــ سيكون الوزير مستقبلا ، وأعطاه المزيد من المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق ، على أن يحقق هذا الوزير لابن الأحمر ثلاثة مطالب ، بعد نجاح الخطة ، وهي :

1) تسليم ابن الخطيب .

2) تسليم الأمراء المناهضين لابن الأحمر .

3) تسليم جبل طارق .

ووقعت بعض الحوادث بالمغرب ، وتمخضت عنها ثورة قاضية ، أدت الى حدوث الانقلاب المنشود لابن الأحمر ، ونودى حينئذ بالأمير أحمد بن السلطان أبى سالم والياً على المغرب (776 هـ = 1374 م) .

وهنا أسرع السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب ، وسجنه ، وبذلك تهيأت الفرصة لوضع نهاية الوزير المنكود ؛ فقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس سليمان بن داود من الد خصوم ابن الخطيب ، ومن جهة أخرى فقد أرسل سلطان غرناطة سفيره ووزيره عبد الله بن زمرك الى فاس ليشهد آخر فصل فى هذه الرواية ، وليدق آخر مسمار فى نعش ابن الخطيب ، وبوصول ابن زمرك عقد السلطان أحمد مجلساً من مستشاريه وكبار رجال الدولة ، ونوقش ابن الخطيب أمام هذا المجلس ، حول كافة الادعاءات المقامة ضده ، وبالأخص دعوى الالحاد ، تلك الدعوى التى صاغها القاضى النباهى من قبل ، وكان مجلساً

صوريا بطبيعة الحال ؛ فان نتيجة المحاكمة كانت مقررة ، ومتفقا عليها من قبل، في كل من غرناطة وفاس .

لقد أوذى ابن الخطيب أمام شهود هذه المؤامرة ، وافتى الفقهاء المتعصبون باعدامه شرعا ، فأعيد الى سجنه حيث دبر الوزير سليمان بن داود أمر قتله في السجن ، وفعلا بعث اليه ببعض الأشرار الذين قتلوه خنقا أواخر عام 776 هـ = 1375 م ، وفى الصباح سحبت جثته الى الفضاء ، حيث تم حرقها ، ودفن بضاحية فاس (12) .

ويروى المقرى أنه تمكن مؤخرا من معرفة قبر ابن الخطيب ، وذلك خلال اقامته بفاس ، أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (القرن السابع عشر الميلادى) ، فزاره مرارا حيث يرقد ، وفى هذا يقول : « وقد زرته مرارا ـ رحمه الله تعالى ـ بفاس المحروسة ، فوق باب المدينة الذى يقال له : باب الشريعة ، وهو يسمى الآن « باب المحروق » ، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض، بل ينزل اليه بانحدار كثير (13) » .

رحم الله ابن الخطيب كفاء ما زود التاريخ من ذخائر ، وأهدى العلوم والمعارف من نفائس .

---

(12) ابن خلدون « العبر » ، جـ 7 ص 341 ـ 342 .

(13) المقرى « نفح الطيب » ، جـ 7 ص 83 .

ابن الخطيب
فى نظر بعض المؤرخين والمستشرقين

قضى الوزير الفذ ، والمفكر العظيم ، والمؤرخ الكبير ، والموسوعة العلمية ، على هذا النحو ، ضحية الأحقاد والأضغان ، وبالرغم مما أثير حول الرجل إبان محنته من موجة عارمة بالسخط ، فان هذه الموجة لم يطل أمدها ، اذ كانت مغرضة عارية من ثوب الحقيقة ، يدل على هذا ما رأيناه من المؤرخين القدامى ، الذين انبرت أقلامهم لانصافه ، واحلاله المكانة اللائقة به بين رجال التاريخ ، ونخص من المؤرخين أولئك الذين قربوا من عهده ؛ فابن خلدون صديقه القديم يسجل أولا انه « هو الهالك لهذا العهد ، شهيداً بسعاية أعدائه (14) » ، ثم يورد — فى مقام آخر — انه « شاعر الأندلس والمغرب فى عصره » ، كما يشهد له فى ميدان الشعر والنثر بقوله : « وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ فى الشعر والترسل ، حيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » ، ويتحدث ابن خلدون كذلك عن رسائل ابن الخطيب السلطانية بقوله : « وصدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبة جيرانهم (ملوك بنى الأحمر) من ملوك العدوة » .

وحقا لقد خلف ابن الخطيب من هذه الرسائل روائع ، تعد نموذجاً رفيعاً ، لما بلغه قلم الرجل من شأو فى فن النثر الوزاري السياسى خاصة ،

---

(14) المقرى « أزهار الرياض » جـ 1 ص 191 .

سواء ــ من هذه الرسائل ــ ما بعث به على لسان سلطانه الى ملوك المغرب أو ملوك النصارى ، أو سلاطين مصر ؛ فبين أيدينا الكثير الجمّ ، ويعتبر كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » مجلداً ضخماً لألوان نثر ابن الخطيب المختلفة، ما بين أغراض سلطانية ، الى رسائل اخوانية ، الى أوصاف حربية لمعارك دارت رحاها على أيامه .

أما المقرى فقد جمع فى مؤلفه « نفح الطيب » معظم آثار ابن الخطيب ، وما كان له من أخبار في الفترة التى عاشها بالاندلس والمغرب ، ويكاد يكون معظم هذا السفر الضخم وقفاً على ابن الخطيب ، حتى أنه قرن اسم الكتاب به .

وقد أشاد المقرى فى أكثر من موضع ــ من كتابه هذا ــ بوزيرنا ، فيقول عنه مثلا : « اذ هو فارس النظم والنثر فى ذلك العصر ، والمنفرد بالسبق فى تلك الميادين باداة الحصر (15) » .

وفى مجال العلوم والآداب بالوانها هو « امام هذه الفنون ، المحقق لذوى الآمال والظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درها المكنون ، وله اليد الطولى في العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الرائعة التى تزيح وحشة الأنفس بايناسها (16) » .

وبالجملة ، فالمقرى يرى أن ابن الخطيب « قد قصرت ألسن البلغاء عن علاه ، وزانت صدور الدواوين حلاه ، وجمع خلالا حسانا ، وكان للدين لسانا (17) » .

أما الأمير « أبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر » ، معاصر ابن الخطيب ، فيسجل فى كتابه « نثير فرائد الجمان ، فيمن ضمنى واياهم الزمان » مواهب

---

15) المصدر السابق جـ 1 ص 77 .

16) المقرى « نفح الطيب » جـ 1 ص 110 .

17) المقرى « نفح الطيب » جـ 7 ص 111 .

هذا الوزير وعبقرياته ، فيقول : « هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب العَرْض الى يوم العَرْض ، لا يُدافَع مدحه في الكتب ، ولا يُجنح فيه الى العتب ، آخر من تقدم في الماضي ، وسيف مقولة ليس بالكهام ؛ اذ هو الماضي ، والا فانظر كلام الكُتاب الأوّل من العُصْبة ، كيف كان فيهم بالافادة صاحب القصبة ، للبراعة ، باليراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بكرهم وأصائلهم ، المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والامتاع بالفهوم العقلية (18) » .

كذلك يبدى النقاد الأجانب اعجابهم وتقديرهم لابن الخطيب ، وينوّهون في كثير من المناسبات بمنزلة الرجل العلمية والأدبية ، وما زالت آثاره محل دراستهم المستفيضة ، معينا لا يغيض ، ومنهلا بالمعارف يفيض .

وفي طليعة هؤلاء النقاد الأجانب المستشرق الأسباني (سيمونيت Simonet) حيث يقول : « ان ابن الخطيب قد خلّف لنا آثارا كثيرة ، في النثر والشعر ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والرحلات ، والبلاغة ، والشريعة ، والعلوم ، والأخلاق ، والدين ، والنبات ، والطب والبيطرة ، والموسيقى ، والفن الحربي ، والسياسة ، وكلها غنية في الابتكار والتعمق والرشاقة (19) » .

وبهذه المناسبة نذكر أن المستشرق « سيمونيت » تناول بالتحقيق والترجمة المدن الأندلسية التي وصفها ابن الخطيب في كتابه « معيار الاختيار ، في ذكر المعاهد والديار » موضوع هذا الكتاب — كما أسلفنا في المقدمة — على نحو ما سنفصل القول عنه في الباب الثالث ، عند حديثنا عن قيمة مؤلفه هذا من الناحيتين التاريخية والأدبية .

---

18) المقري « أزهار الرياض ، في أخبار القاضي عياض » ج 1 ص 191 .

19) F. J. Simonet. Discripcion Del Rieno de Granada, Sacada Del Los Autores Arabigos.

هذا ، ويكفينا فى هـذا العرض الموجز للتعريف بابن الخطيب أن نقتصر على آراء هؤء المؤرخين وبعض المستشرقين كشهادة صادقة للرجل الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وإن هذه الشهادة من أمثال هؤلاء لفى غنى منا عن التعليق ، فقد استقاها أصحابها من واقع مؤلفاته العديدة ، أبلغ حجة ، وأوضح بيان ، وأقوى برهان ، على مدى ما بلغه ابن الخطيب من شهرة سمت الى الأوج ، لما تمتع به من عقلية فذة ذات آراء نافذة .

الفصل الثاني

تراثه الفكري

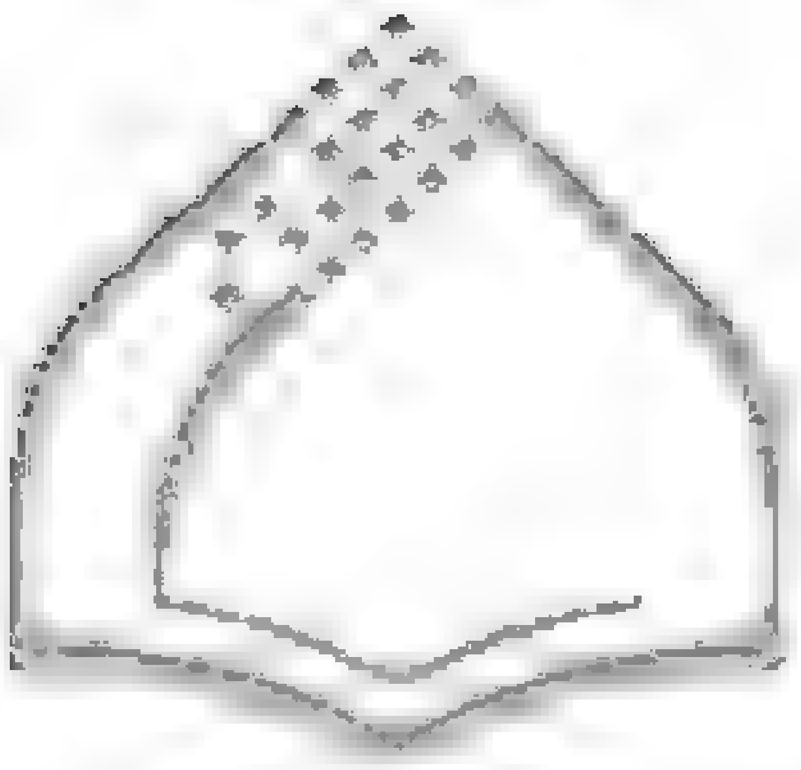

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

آثار ابن الخطيب

مؤلفات الوزير العبقرى الغرناطى ابن الخطيب متعددة الفنون ، ما بين شعر ونثر ، وتاريخ ، وطب ، وموسيقى ، وسياسة ، وغيرها ، وهى – على وجه التقريب – تربو على الخمسين مؤلفاً ، ففى الترجمة التى عقدها ابن الخطيب لنفسه فى آخر كتابه « **الاحاطة فى أخبار غرناطة** » أورد أسماء مؤلفاته ، بيد أن قدراً هاماً من هذه المؤلفات قد أعدم قبله ، على يد الوزير ابن زمرك والقاضى النباهي بغرناطة ، عام 773 هـ (1371 م) ، ومعظم هذه الكتب تتعلق بعلوم الأخلاق والعقائد ، أما مؤلفاته التى بين أيدينا الآن فهي القسم الأدبى والتاريخى فى الغالب ، وقد حاول كثير من المؤرخين والمستشرقين حصر هذه المؤلفات فى فهارسهم ، ولكن حياة ابن الخطيب السياسية ، والتقلبات التى تعرض لها جعلت هؤلاء المستشرقين أو المؤرخين لا يفرقون بين ما ألفه الرجل فى المغرب ، وبين ما ألفه فى الأندلس . ويرى « ليفي بروفنسال » أن مؤلفات لسان الدين قد بلغت حوالي ستين كتابا، ولكن لم يبق منها الا الثلث تقريبا.

هذا ، وإن كتب ابن الخطيب – سواء منها ما هو مخطوط لم يحقق بعد ، أم ما حقق ونشر – لتحتل مركزاً ممتازاً بين المصادر التاريخية المعتمدة ، لاسيما منها ما يتناول هذا الجزء من الغرب الاسلامى فى المغرب والأندلس ، فقد أنارت السبيل أمام المؤرخين والعلماء ، ويسرت لهم بحوثهم عن هذه البقاع ، لقلة المصادر الأخرى المعاصرة ، ولأن ابن الخطيب قد عاش هذه الحقبة من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

ونزيد فنقول : إن هذه المؤلفات العديدة ـ بصفة عامة ـ ما تزال تحظى بالتقدير والبحث منذ عصر وزيرنا حتى الآن ، لا عند العرب فقط ، بل وعند غيرهم أيضاً ، فذخائر ابن الخطيب تراث مشاع ، يدرسه المستشرقون على اختلاف أجناسهم ، ويجلون كنوزه ، ويبرزونها الى الفكر الانساني في العالم، ليشهد طلاب الأدب والمعرفة ما تمخضت عنه عقلية الرجل الواسعة ، مما تحتويه المكتبات العربية والأجنبية منها .

ويجدر بنا أن نعرض هنا موجزاً لأهم آثار ابن الخطيب مما ينسب إليه تأليفه ، سواء أكان موجوداً أم مفقوداً ، وسواء أكان مخطوطاً أم تم تحقيقه ونشره ، والذى لا أعتقد أنه بيان شامل لكل مؤلفاته ، فقد يتسنى لباحث آخر أن يعثر على مؤلفات أخرى له زيادة عما أعرض منها مما فاتني تحصيله (1) :

1 ـ « الاحاطة في اخبار غرناطة » .

(تاريخ وتراجم)

من أشهر مؤلفات ابن الخطيب ، توجد له نسخ في كل من القاهرة (الأزهر ودار الكتب) وتونس ، والرباط ، ومدريد ، والاسكوريال ، وعنوان الكتاب ينبىء عن موضوعه ، فقد تناول فيه أخبار هذه المدينة الشهيرة، تاريخياً وجغرافياً وسياسياً واجتماعياً وأدبياً ، منذ الفتح العربي لاسبانيا حتى عصر المؤلف (دولة بني الأحمر) ، منتهياً منه إلى عهد السلطان الغني بالله محمد

---

20) هذا القدر من مؤلفات ابن الخطيب اعتمدنا في ايراده على المصادر التالية :

أ ـ نفح الطيب ، للمقرى ، جـ 4 ص 653 ـ 657 .

ب ـ أزهار الرياض ، للمقرى ، جـ 1 ص 189 ـ 190 .

جـ ـ فهرس بروكلمان C. BROCKELMAN : Geschichte der Arabischen Literatur : (1948) 13. 11. p. 339.

د ـ فهرس الغزيرى CASIRI : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis

هـ ـ فهرس ديرنبور H. DIRENBOURG : Les Manuscrite Arabes de l'Escurial

F. PONS BIOGYES : Ensayobio-Bibliografico sobre los Historiodores y, V. I. & V. III. Geografas Arabiyo-Espanales (Madrid 1898) P. 334 - 347.

و ـ ابن الخطيب من خلال كتبه ـ للأستاذ التطواني (جزءان) المغرب 1948 .

الخامس ثامن ملوك بنى نصر ، حيث وزر له مرتين ، ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر سفراً ، وهى فى مجموعها قسمان ، كما جاء بنهاية المقدمة :

1) « القسم الأول فى حلي المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن » ، وهو الخاص بالعاصمة « غرناطة » ، ويشغل هذا القسم عشرين لوحة (أربعين صفحة) .

2) « القسم الثاني فى حلي الزائر والقاطن ، والمتحرك والساكن » ، وهو لب الكتاب ، ففيه تراجم الملوك والوزراء والقواد والعلماء والأدباء ، ومن إلى هؤلاء ، ملتزماً فى هذا الترتيب الأبجدى لا التاريخى . ويرجع تأليف ابن الخطيب للاحاطة إلى ما قبيل عام 760 هـ ، ولكنه لم يفرغ منه إلا فى أواسط عام 765 هـ ، ففى نهاية ترجمته لنفسه يحدثنا عن فراغه من « الاحاطة » بقوله : « والحال إلى هذا العهد ، وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة ، على ما ذكرته » . هذا، وتوجد من الاحاطة نسخة مطبوعة فى جزأين (القاهرة 1319 هـ)، ثم حقق الأستاذ عبد الله عنان الجزء الأول منها ، بتحقيق جديد ، ضمن مجموعة (ذخائر العرب 17) نشر دار المعارف بالقاهرة عام 1955 م .

2 ـ « **الاماطة عن وجه الاحاطة ، فيما امكن من تاريخ غرناطة** » .

(تاريخ)

ورد ذكر هذا المؤلف فى كتاب ابن الخطيب (اللمحة البدرية) ، فربما كان مختصراً لكتابة (الاحاطة) ، على أنه لم يرد اسمه ضمن كتبه التى ذكرها فى هذه الاحاطة .

3 ـ « **مركز الاحاطة ، فى أدباء غرناطة** » .

مؤلف أورده المستشرقون فى فهارسهم ، ويعتقد أنه تكملة لتراجم الاحاطة .

4 ـ « **ريحانة الكُتّاب ، ونُجعة المُنتاب** » .

(ألوان أدبية وسياسية)

عبارة عن مقتبسات من مؤلفاته الأخرى ، مثل بستان الدول ، ورقم

الحلل ، وغيرهما ، وتوجد لهذا المؤلف الضخم أكثر من مخطوطة ، في كل من الرباط والقاهرة ومدريد والفاتيكان ، بيد أن نسخاً كاملة منه موجودة في الخزانة العامة بالرباط ، بالاضافة الى أخرى بمكتبة مدريد الوطنية .

5 ـ « اعمال الأعلام ، في من بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام ، وما يجر ذلك من الكلام » .

(تاريـخ)

وهو مؤلف في التاريخ الاسلامي ، يقع في جزأين ، أولهما خاص بالشرق الاسلامي ، وثانيهما خاص بتاريخ الأندلس ، ولاسيما ملوك الطوائف ، وبني نصر ، وملوك النصارى ، وذلك على سبيل الايجاز . . . ، وقـد أشار المؤلف في مقدمته الى أن هذا الكتاب هو آخر مؤلَّف له ، فقد وضعه في الفترة الأخيرة من حياته وقبيل مقتله بالمغرب ، استجابة للظروف التي كان يجتازها حينئذ ، ثم انقلب الوضع بعدها ، وكانت نهايته على نحو ما سبق تبيانه .

توجد للكتاب نسخة في مدريد ، نقلا عن نسخة الجزائر ، وقد حقق الجزء الأول منه والخاص بتاريخ الأندلس ـ الأستاذ ليڤي بروڤنسال سنة 1934 م وحقق الجزء الثاني منه الدكتور العبادي والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ـ وهو الخاص بتاريخ المغرب ، العصر الوسيط ـ (دار الكتاب بالمغرب عام 1967 م) .

6 ـ ((الكتيبة الكامنة ، في من لقيناه بالاندلس من شعراء المئة الثامنة)) .

(تراجـم)

هذا الكتاب عبارة عن تراجم لطائفة من الأدباء والعلماء والكتـاب المعاصرين للمؤلف ، متضمناً نماذج من آثارهم شعراً ونثراً ، ويقع المؤلف في ست وثمانين لوحة بمكتبة مدريد الوطنية ، وهي نسخة من مخطوطة الجزائر ، وقد حقق هذا الكتاب الدكتور إحسان عباس سنة 1963 م ، (دار الثقافـة ببيروت ـ المكتبة الأندلسية 8) ، وأثبت لنا أن ابن الخطيب كان يحرر الكتيبة في جمادى الآخرة 774 هـ ، معتمداً في ذلك على قول المؤلف نفسه في (الورقة 85 ب) : « . . وكل من ذكر الى هذا الحد من المشايخ والأتراب ، فقد تسابقوا تسابق الغراب الى التراب . . . ، ومن يجري ذكره بعد هذا فهم بقيد الحياة لتمام جمادى الآخرة عام أربعة وسبعين وسبعمئة » ، كذلك استنتج المحقق

من دراسته الدقيقة لمقدمة هذا الكتاب أن ابن الخطيب ألفه في سن عالية بعد أن نفض عن كاهله غبار السياسة ، مستدلا بقول ابن الخطيب في المقدمة « . . . واستوعبت من صحبة المغرب حصتي ، وختمت بالدعاء قصتي ، ونزلت عن منصتي ، وابتلعت غصتي (21) » .

7 – « اللمحة البدرية ، في الدولة النصرية » .

(تـاريخ)

مؤلف تاريخي موجز ، يدور حول أخبار ملوك بني الأحمر ، منذ قيام دولتهم حتى عام 765 هـ . . . والكتاب مطبوع فى القاهرة عام 1947 م .

8 – « رقم الحلل ، فى نظم الدول » .

(شعـر)

نظم شعرى فى ألف بيت ، يتناول فيه المؤلف تاريخ الدولة الاسلامية بالمشرق والأندلس ، مذيلا كل قصيدة بشرح لها ، ويقع المؤلف فى مجلد واحد ، طبع بتونس عام 1316 هـ .

وتجدر الاشارة الى أن هذا الكتاب هو نفسه « الحلل المرقومة » ، تبعاً لما جاء فى نسخة مكتبة مدريد الوطنية ، والتى نسخت عن مخطوطة الاسكوريال (رقم 1776) .

9 – « مفاخرة بين مالقة وسلا »

(اجتماعيات)

10 – « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف »

(تاريخ لرحلة ملكية)

---

(21) راجع : (الكتيبة الكامنة) لابن الخطيب ، تحقيق الدكتور احسان عباس ص 13 – 15 وهذا يخالف ما ارتآه الأستاذ محمد عبد الله عنان في مقدمة « الاحاطة » من أن « الكتيبة » قد ألفها ابن الخطيب في باكورة حياته ، ونحن نميل الى الأول .

11 – « نفاضة الجراب ، في علالة الاغتراب »

(تاريخ مغربى)

يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ، أولها ما زال مفقوداً . وقد نشر الدكتور العبادى الجزء الثانى منه بمعرفة دار الكاتب العربى بالقاهرة 1968 م . أما الجزء الثالث فقد عثر عليه الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤخرا .

12 – « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » .

(الذى هو بين أيدينا الآن) .

13 – « مقنعة السائل ، عن المرض الهائل » .

(طب)

عبارة عن رسالة وصف فيها ابن الخطيب الوباء الكبير ، الذى اجتاح الأندلس وحوض البحر الأبيض المتوسط ، عام 749 هـ (1348 م) ، وسقط فيه جمهرة من أعيان الأندلس والمغرب وعلمائهما ، وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمتها للألمانية بمعرفة مجلة أكاديمية العلوم البافارية (1863 م) .

14 – « الاشارة الى أدب الوزارة »

(سياسة)

مؤلف تحدث فيه لسان الدين عن واجبات الوزير ، وما ينبغي توافره من الشروط فيمن يتقلد هذا المنصب ، وبالكتاب مقامة «السياسة» ، والكل ما زال مخطوطا بالأسكوريال ، وذلك ضمن المخطوطة (554) ، وقد فرغت من تحقيقه ، مردفا به « مقامة السياسة » لنفس المؤلف . وسيظهر ذلك قريبا .

15 – « عمل من طب لمن حب » .

(طب)

مؤلف طبي كبير ، تكلم فيه المؤلف عن الأمراض المختلفة ، وشخّص الاصابات ، كما شرح وسائل الوقاية ، وسبل العلاج ، والكتاب مهدى من ابن

الخطيب الى السلطان أبي سالم المريني ، فقد ألفه من أجله عام 761 هـ ، وهو مخطوط توجد منه نسخة بمدريد ، ويقع في 151 لوحة من الحجم الكبير .

16 ــ « **المسائل الطبية** » .

17 ــ « **اليوسفي في الطب** » .

18 ــ « **رجز الأغذية** » .

19 ــ « **رسالة تكوين الجنين** » .

20 ــ « **الرجز في عمل الترياق** » .

21 ــ « **الوصول لحفظ الصحة في الفصول** » .

22 ــ « **رجز في الطب** » .

23 ــ « **البيطرة والبيزرة** » .

وكلها رسائل طبية (16 ــ 23) ، ألفها ابن الخطيب في مناسبات شتى ، وأورد ذكرها في كتابه الاحاطة ، كما أشار الى معظمها المقرى في مؤلفيه نفح الطيب ، وأزهار الرياض .

24 ــ « **عائد الصلة** » .

(تراجم)

يحتوى على تراجم لطائفة من الأعلام ، ممن لم يرد لهم ذكر في كتاب « الصلة » لابن الزبير .

25 ــ « خلع الرسن ، في وصف القاضي أبي الحسن » .

(رسالة شخصية)

في وصف القاضي أبي الحسن ، هذه رسالة كتبها ابن الخطيب ، جواباً عن الرسالة التي وجهها إليه هذا القاضي النباهي ، إثر مغادرة الأول للاندلس نهائياً ، والتجائه الى المغرب دون علم سلطان غرناطة يومئذ (الغني بالله محمد الخامس) .

26 ـ « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » .

(تراجم وتاريخ)

وهو عبارة عن تراجم لأعيان الأندلس فى القرن الهجرى ، وتنويه بمملكة بنى الأحمر منذ نشأتها حتى عصر المؤلف ، وقد اعتمد المقرى على هذا الكتاب فى كثير من التراجم التى أوردها فى كتابه « نفح الطيب » ، ويوجد للتاج المحلى نسخة مخطوطة ضمن مخطوط كبير بالاسكوريال (554 الغزيرى).

27 ـ « بستان الدول » .

(تاريخ سياسى)

كتاب سياسى شامل ، تحدث فيه المؤلف عن القضاء ، والحرب ، والصناعة وأهلها ، وطبقات الشعب ، وأفرد لكل شجرة ، بحيث ألف من المجموع هذا « البستان » ، ويبدو أن الظروف لم توات ابن الخطيب حتى يكمله .

28 ـ « السحر والشعر » .

(أدب)

مجموعة مختارة من شعر المشارقة والمغاربة ، فيما يتعلق منها بالوصايا والمواعظ ، اختارها ابن الخطيب لولده عبد الله حيث أهداه اليه يافعاً ، والكتاب ما زال مخطوطاً فى كل من مدريد والرباط (المكتبة الكتانية) ، وهو لدىّ الآن تحت التحقيق والدراسة .

29 ـ « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » .

(وثائق تاريخية)

مؤلف تاريخى ، يضم مجموعة من الرسائل السياسية ، بعث بها ابن الخطيب على لسان السلطان أبى الحجاج يوسف الأول ، الى معاصره السلطان أبى عنان فارس المرينى ، فيما عدا وثيقة عقد زواج نصرى ، صدّر بها كتابه هذا تلو المقدمة ، وقد قمت بتحقيق هذا المؤلف ، من نسخة يتيمة بالاسكوريال برقم(1712 الغزيرى) وتقع فى ستين لوحة ، ونشرته دار الكتاب العربى بالقاهرة سنة 1968 م .

30 ـ « اوصاف الناس في التواريخ والصلات » .

(تراجم)

كتاب يشتمل على تراجم ادبية تاريخية ، توجد له مخطوطة جيدة للغاية بمكتبة الاسكوريال بمدريد ، قمت بتصويرها ، وقد فرغت الآن من تحقيقه، وسيظهر قريباً .

31 ـ « تافه من جم ، ونقطة من يم » .

(شعر)

مصنف من اشعار أستاذ ابن الخطيب الرئيس أبى الحسن علي ابن الجيّاب .

32 ـ « الدرر الفاخرة ، واللجج الزاخرة » .

(شعر)

مختارات من شعر صديقه واستاذه أبى جعفر بن صفوان .

33 ـ « جيش التوشيح » .

(موشحات)

مجموعة من الموشحات الأندلسية ، جمعها ابن الخطيب في كتاب أسماه بهذا الاسم ، ونسبها لأصحابها من ائمة التوشيح فى الأندلس ، وقد نشر في تونس 1967 م .

34 ـ « روضة التعريف بالحب الشريف » .

(تصوف)

مؤلف في التصوف ، يعزو المؤرخون الى هذا الكتاب أنه كان وثيقة الاتهام بالالحاد والزندقة ضد ابن الخطيب ، حسبما أملت الأهواء على من صاغوا صك الاتهام للرجل ، حتى سيق إلى الموت من أجله ، وتوجد من الكتاب نسخة مخطوطة بالرباط ، بيد أنها ناقصة ومشوهة (22) .

---

22) لقد عثر الأستاذ عبد القادر احمد عطا على نسخة مخطوطة لهذا الكتاب بالمدينة المنورة ، بمكتبة الشيخ عارف حكمت ، ولما كانت النسخة في درجة جيدة فقد اتخذها اساساً لتحقيق الكتاب ، مسترشداً معها بنسخة أخرى عثر عليها بمكتبة الظاهرية بدمشق ، الى جانب نسخة أسعد أفندي بتركيا المصورة بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، وقد نشر المحقق « روضة التعريف » بمعرفة دار الفكر العربي بالقاهرة عام 1968 م .

35 ـ « **استنزال اللطف الموجود ، في سر الوجود** » .
(تصوف) .

36 ـ « **فتات الخوان وسقط الصوان** » .
(رسالة شعرية) .

37 ـ « **المختصر فى الطريقة الفقهية** » .
(دين) .

38 ـ « **مثل الطريقة ، فى ذم الوثيقة** » .
(رسالة شخصية)

39 ـ « **الألفية فى أصول الفقه** » .
(رسالة دينية شعرية فى ألف بيت) .

40 ـ « **النفاية بعد الكفاية** » .
(رسالة أدبية) .

41 ـ « **كتاب المحبة** » .
(اجتماع) .

42 ـ « **المنح الغريب ، فى الفتح القريب** » .
(أدب) .

43 ـ « **تلخيص الذهب ، فى اختيار عيون الكتب** » .
(أدب) .

44 ـ « **مساجلة البيان** » .
(تراجم أدبية) .

45 ـ « **المباخر الطيبية ، فى المفاخر الخطيبية** » .
(أدب) .

هذه المؤلفات (35 ـ 45) وردت فى فهارس المستشرقين ، كما اشار إليها بعض المؤرخين القدامى .

46 ـ « **رسائل فى الموسيقى** » .

47 ـ « **رسائل في الفلسفة** » .

48 ـ « **رسائل في الفقه** » .

وهذه رسائل أخرى متفرقة ، ذكرتها الفهارس أيضاً ، ولم يصل إلينا منها شيء .

49 ـ « **الصيّب والجَهَام ، والماضي والكَهَام** » .

(شعـر)

وهو عبارة عن « الديوان » الذى نسبه إليه حاجي خليفة ، فى كتابه « كشف الظنون » ، وتوجد للكتاب ـ بهذا العنوان ـ نسخة مخطوطة فى مكتبة القرويين بفاس ، وقد حقق أخيرا بالجزائر ، وتم طبعه .

50 ـ « **طلّ الغمام ، المقتضب من الصيّب والجَهَام** » .

(شعـر)

وهو مختصر لديوانه السابق ، لم يعثر عليه بعد ، ولكن ورد ذكره ضمن مؤلفاته في الاحاطة .

51 ـ « **طرفة العصر ، في اخبار دولة بني نصر** »

(تـاريخ)

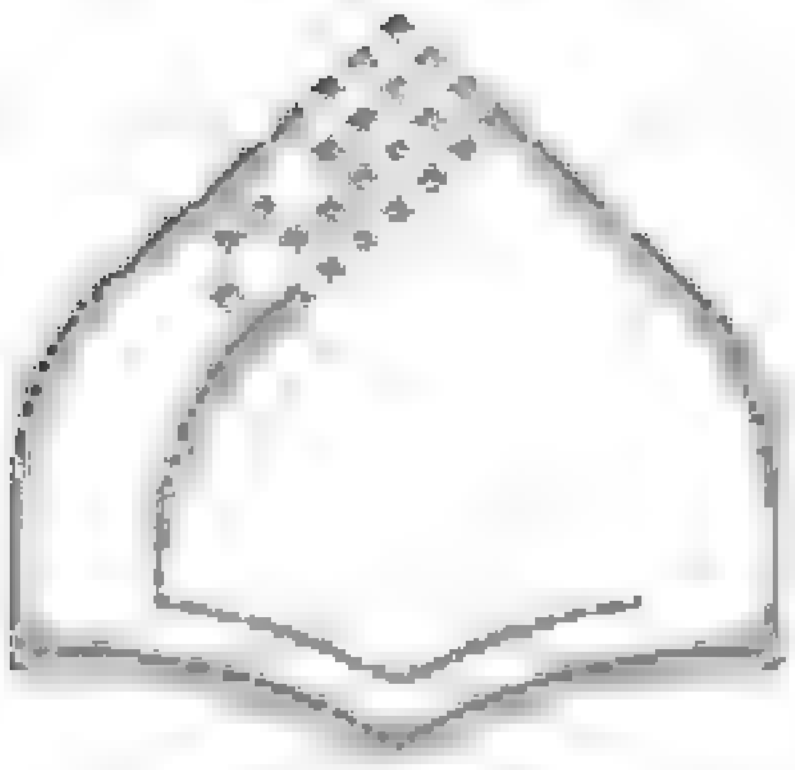

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصلُ الثالث

عرض وتحليل لمعيار الاختيار

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

موضوع الكتاب

ذكر الوزير ابن الخطيب فى آخر كتابه « الاحاطة » أسماء مؤلفاته اجمالا ، وأورد من بينها مؤلفه «معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار» على أنه مؤلف قائم بنفسه ، ثم أورده فى باب « المقامات » من مؤلفه الضخم « ريحانة الكتاب ، وتحفة المنتاب » والذى يشتمل على أكثر من غرض ولون أدبى تاريخى .

والمعيار الذى نتعرض لدراسته عبارة عن وصف شامل لأهم مدن مملكة غرناطة ، وأهم مدن المغرب ، تناول فيه ابن الخطيب النواحى الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لمعظم المدن التى أوردها .

لقد بدأ أول ما بدأ بجبل الفتح (جبل طارق) ، وهو يومئذ ضمن مملكة بنى مرين المغربية ، وكان طبيعيا أن يبدأ الوصف بالجبل ، فهو كما يقول المؤلف : « فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم ، وقصص المهارق ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباين للارض المفارق » ، والجبل بالنسبة للبلاد الاندلسية « محط طارقها بالفتح طارق » وله دوره الهام فى حماية البلاد الاندلسية حيث أنه « مسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب والاكباد » .

أما المدن الاندلسية التى أعقبها الجبل فى الوصف ، فهى — حسب الترتيب الذى أوردها به — كما يلى :

1 ـ اسطبونة	Estepona
2 ـ مربلة	Marabilla
3 ـ سهيل	Fuenjerola
4 ـ مالقة	Malaga
5 ـ بليش مالقة	Velez Malaga
6 ـ قمارش	Comares
7 ـ المنكب	Almuncar
8 ـ شلوبانية	Salobrana
9 ـ برجة	Berja
10 ـ دلاية	Dalias
11 ـ المرية	Almaria
12 ـ طبرنش	Tabernas
13 ـ بيرة	Vera
14 ـ مجاقر	Mujacar
15 ـ قنتورية	Cantoria
16 ـ برشانة	Purchena
17 ـ أورية	Oria
18 ـ بليش الشقراء	Velez Robla
19 ـ بسطة	Baza
20 ـ اشكر	Huescar
21 ـ أندرش	Andarax
22 ـ شبالش	Jubles
23 ـ وادى آش	Juadix
24 ـ فنيانة	Finana
25 ـ غرناطة	Granada
26 ـ الحمة	Alhama
27 ـ صالحة	Zalia

28 — أليرة ومنتفريد	Illora e Mouteferio
29 — لوشة	Loja
30 — أرجذونة	Archidona
31 — أنتقيرة	Antequera
32 — ذكوان	Coin
33 — قرطمة	Cartama
34 — رندة	Ronda

وأما المدن المغربية فهى حسب ترتيب المؤلف أيضا :

1 — بادس ، 2 — سبتة ، 3 — طنجة ، 4 قصر كتامة ، 5 — أصيلا ، 6 — سلا ، 7 — أنفا ، 8 — أزمور ، 9 — تيط ، 10 — رباط أسفى ، 11 — مراكش ، 12 — أغمات ، 13 — مكناسة ، 14 — فاس ، 15 — مدينة الملك ، 16 آقرسلوين ، 17 — سجلماسة ، 18 — تازة ، 19 — غساسة .

وعلى هذا فقد تناول ابن الخطيب أول ما تناول من مدن الاندلس مدينة « اسطبونة » ، وانتهى بمدينة « رندة » ، وهو فى تناوله هذا للمدن لم يراع ترتيبا جغرافيا ولا تاريخيا ، بل ولا أولويا ، فقد كانت مدينة غرناطة مثلا فى المرتبة السادسة بعد العشرين من وصفه ، رغم أنها حاضرة المملكة ، ولها من المبررات ما يجعلها أهلا للمرتبة الاولى من وصفه ، ولكن المؤلف حرر نفسه من كل قيد لتقديم مدينة على أخرى ، أيا كانت دواعى التفضيل ، وكيفما بلغت أهميته .

لقد كان المؤلف يتعرض للمدينة فى وصفه ، فيتناولها من معظم ما يتعلق بها ، اذ يتحدث عن موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية ، وحالة سكانها الاجتماعية ، فيعطينا صورة واضحة — الى حد بعيد — عن كل مدينة تناولها قلمه .

ففى وصفه لموقع مدينة « تمارش » مثلا ، وما للموقع من أهمية، يقول : انها « مودع الوفر ، ومحط السفر ، ومزاحم الفرقد والغفر ،

حيث الماء المعين ، والقوت الممين » . وأما منتجات البلد من محاصيله ، فقد أشار الى أن « به الاعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين واللوز والتين ، والحرث الذى له التمكين » . وفى معرض الوصف الاجتماعى يستدرك ابن الخطيب ، ذاما أهل البلد حين يقول : « الا أنه عدم سهله ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهله » .

أما اذا ارتأى مدينة حقيقة بمدح أحوالها الاجتماعية فهو لا يقصر فى حقها ، فمثلا مدينة « المرية » — على حد قوله « محط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تمبق طيبا ، ووجوه لا تعرف تقطيبا » وهى — الى جانب تلك الرفاهية وذلك النعيم ، واللذة والسرور المقيم — « لم تزل — مع الظرف — دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامساك » ، فهو حريص فى الوصف ، دقيق فى الاحاطة ، شأن الخبير بالاماكن والبقاع .

ناخذ أيضا مثالا لنهج المؤلف فى الاشادة بالاجتماعيات عند الناس ، وطريقته فى العرض للحقائق ، وتقصيه لها ، حين يذكر عن مدينة برشانة أن « أهلها أولو عداوة لاخلاق البداوة ، وعلى جوههم نضرة وفى أيديهم نداوة . يداوون بالسلافة علل الجلافة ، ويؤثرون علل التخلف على لذة الخلافة ، فاصبح ربعهم ظرفا قد ملىء ظرفا ، فللمجون به سوق ، وللمجون ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق ، وهى تبين بعض بيان عن عن أعيان» ، هذا من جانب، ومن جانب آخر لهذه المثالب، يذكر أن «وغدها (المدينة) يتكلم بملء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجور فيه » .

هذا ، وقد ظفرت بعض المدن الاندلسية بعناية خاصة من قلم ابن الخطيب ، كغرناطة ومالقة ، ولا عجب فلكل منهما مركزها الادارى والسياسى ، فالاولى حاضرة ملك بنى الاحمر ، وزهرة المدن الاندلسية ،

ولها على ابن الخطيب أياد لا تنسى ، فكان عليه أن يوفيها حقها ، وأن يعطيها مستحقها ، فيحلها — من وصفه — مكانتها اللائقة ، ولكن هذا لا يمنعه — كمؤرخ صادق — من أن يبرز لنا بعض عيوبها : سواء فى طقسها الشتوى ، وبردها الذى « يمنع الشفاه من رد التحيات » ، أو الاسعار التى « معيارها يشعر بالترهات » ، وجفاف طباع بعض أهلها ، الذى يصل الى درجة « سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونذالة الديار » : فهذا المسلك من ابن الخطيب نحو المدن فى وصفها يعطينا فكرة عن صدق قلمه، وتحرره من أى قيد، فغرناطة — وان كانت مقامه بجوار مخدوميه بنى الاحمر، ومحل سلطانه وجاهه — الا أن ذلك كله لا يمنعه من اعطاء كل ذى حق حقه ، وأنه فى هذا لا تأخذه لومة لائم .

لنستمع اليه فى شأن العاصمة النصرية ، حين يستهل وصف حمرائها: « كرسيها ظاهر الاشراف ، مطل على الاطراف ، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف » ، وفى معرض موقع المدينة ، يذكر لنا أن « هواءها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت — الجنوب عنها — الجبال ، فأمن الوبا والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال ، وفى جنة من النبال ، وانفسحت للشمال ، واستوفت الشروط على الكمال » ، كما يتحدث مشيدا بنهر شنيل ، وفضله على جنات غرناطة ومروجها ، فيقول « وانحدر منها (جبل سييرا نيفادا) مجاج الجليد على الرمال ، وانبسط — بين يديها — المرج (فحص غرناطة) الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تفلى بها مفارقه . ريع من وادية بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطسه تلها للجبين ، وولدت حيات المذانب عن الشمال واليمين ، وقلد منها اللبات سلوكا تاتى من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مفترة ، والحياة الدنيا بزخرفها مغترة »، ان هذه الروعة البيانية ، ودقة التعابير البلاغية ، جعلت الصورة تتجسم أمامنا ، حتى لنكاد نلمس منها كل جانب .

ثم يعود المؤلف بنا من مطافه الى الحمراء مرة أخرى ، فيكشف لنا عن منشآتها الرائعة ، وجناتها الساحرة ، وكيف أنها مدرج سلالة بنى نصر ، فيقول : « وتبرجت بحمرائها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات ، سافرة عن صفحات القباب المزخرفات ، تقذف بالانهار — من بعد المرتقى — فيوض بحورها الزرق ، وتناغى أذكار المآذن بأسمارها نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهله ، وربت من ملوك جلة .. »

أما مالقة — عاصمة الحموديين الادارسة — فيتحدث المؤلف — بادىء ذى بدء — عن تاريخها كعاصمة لهؤلاء فيقول : « كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة » ، ثم يشيد بشهرتها الصناعية فى الفخار والحرير « .. ومذهب فخارها له على الاماكن تبريز ، الى مدينة تبريز ، وحلل ديباجها بالبدائع ذات تطريز » . وبعد أن يصور محاصيلها وفواكهها ، وما اشتهر به قومها من الاسهام بالبر بأوفر نصيب ، فى تخليص أسرى المسلمين من أيدى النصارى ، ووفرة أعيانها وعلمائها — يتناول بعدئذ مساوىء المدينة ، فيقول : « وعلى ذلك ، فطينها يشقى به قطينها ، وأزبالها تحيى بها سبالها ، وسروبها يستمد منها مشروبها ، فسحنتها متغيرة ، وكواكب أذهانها النيرة متحيرة .. وطعاما لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الاحزان .. » الى آخر هذه المساوىء التى أوردها عن مدينة مالقة .

وهكذا نرى أن موضوع الكتاب فى وصفه للبلاد الاندلسية أو المغربية قد اختط فيه ابن الخطيب موضوعية لا تبارى ، وشمولا فى الوصف لمختلف النواحى ، التاريخية ، والجغرافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، فى صورة ناطقة نابضة .

منهج ابن الخطيب فى الكتـــاب

عندما كتب ابن الخطيب مؤلفه « معيار الاختيار » اختط فى التحرير طريقة خاصة ، تختلف عن معظم كتاباته فى مؤلفاته الاخرى ، ذلك أنه بدأ بمقدمة معتادة أعقبها بمحاورة ، ثم انتهى الى صميم الموضوع ، فقسمه الى مجموعتين مستقلتين ، وأدرج كل مجموعة تحت مجلس خاص، وقصر المجلس الاول على المدن الاندلسية، ثم أعقبه بالمجلس الثانى فقصره على المدن المغربية . وهكذا بدأ المؤلف كتابه فى المجلس الاول ، بما جرت به عادة المؤرخين والمؤلفين المسلمين ، وذلك بحمد الله تعالى ، والثناء عليه بما هو أهله ، والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كل هذا فى قالب يتناسب والموضوع الذى يتعرض له ، وهو وصف البلدان .

ثم ثنى بان الانسان مدنى اجتماعى بطبيعته ، لا يستقيم حاله بدون مجتمع ، وبالتالى لا يقوم المجتمع بدونه ، وأنه ــ أى الانسان ــ أحيانا يتخذ سكناه حسبما اتفق ، وأحيانا يكون له ظرف الاختيار ، مرجحا من الامكنة ما غلبت حسناته على سيئاته ، وهذه الأمكنة « كثيرا ما تنافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر » ، وأيا كان ، فانه لا توجد مدينة قد كملت من كافة النواحى كما يقول .

وبعدئذ يتحدث المؤلف عن خبر فى قالب قصة ، فهناك راو استهواه مكان ما ، فنزل به حتى حل المساء ، وحينئذ أبصر شيخا معه تلميذه وحماره ، وما استقر المقام بذلك الشيخ حتى حن الى صباه ، وضاق بمرارة المشيب ، وقسوة الغربة ، وشعوره بان نفسه لم تتب بعد ، وأخيرا يسأل الله العفو والغفران ، والقربى من رحمته يوم الحساب ، معتمدا فى اجابة سؤله على شفاعة شيبه ، ثم تدور مناقشة بين الشيخ وفتاه ، وعندها ينبرى الشيخ ، فيحدثنا عن مدى خبراته فى أمور شتى

نتيجة علمه وبحثه ، وجوبه بلاد العالم ، ووقوفه باقطار كثيرة للدرس والبحث . وتكون النتيجة أن يتقرب الراوى الى الشيخ ، مطمئنا اياه الى حسن طويته ، وما عليه من خلق يؤهله لان يتشرف بالاستماع الى فيض علمه ، ويسأل الراوى الشيخ ان يصف له بلاد الاندلس ثم بلاد المغرب ، فى دقة وأمانة واخلاص ، فأجابه الشيخ الى طلبه ، وبدأ الراوى بالسؤال عن جبل الفتح (جبل طارق) وهكذا .. حتى انتهى من المدن الاندلسية بمدينة « رندة » . ثم أخبر الشيخ سائله بأن الصبح قد قارب الوجود ، وأنه قد وفاه — فى الوصف — حسابه ، ولم يبق الا أن يكافئه على هذه الذخائر حتى يكون له أليفا ورفيقا ، فينثر الراوى المال بين يدى محدثه فيأخذ منه شاكرا ، وأخيرا يتفقد الراوى الشيخ على ضوء مصباح ، فلا يجد له أثرا ، « فكأن الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره » ، فيتأسى الراوى عن هذا الفراق بأن « لكل اجتماع من خليلين فرقة » .

هكذا ينتهى نهج المؤلف فى « المجلس الاول » من كتابه .

أما فى « المجلس الثانى » فان الراوى يلج أحد الاسواق ، وفى السوق « أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب » ، فى بيع وشراء ، وتحايل للتعايش والكسب ، بمختلف الوسائل والاعمال ، فهناك « رقاة جنون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظل بقيطون » ، قد ادعى العلم بالمغيبات ، والتفسير للمشكلات والاحاطة باسرار الطبيعة ، وشفاء العضال من الامراض ، وفى مجال العلوم قد برع ، ما بين طب ورياضة وتاريخ وجغرافية ، وحديث وتفسير ، ومنثور ومنظوم ، ومنطق وبرهان ، فهو قد جاب الاقطار فى الدرس والبحث والمعرفة . وهنا يجد الراوى بغيته ، فقد ذكره ذلك الرجل بالشيخ الاول ، فاراد أن يستكمل

معلوماته عن البلدان ، فأخترق اليه جموعا بشرية من قصاده ، وخاطبه بقوله : « بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون » فأجابه الشيخ موافقا ، متحفظا بأنه « لا تجود يد الا بما تجد ، والله المرشد » .

وهنا يسأله الراوى عن البلاد المغربية ، بادئا منها بـ « بادس » ، والشيخ يجيبه بمعلوماته عنها، واحدة تلو الاخرى، حتى ينتهى منها بمدينة « غساسة » ، وعندئذ « وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام » كما قال الشيخ ، فقد انفض عن السوق أهله ؛ ولم يبق الا أن ينثر الراوى دنانيره ، مكافأة طيبة لمحدثه، فيتناول منها ما تستغنى به النفس، وقبل أن يتهيأ للسير لم ينس ــ وهو الحكيم المجرب ــ أن يزود الراوى بنصح منظوم ، فيه مزايا التحلى بالقناعة ، والايمان بالقضاء والقدر ، والتحفظ على السر وكتمانه ، وتحاشى التعثر بالناس ، وتقوى الله تعالى، فالقرب منه رهن بها ، وليست هناك خسارة أفدح من معصية الخالق . وأخيرا نرى الشيخ قد « ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار » وبقى الراوى يتتبع أثر الشيخ، ولكنه تعزى عن فراقه بأن «كل نظم الى انتثار»

بهذا ينهى ابن الخطيب « المجلس الثانى » ، وبانتهاء « المجلس الثانى » ينتهى الكتاب نفسه .

هذا هو المنهج الذى سلكه ابن الخطيب المؤلف فى كتابه « معيار الاختيار » ، وهو منهج ــ كما رأينا ــ قصصى ، دار فى فلك نوع خاص من القصة ، وهذا النوع هو الذى عرف من بين فنون النثر العربى باسم « المقامة » ، متخذا من المحاورة وسيلة لتشويق القارىء والمستمع ، وبخاصة فى صلب الموضوع ، عند وصفه للبلاد .

قيمة الكتاب الادبية ومدى صلته بفن المقامات فى الادب العربى

ذكرنا أن « معيار الاختيار » قد جاء فى صورة قصة محدودة ، والقصة من أدق الفنون الادبية وأصعبها تركيبا ، وهى تتمتع من بين سائر فنون الادب بالذيوع والانتشار ، لما تشتمل عليه من استمالة القلوب ، وامتناع النفوس ، فالآداب العالمية قد زخرت بهذا اللون الغنى منذ أقدم العصور ، ولقد ورثنا عن العرب منذ جاهليتهم ذخيرة نفيسة من القصص، تناولها المشتغلون بالبحث والنقد درسا وتحليلا ، وانقسموا حيالها الى فريقين متباينين ، ولكل وجهة ، فبعض المستشرقين فى دراستهم للقصة العربية يرون مع « كارادي فو » أنه « لم يسبق الادب العربى أى أدب آخر فى نوع الاقاصيص، بينما البعض الآخر يرى أن العرب — ابان حضارتهم — زودوا لغتهم بفلسفة الشعوب وعلومهم ، وتجاهلوا أدب القصة تجاهلا يكاد يكون مطلقا ، ومن ثم جهلوا أصول الفن القصصى ، فكانت قصصهم تفقد قيمتها الفنية تبعا لذلك .

وانصافا للحق نقول : ان القصص العربى ذو ألوان مختلفة ، وقد حظيت بعض هذه الالوان بعناية العرب ، فراعوا فى صوغها مقومات القصة ، وأسس بنائها ، فجاء هذا اللون منها تحفة فنية ، لها قيمتها وروعتها ، والبعض الآخر من ألوان القصة العربية فقد معظم هذه الاسس ، فكان مثارا للنقد ، ومحلا للملاحظة .

والقصص العربى أنواع : أشهرها القصص الدينى ، ومصادره التوراة والانجيل والقرآن ، ثم ما جاء على ألسنة الرواة والمحدثين من أخبار الاولين وقصصهم ، مزج فيها القصاص الحقيقة بالخيال ، والتاريخ بالاسطورة . وكان الهدف من هذا النوع من القصص الوعظ والارشاد فى معظمه ، ترغيبا فى الجنة وترهيبا من النار .

ومن أنواع القصص أيضا عند العرب القصص التاريخى البطولى ، كقصة عنترة بن شداد فى حروبه ، وسيف بنى يزن فى كفاحه ، وحرب البسوس فى طولها وشناعتها ، ومنها القصص العاطفى ، كقصة « قيس المجنون بليلاه » ، وعنترة العاشق لعبلة ، وكثير الواله بعزة ، الى آخر هذه الالوان القصصية ، التى تزخر بها كتب الادب العربى، وبعض التراجم الاجنبية . على أنه من الملحوظ أن القصة العربية تطورت مع الزمن ، واتخذت فى كل عصر طابعا خاصا ، رقيا عما قبل ، مع متانة فى البناء ، منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر ، وقد تولد عن التصرف فى تركيبها نوع خاص منها ، وهو ما سمى ــ بين فنون النثر العربى ــ باسم « المقامة » ، والتى ترتكز على العناية بالاسلوب ، وتغليب الشكل على الجوهر ، فمن مقوماتها البلاغية السجع والجناس والكناية والتلاعب بالالفاظ ، ومن مقوماتها اللغوية طائفة ضخمة من شوارد اللغة ، وشواذ القواعد النحوية، ومن مقومات أسلوبها ــ كذلك ــ تضمينها بعض آيات القرآن الكريم ، أو الحديث النبوى ، أو الحكم والامثال ، أو المنثور أو المنظوم ، كما تشتمل المقامة على المعلومات الفقهية والطبية والعروضية والتاريخية ، الى غير ذلك مما عرف فى عصر المولعين بصناعتها .

فالمقامة ــ اذن ــ نوع من الترف الادبى ، وميدان للتدليل على مبلغ معرفة المؤلف بالعلوم والفنون على اختلاف أنواعها ، وقد ابتدعها « بديع الزمان الهمذانى » من أشهر أدباء العصر العباسى ، ويقال : انه أنشأ حوالى أربعمائة مقامة ، ولكن لم يظفر الناس منها اليوم بأكثر من نيف وخمسين مقامة ، ومن مقاماته الشهيرة المقامة القريضية ، نسبة الى القريض ، وهو الشعر ، لانه موضوعها ، والمقامة الخمرية ، والمقامة الجاحظية ، والمقامة الدينارية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الكوفية ، ثم قلده فى نفس العصر كثيرون ، ولكن الحريرى كان بارعا فيها أيضا ، ومن مقاماته المعروفة مثلا « المقامة الصنعائية » نسبة الى صنعاء ، احدى مدن اليمن المشهورة .

أما ماذا يقصد بالمقامة عموما فهو تصوير بؤس الادباء ، واحتيالهم أحيانا لكسب عيشهم ، ولها راوية ينقل الخبر ، وبطل تدور حوله حوادثها.

على أن هذه المقامة قد اختفت من الادب العربي بعد ناصف اليازجي اللبناني في كتابه : « مجمع البحرين » ، ومحمد المويلحي المصري في كتابه ذي الشبه الكبير بالمقامة « حديث عيسى بن هشام » ، اذ لم يعد أحد بعدئذ يلتفت الى هذا اللون الادبي من أدباء عصرنا الحاضر .

هذا ، وقد كان من الطبيعي أن ينتقل فن المقامة من المشرق — منذ ظهوره — الى الاندلس ، وذلك عن طريق الرحلات التي قام بها كثير من الاندلسيين الى الشرق يطلبون العلم ، والذين عادوا الى موطنهم بعد أن درسوا — ضمن ما درسوا — هذا الفن ، فنشروه بين مواطنيهم ، وقد لوحظ أن مقامات بديع الزمان الهمذاني ورسائله — التي أشرنا اليها — قد ذاعت خصوصا في عهد ملوك الطوائف بالاندلس ، فقد قام بعض الادباء الاندلسيين يومئذ بمعارضة هذه الرسائل والسير على نمطها ، ومن هؤلاء الاديب عبد الله محمد بن شرف القيرواني ، الذي عارض مقامات البديع ، حسبما يروى ابن بسام عن هذا الاديب المعاصر للمعتضد بن عباد باشبيلية 434 — 461 هـ (1042 — 1068 م) . كذلك روى ابن بسام عن الشاعر أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفى حوالى سنة 420 هـ (1029 م) أن هذا الاخير عارض رسالة للهمذاني في وصف غلام ، وفي موضع آخر من كتاب الذخيرة يورد ابن بسام أجزاء من مقامتين ، أحداهما لابي حفص عمر الشهيد ، والاخرى لابي محمد بن مالك القرطبي ، وهذان الاديبان عاشا في عهد المعتصم بن صمادح بمدينة المرية الاندلسية 443 — 484 هـ (1051 — 1091 م) .

ونزيد تعريفا بصلة المغرب بالمشرق حول فن المقامة ، فنذكر أيضا أنه في أوائل عهد المرابطين بالاندلس انتشرت مقامات الحريري بالمغرب على مدى واسع ، في الوقت الذي انتشرت فيه بالشرق ، واهتم علماء

الاندلس بحياة مؤلف هذه المقامات ، فقد روى ابن الابار « أن كثيرا من الاندلسيين سمعوا من الحريرى مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد ، ثم عادوا الى بلادهم ، حيث حدثوا بها عنه » ، ومن هؤلاء الحسن بن على البطليوسى المتوفى عام 566 هـ (1169 م) وأبو الحجاج يوسف القضاعى البلنسى المتوفى عام 542 هـ (1147 م) .

وقد تابع الاندلسيون الاشتغال بفن المقامة حتى نهاية عهدهم الاندلسى ، أيام بنى الاحمر فى غرناطة ، ومن أشهر أدباء هذا العصر الذين زاولوا هذا الفن الادبى الوزير لسان الدين بن الخطيب ، بمقاماته العديدة التى أنشأها ، والتى منها : الكتاب الذى نتعرض لدراسته هنا ، وهو « معيار الاختيار » ، ومقامته « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف» و « مقامة السياسة » وغيرها .

*

وعلى ضوء ما أوجزنا بيانه عن «المقامة» ومقوماتها ، ومدى صلتها بفن القصة العربية ، وعن دور الاندلسيين فيها بالنسبة للمشارقة، نستطيع أن نزن كتاب « معيار الاختيار » فى هذا الميدان ، فنقول : انه عبارة عن وصف قصصى ، جاء فى صورة مقامة تقليدية ، حاول بها ابن الخطيب — كما حاول فى غيرها — أن يجارى بها من سبقوه فى هذا الميدان ، وفى سبيل ذلك حشد لها المزيد من فنون القول والبيان ، وبخاصة مقدمة كل من المجلسين ، ونهايتهما ، حيث انصرف فيهما الى حد ما عن المعنى الى اللفظ مما أفقد المقدمة — خاصة — قيمتها الادبية ، من أديب مثل ابن الخطيب .

ولكن عندما تناول صلب الموضوع ، فانه — وان كان قد عنى بالاسلوب أيضا — الا أن الوصف للمدن عموما قد جاء تحفة فنية رائعة ،

فقد تناولها تاريخيا واجتماعيا وثقافيا ، وتمكن – رغم قيود السجع والجناس والكناية وغيرها – من ابراز هذه المعالم فى صورة مشوقة .

ومع ذلك ، نرى أن ابن الخطيب لو أطلق لنفسه العنان فى هذا المؤلف التاريخى ، وحرر نفسه من هذه القيود اللفظية التى كبل بها قلمه – لجاء وصفه للبلدان أبدع فنا ، وأشمل موضوعا ، فلا شك أنه حصر نفسه فى نطاق ضيق ، كانت نتيجته الحتمية أن فوت علينا المؤلف انطلاقاته المعروفة عنه ، فى تقصى المعانى ، والاحاطة بشتات الموضوع الذى يتعرض له .

قيمة الكتاب كوثيقة تاريخية

توجد لكتاب « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » أكثر من مخطوطة ، فى الاسكوريال والرباط ، وفاس ، وقد ورد هذا الكتاب ضمن مؤلف آخر من مؤلفات ابن الخطيب ، وهو « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » (554 الاسكوريال) ، كما ورد ضمن مؤلفه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » حيث أورده المؤلف فى باب « المقامات » .

وقد ألف ابن الخطيب « معيار الاختيار » هذا عندما نفى الى المغرب مع سلطانه الغنى بالله ابن الأحمر المعروف بمحمد الخامس ، حيث حلا ضيفين على السلطان أبى سالم ملك المغرب (محرم 761 هـ – 1359 م) ولكن ابن الخطيب لم يذكر فى الكتاب تاريخ تاليفه بالضبط ، وانما عرفنا الفترة التى ألفه خلالها من مؤلف آخر له ، حيث ذكر به أنه دون بعض كتبه خلال سنوات المنفى الثلاث التى قضاها بمدينة سلا بالمغرب (1) . (760 – 763 هـ) = (1358 – 1361 م) ، ومن بين تلك الكتب « معيار الاختيار » ، وقدأدرج الغزيرى هذا المؤلف تحت رقم 1777 بفهرس المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا .

---

(1) ابن الخطيب فى « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » ، مكتبة الاسكوريال بمدريد لوحة (67) .

ولما كنت قد قارنت – أثناء البحث والدراسة – بين نسخ مخطوطة هذا الكتاب ، والتى وجدتها فى كل من مدريد والرباط وفاس والقاهرة والفاتيكان ، فقد بان لى أن أكملها وأوفاها – كما ذكرت – مخطوطة الاسكوريال باسبانيا (رقم 554) ، وقد ذكر ناسخ هذه المخطوطة أنه كتبها عام 173 هـ (1468 م) ، أى بعد تدوين ابن الخطيب للكتاب نفسه بحوالى 112 عاما تقريبا ، وبعد وفاة المؤلف بنحو 97 عاما .

وقد نشر المستشرق الاسبانى « سيمونيت » القسم الاول من « معيار الاختيار » ، بعد أن فصل عنه المقدمة التى أشرنا الى مضمونها ، وهذا القسم هو الخاص بمدن مملكة غرناطة ، وعددها أربع وثمانون مدينة ، تحت عنوان « وصف مملكة غرناطة ، فى عهد بنى نصر » (1) . ثم نشر باقى الكتاب – وهو الجزء الخاص بمدن المغرب – المستشرق الألمانى « موللر » ، متضمنا وصفا لجبل الفتح ، وسبتة ، ومراكش ، وأغمات ، فى مجموعة خاصة (2) . ولم يفت هذا المستشرق أن ينوه ببعض الاخطاء التى وقع فيها زميله الاسبانى « سيمونيت » عند تحقيقه للجزء الخاص بمدن الأندلس ، وان كان هو بدوره قد وقع فى عدة أخطاء أثناء التحقيق ، وذلك نتيجة عدم التمرس بالأساليب العربية ، ولا سيما عبارة ابن الخطيب كطابع عام لما كانت عليه اللغة فى العصور الاسلامية الوسطى .

وتجدر الاشارة الى أن قيمة « المعيار » تمكن فى التعريف بالوضعية التى كانت عليها كل من مملكتى بنى نصر وبنى مرين فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وأن ابن الخطيب قد حدثنا – بحق أيضا

---

(1) راجع :

Descripcion del Reino de Granada bajo la, Dominacion de las Nazaritas (Madrid, 1861).

(2) راجع :

Beitrage zur Geschichte des Westlichen, Araber (Munchen, 1866).

خصوصا ــ عن عاصمتي كل من الاندلس والمغرب فى عصره (غرناطة وفاس) ، سالكا نفس الموضوعية تجاه كليهما ، دون أن يخفى لوما فيما لاحظه من مثالب بالنسبة لهاتين العاصمتين .

ونحن نعتقد من جانبنا أن المؤلف ــ عند تدوينه لهذا الكتاب ــ قد أعتمد على مصادر ثلاثة :

1 ــ زيارته للمدن التى تناولها قلمه :

فمن المعلوم أن ابن الخطيب كان قد وزر للسلطان يوسف الاول النصرى 733 ــ 755 هـ (1333 ــ 1354 م) ثم لابنه من بعده الغنى بالله محمد الخامس 755 ــ 760 هـ (1304 ــ 1359 م) ثم ــ للمرة الثانية ــ عام 762 ــ 793 هـ (1361 ــ 1392 م) ، وطبيعة المنصب تقتضى تفقد الوزير هناك للبلاد والثغور الاندلسية ، للوقوف على أحوالها ، وحركة دولاب العمل فيها ، ثم توجيه العمال وارشادهم ، ومن ثم تحرير التقارير عن زياراته . كما أنه رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الاول فى زيارته التاريخية ، والتى بدأها من غرناطة فى 17 محرم 748 هـ ــ 1347 م ، صحبة الحاشية ، وقد أفرد ابن الخطيب رسالة خاصة بهذه الرحلة ، سماها : « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف » جاء فيها أن الركب الملكى ــ بعد أن غادر العاصمة ــ وصل الى مدينة وادى آش ، وهناك استقبلهم الاهالى استقبالا رائعا ، ثم اتجهت القافلة شرقا مارة ببعض المدن والحصون الهامة ، مثل : بسطة ، وبرشانة ، وهنا صور ابن الخطيب الحالة التى كان يعانيها سكان هذه المدن ، نتيجة كل من الغارات النصرانية والسيول الموسمية ، ثم زار الركب مدينة « بيرة » ، أقصى الثغور على الحدود الشرقية ، وقد ذكر لنا ابن الخطيب ما كان يشعر به سكان هذا الثغر من القلق والخوف ، من جراء هجوم الاسبان المفاجىء بين حين وآخر ، كما صور لنا وعورة موقع المدينة ،

وصعوبة مسالكها ، حيث اضطروا للاسترشاد بدليل ماهر ، يكشف لهم طريقهم فى الجبال بين الروابي والوهاد .

وأخيرا يعود الموكب الى قاعدته « غرناطة » ، راجعا من طريق آخر ، مارا بثغر المرية ، حيث استعرض السلطان قطع الاسطول الحربى، واستقبل رجاله فى زيهم الرائع الانيق .

كما زار الموكب بعد المرية بعض المدن العامة ، مثل : بجانة ، وبرشلونة وفنيانة ، وينتهى المطاف بمدينة وادى آش مرة أخرى ، ومنها الى العاصمة « غرناطة » (1) .

وبذلك أتيحت فرصة رسمية هامة للوزير ابن الخطيب ، حيث وقف على أحوال هذه المدن الاندلسية خلال هذه الرحلة ، وكون لنفسه ودون فى مذكراته فكرة عميقة موضوعية عن كل مدينة زارها الركب السلطانى التاريخى .

أما بالنسبة للمدن المغربية فقد زار ابن الخطيب المغرب أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يتجول فى البلاد ويتعرف عليها ، ويختلط بأهلها ، ولاسيما رجال الادارة والعلماء والخاصة ، ولابد أنه شأنه الكثير منهم برغبته فى الوقوف على معالم مدنهم وآثارهم واجتماعياتهم ، وكانت المعاينة لديه وسيلة هامة فى وزن الحقائق ، وكشف الظنون ، وجلاء الشكوك .

لقد زار ابن الخطيب المغرب لاول مرة سفيرا من لدن السلطان الغنى بالله ابن الأحمر ، الى سلطان المغرب عام 755 هـ ـ 1354 م .

---

(1) راجع التحقيق الحديث لهذه الرحلة فى كتاب « مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد الاندلس والمغرب » للدكتور أحمد مختار العبادى ، طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ، حيث تقع هذه الرحلة بين هذه المشاهدات ص : 25 — 35 .

ثم رجع الى المغرب مرة أخرى ، ولكن منفيا مع سلطانه المخلوع الغنى بالله ابن الاحمر ، وذلك فى محرم 761 ـ 1359 م ، وفى هذه المرة مكث بالمغرب ثلاث سنوات تقريبا ، كما أشرنا الى ذلك فى موضعه ، وفى تلك الاثناء زار بعض المدن المغربية ، ودون بعض رحلاته يومئذ فى كتابه المعروف باسم « نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب » ، الذى وضعه بالمغرب مع بعض الكتب الاخرى ، التى منها كتابنا « معيار الاختيار » .

وأخيرا استقر ابن الخطيب بالمغرب حينما فر من الاندلس ، حيث شعر بما يدسه له خصومه عند السلطان الغنى بالله ، على نحو ما هو معروف من تاريخ مأساة هذا الوزير ، فوصل المغرب عام 773 هـ ـ 1371 م ، وبقى به حتى نكب وقتل عام 776 هـ ـ 1375 م .

فهذه ثلاث زيارات قام بها المؤلف للمغرب ، سفيرا ، فمنفيا ، ففارا ناجيا بحياته أخيرا ، وتعتبر فترة النفى ــ من بين هذه الزيارات الثلاث ــ فترة البحث والدرس والتأليف عند ابن الخطيب ، فقد منح الرواتب وأقطع الاراضى ، واستقرت نفسيته الى حد سمح له بمواصلة تآليفه .

أما المرة الاولى فكان وقتها أضيق من أن يتسع للتجوال عبر المدن المغربية ، فهو حينئذ سفير منوط به أمر رسمى ، وذو قيود وحدود مرسومة .

وأما فى المرة الاخيرة حيث استقر نهائيا بالمغرب ، فنرجح أن ابن الخطيب لم يتجه كثيرا للبحث والتدوين ، فقد كانت الهزات السياسية بالمغرب تتناوشه ذات اليمين وذات الشمال ، بفضل مواصلة خصومه ــ بغرناطة ــ السعى فى القضاء عليه ، وعلى رأسهم سلطانه القديم « الغنى بالله » والذى تأثر الى أبعد حد بسعاية هؤلاء الخصوم ، ومع هذا فقد ألف ابن الخطيب ابان هذه الفترة كتابه « أعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام » ، استجابة للظروف الجديدة التى أملت عليه اصدار هذا المؤلف

2 ـ الاطلاع والسماع :

وهو المصدر الثانى من المصادر التى اعتمد عليها ابن الخطيب فى تدوين كتابه « معيار الاختيار » ونعنى به قراءته لكتب من سبقوه من المؤرخين والكتاب فى أوصاف المدن الاندلسية والمغربية على الخصوص، وفى تاريخها الحافل بالاحداث ، وكذلك سماعه من شيوخه الذين تتلمذ عليهم ، فى أحوال المغرب منذ القدم، وأحداث المملكة الاسلامية بالأندلس، لا سيما وأنه تربى فى أحضانها ، ودرج بين ربوعها ، وجاس خلال ديارها ، فحديثه عنها حديث الخبير العالم ، ووصفه لها وصف المحيط بأسرارها . هذا بالاضافة الى مجالس ابن الخطيب العلمية ، وندواته الثقافية ، والتى كانت كثيرا ما تجمع رواة الاخبار ، وحفظة التاريخ .

3 ـ التقارير الادارية الرسمية :

وابن الخطيب كوزير ، وأمين سر السلطان ، لا بد وأن يطلع على كافة التقارير الرسمية ، والرسائل الادارية ، التى كانت ترد عادة الى الديوان من عمال وحكام الاقاليم ، فهذه التقارير وتلك الرسائل وثائق تاريخية لها أهميتها البالغة ، اذ على أساسها ــ فى العادة ــ تدار سياسة الدولة ، وتوجه الامور الوجهة الصالحة ، لذلك نرى أن ابن الخطيب قد استفاد الى حد كبير من هذه الوثائق ، بالاضافة الى المصدرين السابقين، وبذلك أمكنه أن يعطينا هذه الاوصاف لتلك المدن فى مؤلفه « معيار الاختيار » .

هذا ، وينبغى أن نشير اخيرا الى أن شخصية المؤلف وعلاقاتها بالآخرين لا بد وأن تنعكس على كتاباته ، وهذا ما وضح من خلال أوصاف ابن الخطيب لبعض البلاد وأهلها ، فانه وان كان قد تعمق فى البحث على نحو دقيق ، وحلل الاسباب والمسببات حتى جاء الموضوع

وثيقة تاريخية يعتمد عليها الى حد بعيد ـ وبخاصة اذا اعتبرنا قلة المراجع التاريخية التى تناولت العصر الذى عاشه ابن الخطيب ، وذلك فى أخبار كل من الاندلس والمغرب ـ الا أنه لا ينبغى أن نغفل الدوافع الشخصية ، والنزعات النفسية للمؤلف أيا كان ، فهذه وتلك لا بد وأن يحسب حسابهما ، ويقام وزنهما ، فى تقييم مثل هذه الوثيقة التاريخية ، لرجل وزير كابن الخطيب ، قضى حياته بين تيارات السياسة ، تتنازعه الاهواء والدوافع ، يعطف على مسلكة البعض ، وينقم على خطته البعض الآخر ، وبالتالى يكون اتجاهه متباينا نحو كليهما ، وما يصدق على الافراد يصدق على مجموعة منها تؤلف بلدا أو مدينة .

وللتدليل على هذا التاثر النفسى عند الكاتب ، وانعكاسه على ما يحرره ، نذكر أن ابن الخطيب نفسه قد صب جام غضبه على مدينة سلا المغربية ، فى رسالته المسماة « مفاخرات بين مالقة وسلا » ، رغم أنه أقام بها طيلة فترة النفى الاولى ، قرابة ثلاث سنوات ، واحتوته عزيزا مكرما ، ولكن كان قد حدث احتكاك بينه وبين بعض الفقهاء من أهل هذه المدينة ، الامر الذى ساقه الى تاليف رسالة خاصة ، فى النيل من هؤلاء الفقهاء ، وهى المسماة « مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة » ، فى أسلوب يفيض اقذاعا ونيلا غير كريم من الخصوم ، وعليه ـ بالتالى ـ فلم يكن من المنتظر أن يرتفع ابن الخطيب بمدينة سلا فى المفاخرات مع مالقة .

فنخلص من هذا الى أن ابن الخطيب لم يسلم ـ الى حد ما ـ من تحامل فى وصفه لبعض المدن الاندلسية والمغربية فى كتابه « معيار الاختيار » ، وبخاصة عندما كان يتناول أحوال سكانها الاجتماعية . بيد أن هذا التحامل الضئيل المفترض لن يطغى بحال على ما للكتاب من قيمة تاريخية كبرى ، ولا يمنع الدارسين لتاريخ المغرب والاندلس ـ فى الفترة التى عاصرها ابن الخطيب ـ من الاستفادة من « معياره »

هذا الى حد بعيد . . ، اذا ما عن لهم الكشف عن الحالة الاجتماعية بهذين القطرين فى ذلك العصر ، وعن الاقتصاد ، والمحصولات الزراعية ، وأهمية الاسواق ، والصناعة الاندلسية ودورها ، وما الى ذلك مما تناوله المؤلف ، تجاه البلاد الاندلسية والمغربية ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصلُ الرابع

كتاب
معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار

المجلس الأول

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

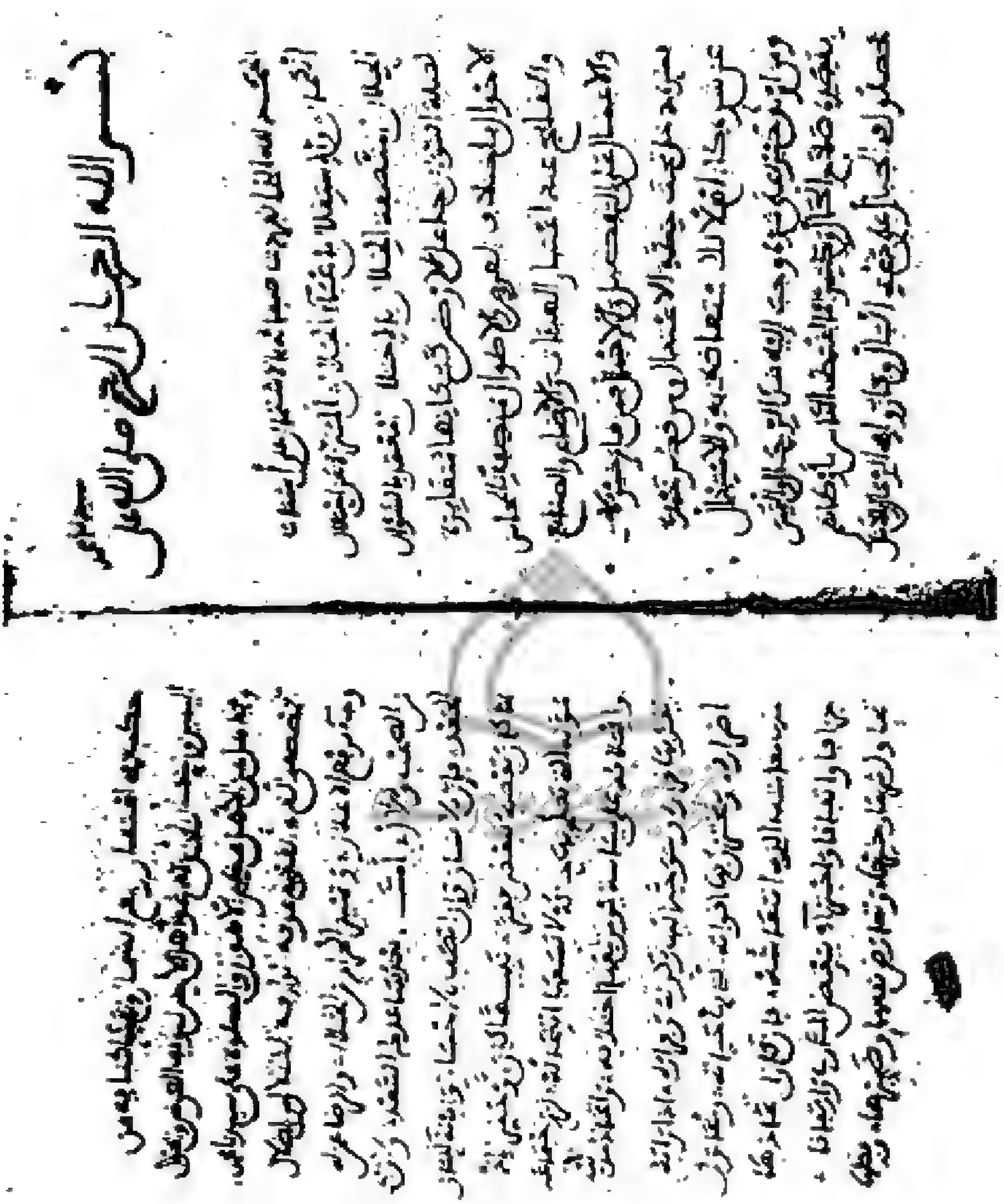

اللوحة الاولى من مخطوط « معيار الاختيار » بالاسكوريال (الغزيري 1·777)

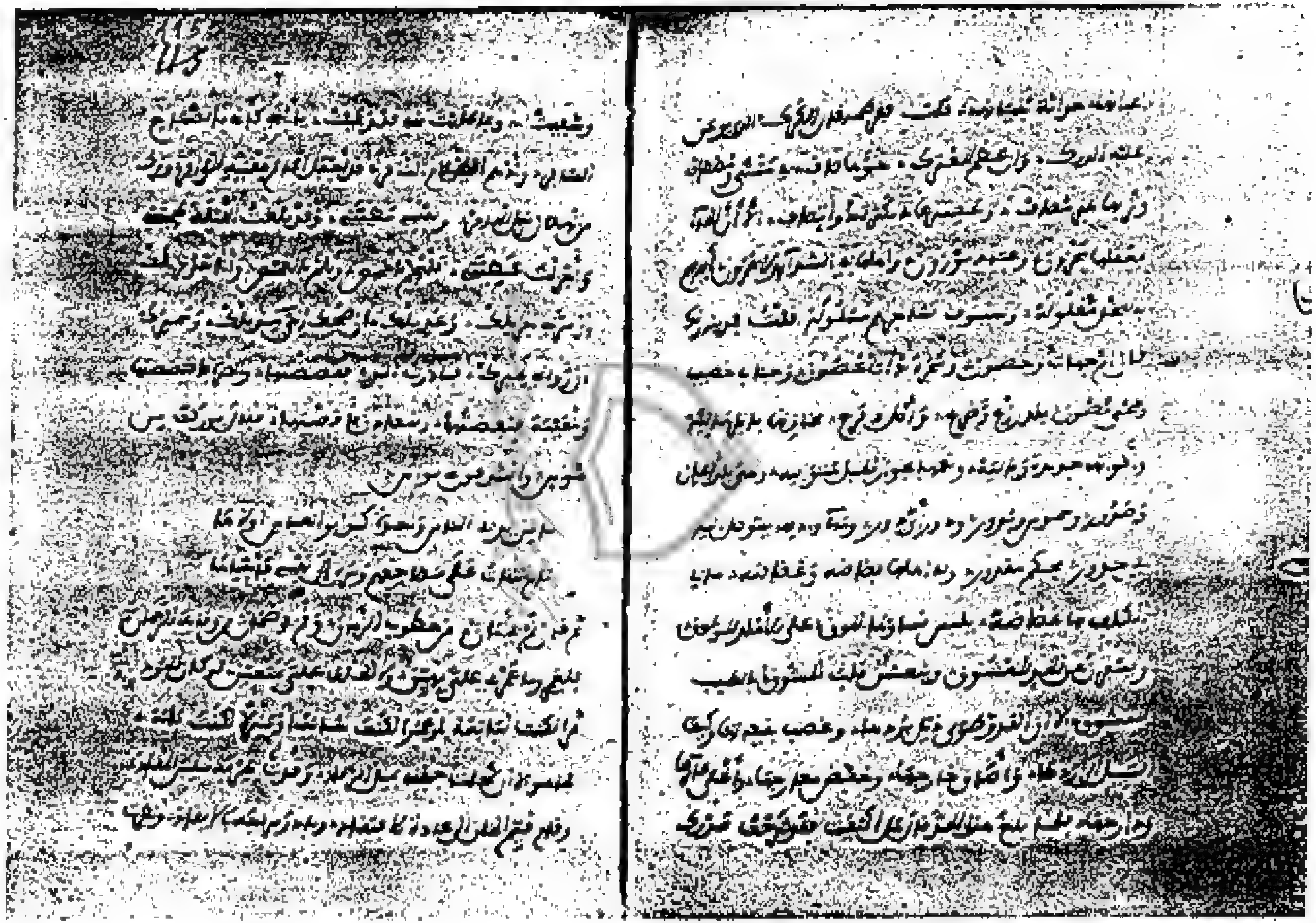

اللوحة الاولى من « المجلس الثاني »

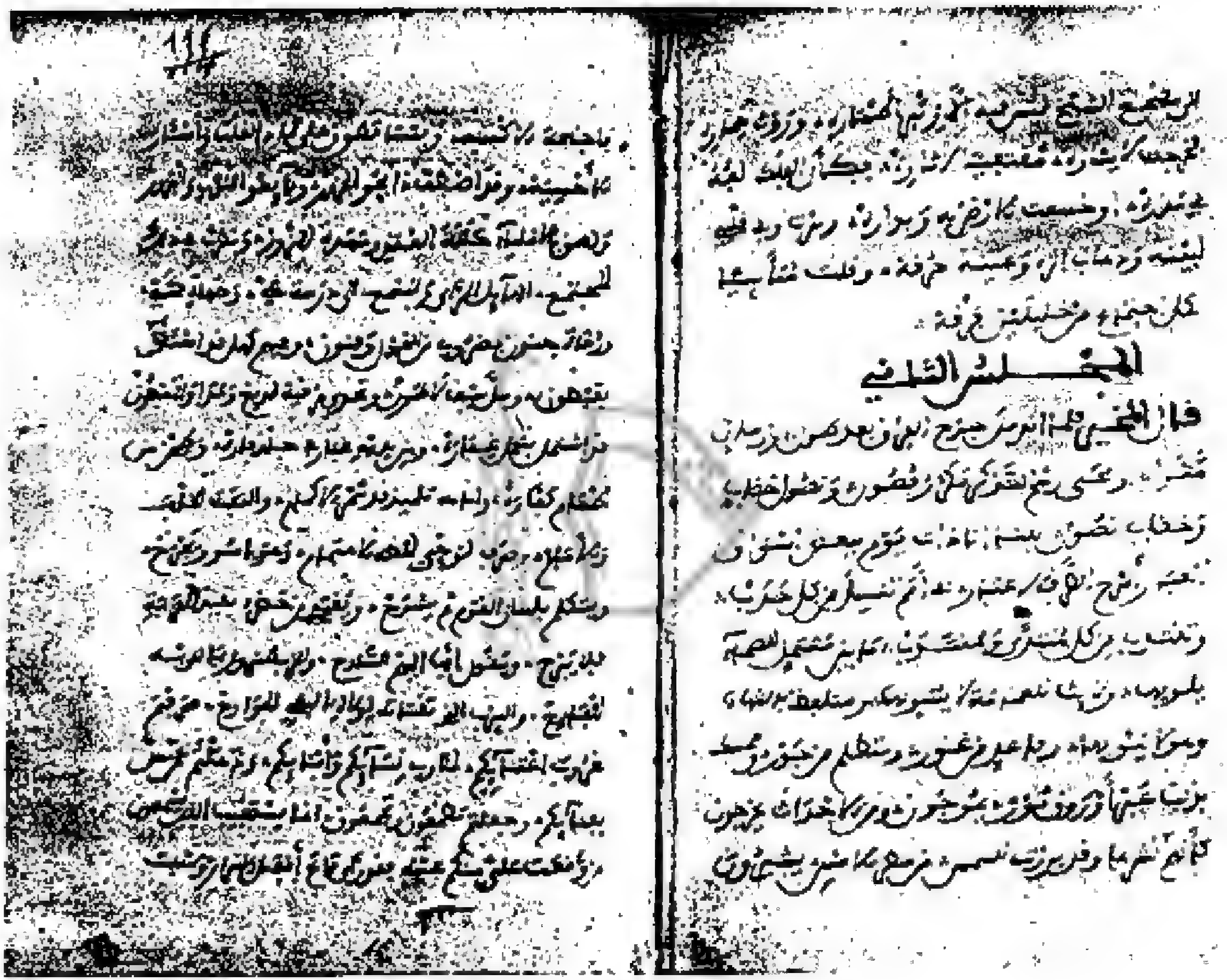

المجلس الثاني

اللوحة الأخيرة من « المجلس الأول »

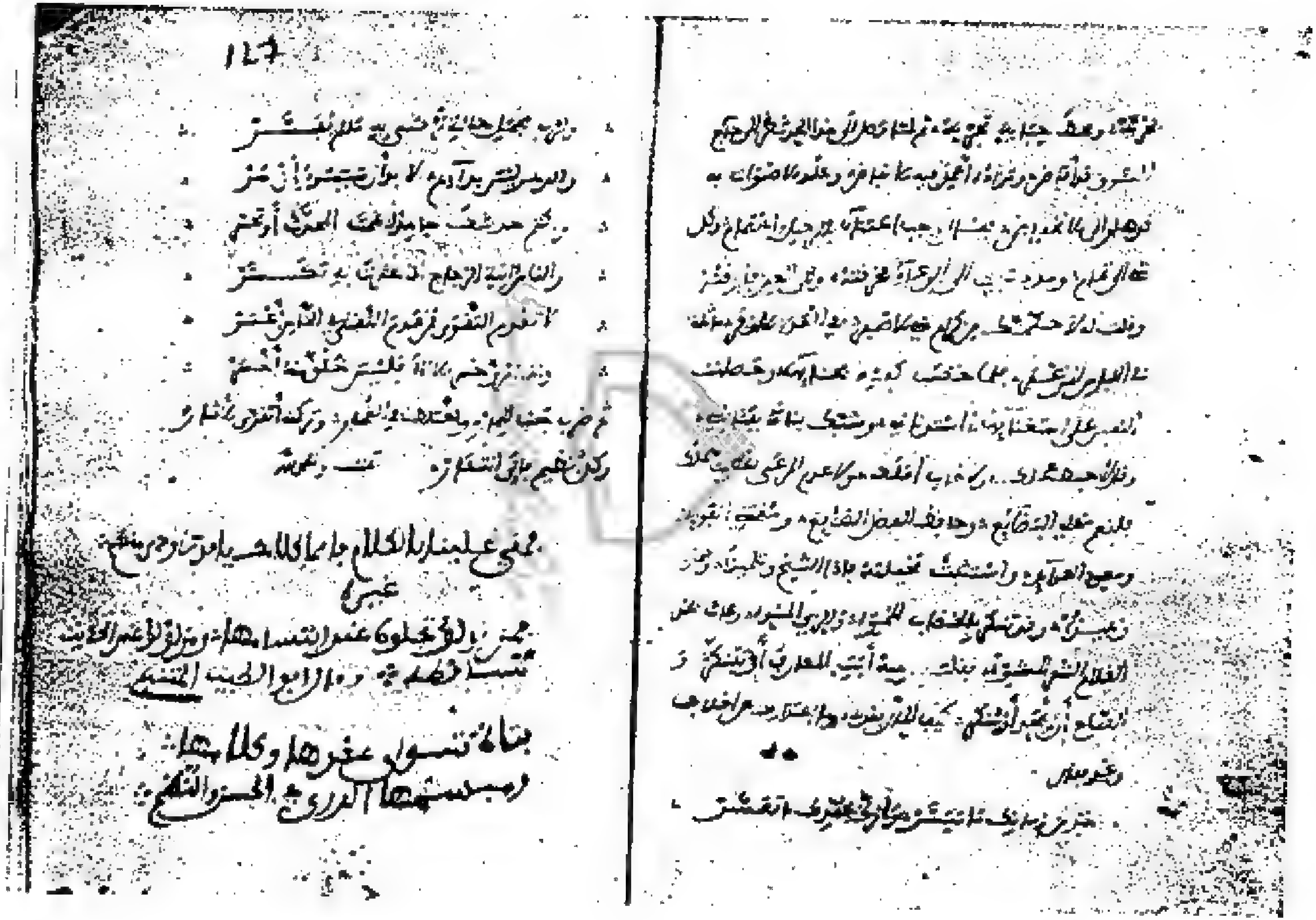

اللوحة الاخيرة من « المجلس الثانى » نهاية المخطوط

معيـــار الاختيار ، فى ذكـر المعاهـد والديـــار

المجلس الاول :

(97 : أ) بسم الله الرحمن الرحيم • صلى الله على سيدنا محمد •

الحمد لله الذى انفردت صفاته بالاشتمال علـى **أشتات الكمال** ، والاستقلال بأعباء الجلال ، المنزه عن احتلال الحلال ، المتصفة الخـلال بالاختلال ، المعتمد بالسؤال لصلة النوال ، جاعل الارض كسكانها متغايرة الاحوال ، باختلاف العروض والاطوال ، متصفة بالمحاسن والمقابح عند اعتبار الهيئات والاوضاع والصنائع والاعمال ، على التفصيل والاجمال . فمن قام خيره بشره دخل تحت خطة الاعتدال ، ومن قصر خيره عن شره ، كان أهلا للاستعاضة والاستبدال ، ومن أربى خيره على شره وجب اليـه شد الرحال ، والتمس بقصده صلاح الحال . وكثيرا ما اغتبـط الناس بأوطانهم فحصلوا فى الجبال على دعة البال ، وفازوا فى الرمال بالآمال ، (97 : ب) حكمة (منه) فى اعتمار ربع الشمال ، وتفيـىء أكنافه عـن اليمين والشمال ، الى أن يدعو أهل الارض لموقف العرض والسؤال ، ويذهل — عن الاهل — عظيم الاهوال . والصلاة على سيدنا (ومولانا) (1) محمـد المصطفى الـذى أنقـذ بدعوتـه الوارفة الظلال من ظلمـات الضلال ؛ وجاء برفع الاغلال ، وتمييز الحرام من الحلال . والرضا عمن له من الصحب والآل ، **(موارد الصدق عند كذب الآل) (2)** •

---

1) زيادة فى « س ، ط »

2) زيادة فى « س » .

أما بعد، ساعدك السعد، ولان لك الجعد (3)، فان الانسان — وان أنصف بالاحسان ، وابانة اللسان ، لما كان بعضه لبعض فقيرا ، نبيها كان أو حقيرا . اذ مؤنه (4) التى تصلح بها حاله . لا يسعها انتحاله — لزم اجتماعه وائتلافه على سياسة يؤمن معها اختلافه ، واتخاذ مدينة يقر بها قراره ، ويتوجه اليها ركونه وفراره ، اذا رابه أضراره ، ويختزن بها أقواته التى بها حياته ، ويحاول منها معاشه الذى به انتعاشه . فان كان اتخاذها جزافا واتفاقا ، واجتزاء ببعض المآرب وارتفاقا ، تجاول (5) شرها وخيرها ، وتعارض نفعها وضيرها ، وفضلها — (98 : أ) فى الغالب — غيرها ، وان كان عن اختيار ، وتحكيم معيار ، وتأسيس حكيم ، وتفويض للعقل وتحكيم ، تنافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر ، وكانت مساوئها — بالنسبة الى محاسنها — تغتفر ، اذ وجود الكمال فاضح للآمال ، ولله در القائل :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها   كفى المرء فخرا أن تعد معايبه

وبحسب ذلك :

حدث من يعنى بالأخبار ينقلها ، والحكم يصقلها ، والاسمار ينتقيها، والآثار يخلدها ويبقيها ، والمجالس يأخذ صدورها والآفاق يشيم (6) شموسها وبدورها ، والحلل يعرف دورها ، ويأكل قدورها ، والطرف يهديها ، والخفيات يبديها . وقد جرى ذكر تفضيل البلدان ، وذكر القاصى والدان ، ومزايا الاماكن ، وخصائص المنازل والمساكن ، والمقابح والمحاسن ، والطيب والآسن (7) .

---

3) الجعد : فى الاصل هو الشعر غير المنسق ، والسياق ينصرف الى اللئيم البخيل.

4) فى نسخة (س) « مؤنتة » بدل « مؤنه » .

5) تجاول : يقال ، تجاول القوم فى الحرب ، اى جال بعضهم على بعض .

6) يشيم : يعلم ، يقصد انه ذو دراية بمطالع الشمس والقمر فى هذه البلاد

7) الاسن : من الماء المتغير الطعم واللون والرائحة .

قال : ضمنى الليل وقد سدل المسح راهبه ، وانتهب قرص الشمس من يد الامس ناهبــه ، ودلفت جيوشه الحبشية (98 : ب) وكتائبــه ، وفتحت الازهار بشط المجرة كواكبه ، وجنحت الطيور الى وكونهــا ، وانتشرت الطوافات بعد سكونها ، وعوت الذئاب فوق هضابها ، ولوحت البروق ببيض عضابها ، وباهت الكف الخضيب بخضابها ، وتسللت اللصوص لانتهاز فرصها ، وخرجت الليوث الى قسمها وحصصها ، فى منــاخ رحب المنطلق ، وثيق الغلق ، سامى السور ، كفيل بحفظ الميسور ، يأمن ــ بــه الذعر ــ خائفه ، وتدفع ــ معرة السماء ــ سقائفه ، يشتمل على مأوى الطريد ، ومحراب المريد ، ومرابط خيل البريد (8) ، ومكاسع الشيطــان المريد . ذى قيم كثير البشاشة ، لطيف الحشاشة ، قانع بالمشاشة . يروح ويشى ، ويقف على ريب الاعيان وأعيان الريب فلا يشى . بسر فاكثر ، ومهد ووثر ، وأدفا ودثر ، **(ورقى بسور استنزاله فائر)** (9) .

فلما أزحت الكلفة ، وأقضمت جوادى العلفة ، وأعجبتنى ــ من رفقاء الرفق ــ الالفة ، رمقت فى بعض السقائف آمنا فى زى خائف ، وشيخا طاف منه بالارض طائف ، وسكن حتى اليمامة والطائف . جنيب (99 : أ) عكاز ، ومثير شيب أثيث الوفرة ، وقسى ضلوع توتر بالزفرة ، حكم له بياض الشيب بالهيبة ، وقد دار بذراعه للسبحة الرقطاء حنش ، كما اختلط روم وحبش . والى يمينه دلو فاهق (10) ، وعن يساره تلميذ مراهــق ، وأمامه حمار ناهق ، وهو يقول :

هــم أسكنونا فى ظلال بيوتهــم   ظــلال بيــوت أدفــأت وأكنــت
أبــوا أن يملونا ، ولو أن أمنــا   تلاقى الذى يلقون منــا لملــت

---

(8) مكاسع : مطارد ، مكان الطرد .

(9) زيادة فى نسخة « س » .

(10) فاهق : ممتلىء .

حتى اذا اطمأن حلوله ، وأصحب ذلوله (11) ، وتردد الى قيم الخان ــ زغلوله (12) ، واستكبر لما جاءه ــ بما يهواه ــ رسوله ، استجمع قوته واحتشد ، ورفع عقيرته وأنشد :

أشكو الى الله ذهاب الشباب   كم حسرة أورثني واكتئاب
سد عن اللذات باب الصبا   فزارت الأشجان من كل باب
وغربة طالت فما تنتهي   موصولة اليوم بيوم الحساب
وشر نفس كلما هملجت (13)   في الغي لم تقبل خطام المتاب
يا رب شفع في شيبي ولا   تحرمني الزلفى وحسن المآب

ثم أن ، والليل قد جن ، فلم يبق ــ في القوم ــ الا من أشفق وحن ، وقال ــ وقد هزته أريحية ــ (99 : ب) : على الدنيا سلام وتحية ، فقد تلنا الأوطار ، وركبنا الأخطار ، وأبعدنا المطار ، واخترقنا الأقطار (14) ، وحلبنا الأشطار (15) . فقال فتاه ــ وقد افترت عن الدر شفتاه ، مستثيرا لشجونه ، ومطلعا لنجوم همه من دجونه ، ومدلا عليه بمجونه ــ : وماذا بلغ الشيخ من أمدها ، ورفع من عمدها ، حتى يقضي منه عجب ، أو يجلى منه محتجب ؟ فأخذته حمية الحفاظ لهذه الألفاظ ، وقال : أي بني ، مثلي من الأقطاب ، يخاطب بهذا الخطاب ! ! وأيم الله لقد عقدت الحلق (ولبست من الدهر الجديد والخلق) (16) ، وفككت الغلق ، وأبعدت في الصبوة الطلق ، وخضت المنون ، وصدت الضب والنون ، وحذقت الفنون ،

---

(11) ذلوله : دابته السهلة القياد .

(12) زغلوله : غلامه الخفيف السريع .

(13) هملجت : الهملجة ، المشي في سرعة .

(14) في نسخة « س » وافترقنا ، ولعلها في نسختنا أصوب .

(15) حلبنا الأشطار : يقصد جربنا خير الدهر وشره ، فعرفناهما .

(16) زيادة في « ط ، س » .

وقهرت ــ بعد سليمان ــ الجنون ، وقضيت الديون ، ومرضت لمرض العيون . وركبت الهمالج (17) ، وتوسدت الوذائل (18) والدمالج ، وركضت الفاره ، واقتحمت المهالك والمكاره ، وجبت البلاد ، وحضرت الجلاد ، وأقمت الفصح والميلاد . فعدت من بلاد الهند والصين ، بالعقل الرصين ، وحذقت بدار قسطنطين (19) كتاب اللطين (20) ، ودست مدارس أصحاب الرواق (21) ، ورأيت غار الأرواح وشجر الوقواق ،

---

(17) الهمالج : الابل تمشى فى سرعة .

(18) الوذائل : ج وذيلة ، وهى الرشيقة من النساء .

(19) قسطنطين : ملك من ملوك الروم ، سميت حاضرة ملكه باسمه (القسطنطينية) وهى مدينة قديمة كانت مسورة باسوار حصينة تبلغ المائة ، احدها (باب الذهب) ، انظر ياقوت الحموى فى معجم البلدان ج 15 ص 347 .

(20) كتاب اللطين : يعنى به « اللاتينية » .

(21) أصحاب الرواق : يقصد الرواقيين ، وهم فرقة من الفلاسفة القدماء ، ينسبون الى الرواق ، الذى كان يعلم زينون ــ Zenon الرواقيين Stoiciens تحته ، وقد نشأت هذه الفرقة فى القرن الرابع قبل الميلاد ببلاد الاغريق ، تنقسم عندهم الفلسفة الى المنطق والطبيعة وعلم الاخلاق ، ولا يفصلون العناية الالهية عن القضاء ، كما انهم لا يميزون بين المادى والروحى ، وان الكون يسوده النظام ، ويسوسه المنطق ، وان على الانسان أن ينظم نفسه ، فيحتل مكانه فيه . وبهذا تحققت عندهم فكرة الوحدة الكونية ، فى وقت لم يكن العلم الطبيعى عند الاغريق كثيرا ، ولكن كان حدسهم شديداً ، ونظراتهم الثاقبة كثيرا ما كانت تصيب .
أما عن زينون الرواقى فهو مؤلف هذا المذهب (نحو 340 ــ 265 ق م) فقد ولد فى بلدة كتيوم Cition بجزيرة قبرص ، وجاء بعد الى اثينا ، وهو من اصل فينيقى ، واكثر من وسموا المذهب كانوا اسيويين اكثر منهم اغارقة ، ويعد المذهب آخر مجهود فلسفى فى اليونان الوثنية .
هذا ، وممن آمن بوحدة الكون فى العصور الوسطى كتاب الاديان الثلاثة ، فمن المسلمين ابن رشد (1126 ــ 1198 م) ، ومن المسيحيين كثيرون ، ومن اليهود القباليون Kabbalists ، ثم جاء عصر النهضة باوربا فاحيا مبدأ الوحدة الكونية بين اهلها ، وانبرى عدة فلاسفة ينادون بها ، متأثرين بالفلسفة الافلاطونية ، وبما رسمه المذهب من آداب ، ومنهم شكسبير ، وشلر ، وكنط .
راجع : د. احمد زكى (مجلة العربى) عدد 134 يناير 1970 م .

وشريت حلل اليمن (100 : أ) ببخس الثمن (22) ، وحللت من عدن (23) حلول الروح من البدن ، ونظرت الى قرن الغزالة لما شدن (24) ، وأزمعت عن العراقين (25) ، سرى القين ، وشربت من ماء الرافدين باليدين ، وصليت بمحراب الدمنى ركعتين ، وتركت الأثر للعين ، ووقفت حيث وقف الحكمان (26) ، وتقابل التركمان (27) وأخذت بالقدس ، عن الحبر الندس ، وركبت الولايا ، الى بلاد العلايا (28) ، بعد أن طفت بالبيت الشريف ، وحصلت بطيبة على الخصب والريف ، فى فصل الخريف ، وقرأت باخميم (29) علم التصريف ، وأسرعت فى الانحطاط الى الفسطاط (30) ،

---

22) فى نسخة س « بابخس ثمن » وكلاهما بمعنى .

23) عدن : عاصمة جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية ، تقع على ساحل البحر الاحمر جنوب غربى الجزيرة العربية ، لها شهرة تجارية واسعة بفضل موقعها .
انظر : معجم البلدان ، للحموى ، ج 13 ص 89 .

24) فى نسخة (س) « اذا » بدل « لما » ، ولعلها فى نسختنا اصوب .

25) العراقين : البصرة والكوفة بالعراق ، مدينتان لهما اصالتهما العلمية ولاسيما فى عصر الامويين والعباسيين .

26) الحكمان : هما ابو موسى الاشعرى ، وعمرو بن العاص ، لما احتكم اليهما على بن ابى طالب ، ومعاوية بن ابى سفيان ، عقب وقعة صفين (37 هـ = 657 م) فى أمر الخلافة ، وانتهت بتولى معاوية .
انظر « وقعة صفين فى :
ا) المسعودى فى « مروج الذهب » ج 2 ص 20 — 22 .
ب) الطبرى — فى « تاريخ الامم والملوك » ج 6 ص 33 — 43 .

27) التركمان : قبيلة اخضعها التتار ، تعرف منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، وتعيش الآن فى تركستان الغربى ، وايران ، وما وراء القفقاس .

28) العلايا : مدينة ساحلية بآسيا الصغرى ، اسسها علاء الدين كيقوباذ عام 1220 م .

29) اخميم : مدينة اثرية على شاطىء النيل الشرقى بمصر ، محافظتها « سوهاج »
انظر : معجم البلدان ج 1 ص 123 .

30) الفسطاط — مدينة انشأها الفاتح لمصر عمرو بن العاص عام (20 هـ = 640 م) مكانها « مصر القديمة » حاليا احدى ضواحي القاهرة .

والمصر الرحب الاختطاط ، وسكنت مدينة الاسكندرية (31) ثغر الرباط ، وعجلت بالمرور الى التكرور (32) ، فبعث الظل بالحرور ووقفت باشبانية الى الهيكل المزور ، وحصلت بافريقية على الرفد غير المنزور ، وانحدرت الى المغرب ، انحدار الشمس الى المغرب ، وصممت تصميم الحسام الماضى المضرب ، ورابطت بالاندلس ثغر الاسلام ، وأعلمت بها تحت ظل (33) الاعلام .

فآها ــ والله ــ على عمر مضى ، وخلف مضضا (100 : ب) وزمن انقضى ، وشمل قضى الله من تفرقه ما قضى ، ثم أجهش ببكائه ، وأعلن باشتكائه ، وأنشد :

لبسنا فلم نبل الزمان وأبلانا   يتابع أخرانا ــ على الغى ــ أولانا
ونغتر بالآمال ، والعمر ينقضى   فما كان ــ بالرجعى الى الله ــ أولانا
وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسى   فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا
جزينا صنيع الله شر جزائه   فلم نرع ما ــ من سابق الفضل ــ أولانا
فيا رب عاملنا بما أنت أهله   من العفو ، واجبر صدعنا ، أنت مولانا

ثم قال :

لقد مات اخوانى الصالحون   فمالى صديق ولا لى عماد
اذا أقبل الصبح ولى السرور   وان أقبل الليل ولى الرقاد

---

(31) الاسكندرية : العاصمة التجارية لجمهورية مصر العربية ، وتقع على ساحل البحر المتوسط ، بناها الاسكندر المقدونى .
انظر ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 2 ص 182 .

(32) تكرور : شعب من الزنج يسكن الجزء الاكبر من وهاد « فوتة » السنغالية ، ويعرف باسم Foucouleur وفى نسخة (س) « تكرور » بدل « التكرور ».

(33) فى نسخة أخرى « ظلال » بدل « ظل » ، وكلاهما بمعنى .

فتملكتنى له رقة ، وهزة للتماسك مسترقة ، فهجمت على مضجعه هجوما أنكره ، وراع شاءه وعكره (34) ، وغطى بفضل ردنه سكره ، فقلت له : على رسلك أيها الشيخ ، ناب (35) حنت الى حوار (36) ، وغريب أنس بجوار ، وحائر اهتدى بمنار ، ومقرور قصد الى ضوء نار ، وطارق لا يفضح عيبا ،(ولا يثلم غيبا)ولا يهمل (37) شيبا ، ولا يمنع (101 : أ) سيبا ، ومنتاب يكسو الحلة ، ويحسن الخلة ، ويفرغ الغلة ، ويملأ القلة .

أجارتنا : انا غريبان ها هنا   وكل غريب ــ للغريب ــ نسيب

فلما وقم الهواجس وكبتها ، وتامل المخيلة واستثبتها ، تبسم لما توسم ، وسمح بعد ما جمح ، فهاج عقيما فتر ، ووصل ما بتر ، وأظهر ما خبا تحت ثوبه وستر ، وماج منه البحر الزاخر ، وأتى بما لا تستطيعه الاوائل ولا الاواخر . وقال ــ وقد ركض الفنون وأجالها ، وعدد الحكم ورجالها ، وفجر للاحاديث أنهارها ، وذكر البلدان وأخبارها ــ :

ولقد سئمت مآربى   فكان أطيبها (38) خبيث
الا الحديث فانه   مثل اسمه ــ ابدا ــ حديث

فلما ذهب الخجل والوجل ، وطال المروى والمرتجل ، وتوسط الواقع ، وتشوفت للنجوم المواقع ، وتوردت الخدود الفواقع ، قلت : أيها الحبر ، واللج الذى لا يناله السبر ، لا حجبك ــ قبل عمر النهاية ــ القبر ، ــ وأعقب كسر أعداد عمرك ــ المقابلة بالقبول والجبر ، كأنا بالليل قد أظهر ــ لوشك الرحيل ــ (101 : ب) الهلع ، والغرب الجشع لنجومه

---

(34) عكره : ابلسه .
(35) ناب : الناب هى الناقة المسنة .
(36) حوار : بفتح الحاء وضمها ، ولد الناقة .
(37) يقصد : أنه لا يعيب أحدا فى غيبته ، وقد وردت هذه الجملة فى نسخة (س) .
(38) فى نسخة (س) « فكان » بدل « فكأن » وهو ما لا يستقيم وزنا .

قد ابتلع ، ومفرق الاحباب — وهو الصبح — قد طلع ، فأولنى عارفة من معارفك أقتنيها، وأهززلى أفنان حكمك أجتنيها، فقال : أمل ميسر ، ومجمل يحتاج أن يفسر ، فأوضح الملغز ، وابن لى الطلا (39) من البرغز (40) . وسل عما بدا لك ، فهو أجدى لك ، فاقسم لا تسألنى عن غامض ، وحلو وحامض ، الا أوسعته علما وبيانا ، وأريتك الحق عيانا .

قلت : صف لى البلاد وصفا لا يظلم مثقالا ، ولا يعمل — فى غير الصدق — وخدا ولا ارقالا (41) ، واذا قلتم فاعدلوا (42) ؛ ومن أصدق من الله مقالا (43) فقال : سل ، ولا تسل ، ولو راعك الاسل . قلت : انفض لى البلاد الاندلسية من أطرافها ، وميز — بميزان الحق — بين اعتدالها وانحرافها ، ثم اتلها بالبلاد المرينية (44) نسقا ، واجل — بنور بيانك — غسقا :

---

(39) الطلا : ولد الظبى ساعة ولادته ، والجمع « أطلاء » .

(40) البرغز : ولد البقرة ، ويقصد بالعبارة : أوضح غرضك وفصله .

(41) الوخد والارقال : نوعان من السير السريع للابل .

(42) اقتباسا من قوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده ، واوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله اوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » سورة الانعام ، آية : 152 .

(43) اقتباسا من قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار ، خالدين فيها ابدا ، وعد الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا » سورة النساء ، آية : 122 .

(44) البلاد المرينية : البلاد المغربية ، نسبة الى بنى مرين الذين حكموا هذه البلاد فى الفترة من 668 — 869 هـ (1269 — 1265 م) وكانت عاصمتهم فاس .

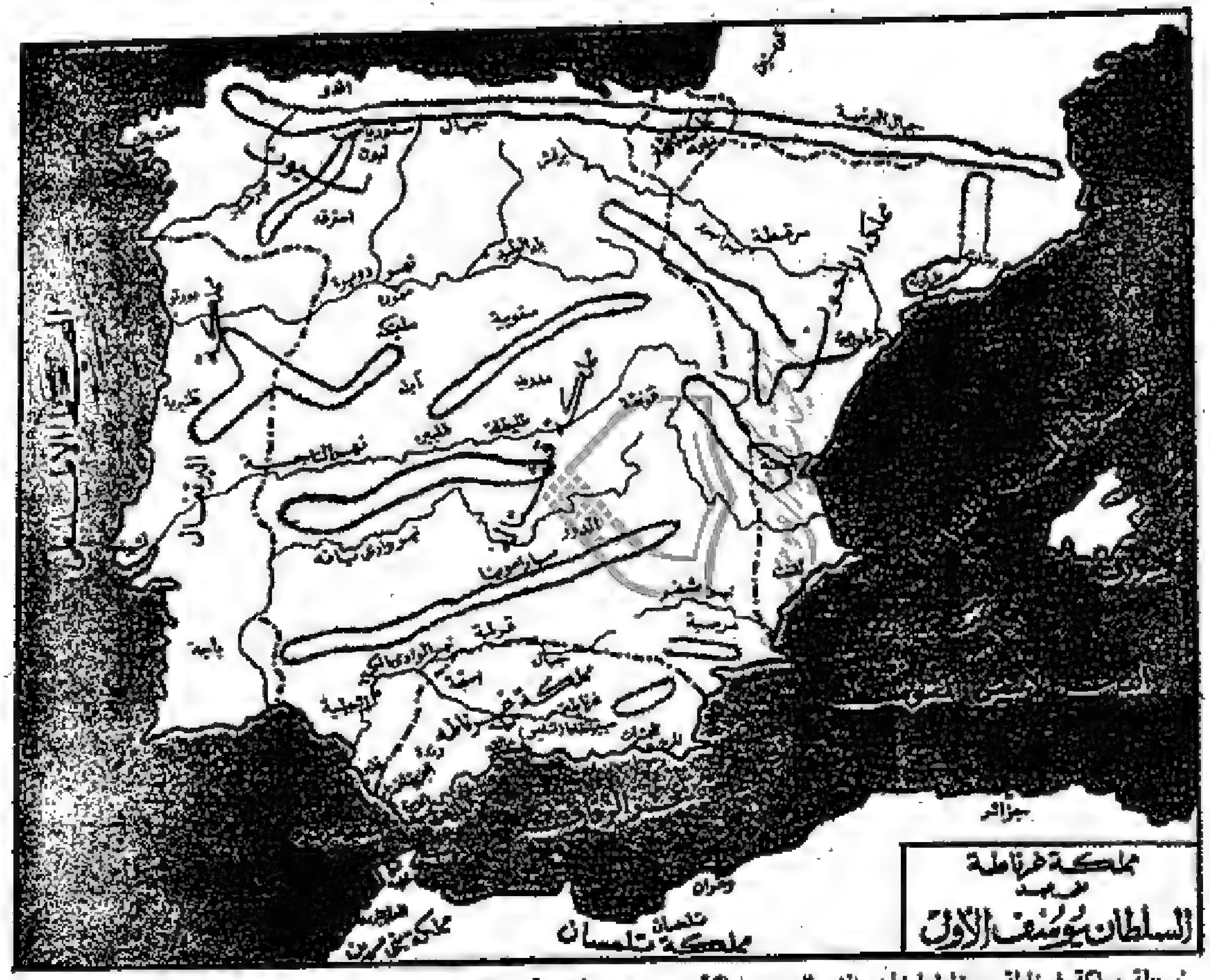
مملكة غرناطة
في عهد
السلطان يوسف الأول
البرتغال
باجة
نهر وادي يانه
قرطبة
نهر الوادي الكبير
مملكة غرناطة
مرسية
جزائر
وهران
تلمسان
مملكة تلمسان
مملكة بني مرين

خريطة مملكة غرناطة ، يقابلها الجزء الشمالي من مملكة بني مرين المغربية، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي

جبـــل طـــارق

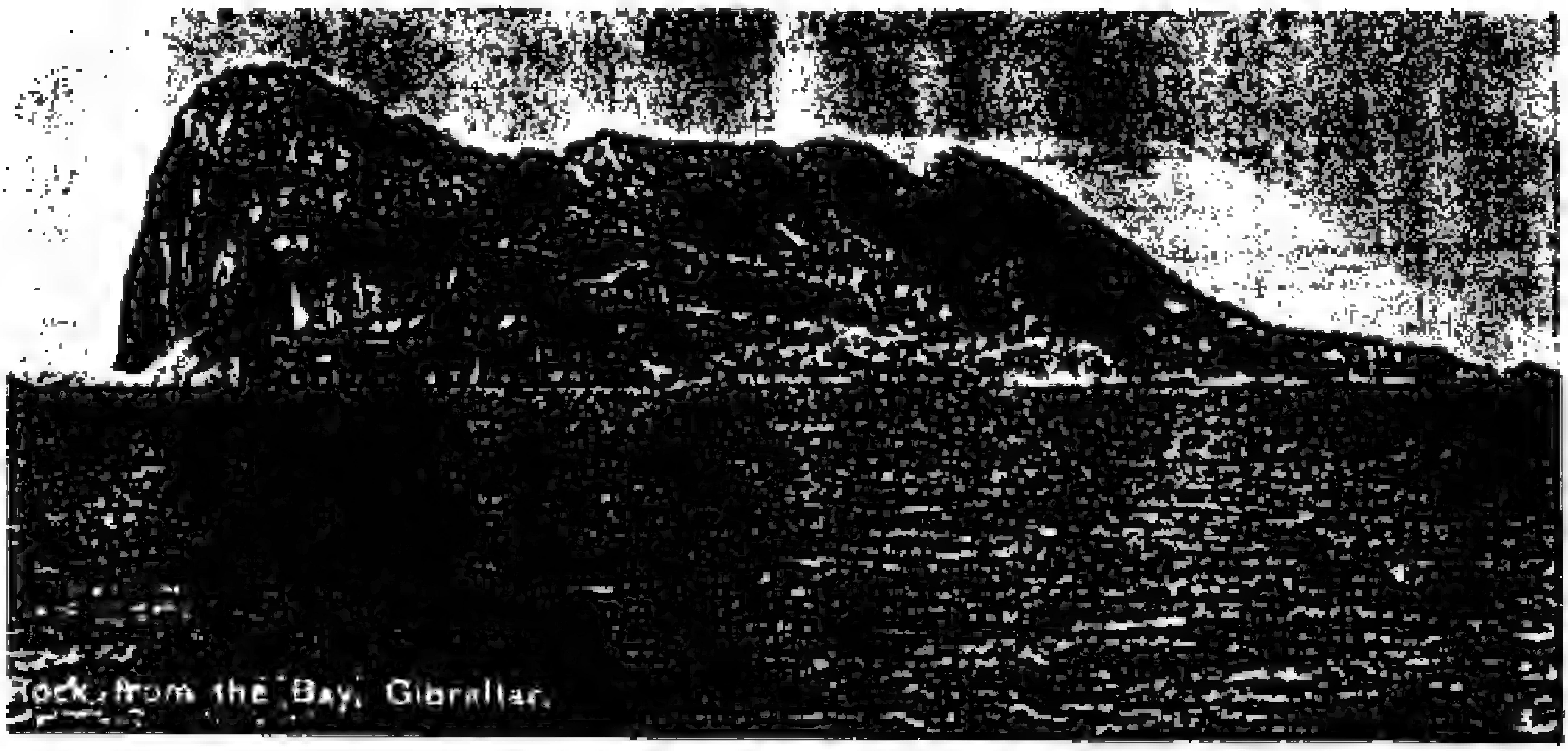
ock, from the Bay, Gibraltar.

« منظر جبل طارق من البحر »

مرکز تحقیقات کامپیوتری

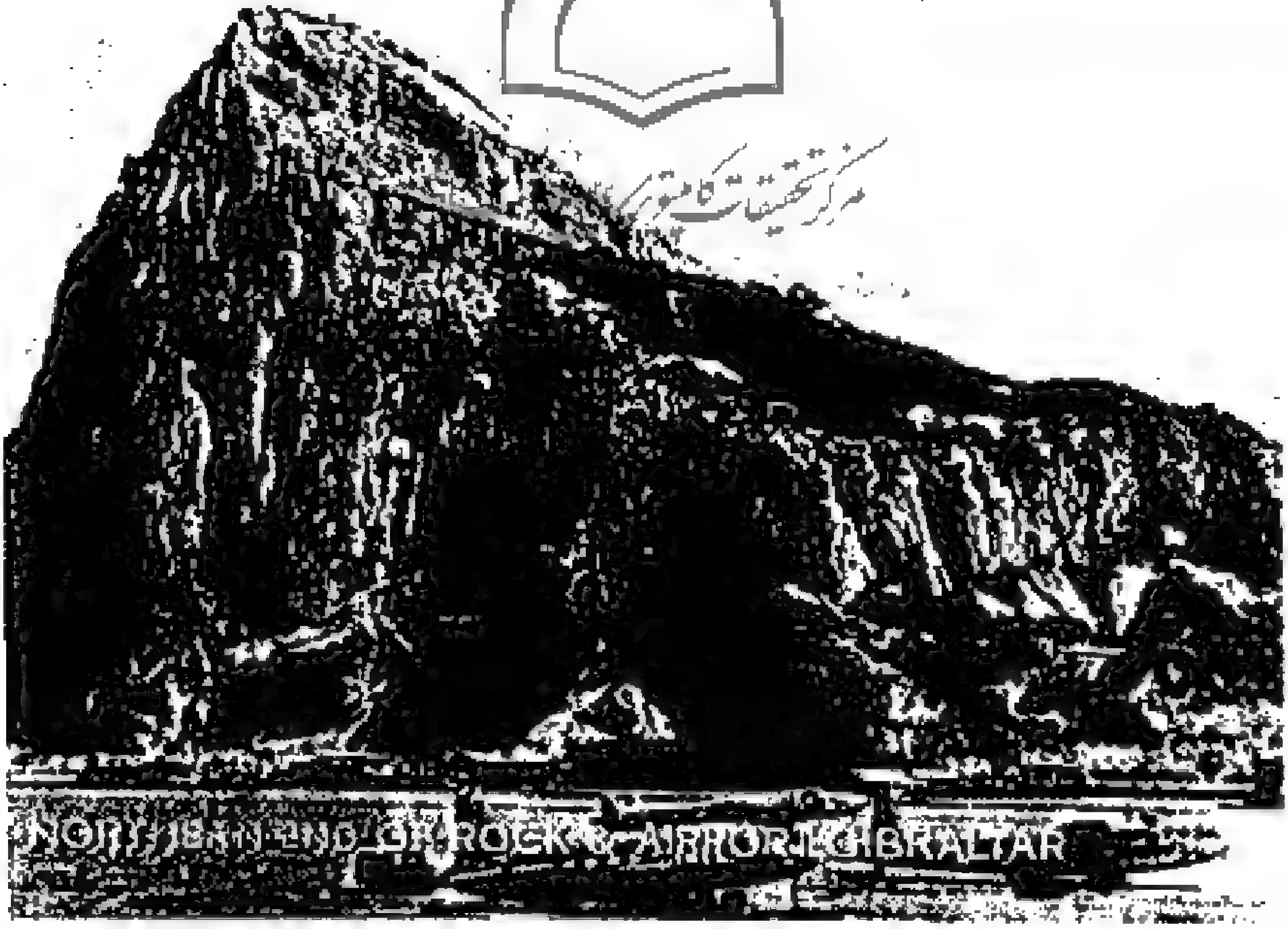
NORTHERN END OF ROCK & AIRPORT GIBRALTAR

« منظر راس الصخرة »

وهات ما تقول فى « جبل الفتح » (46) :

1 — « جبـــل الفتـــح »

قال : فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم، وقصص المهارق (47) ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباين للارض المفـارق ، مأهـل العقيـق (48) وبـارق (49) ، ومحـط طارقهـا ، (102 : أ) بالفتح طارق . ارم البلاد (150) التى لم يخلق مثله فيها ، وذو المناقب التى لا تحصرها الالسنة ولا توفيهـا .

حجزه البحر ، حتى لم يبق الا خصر ، فلا يناله — من غير تلك الفرصة — ضيق ولا حصر ، وأطل بأعلاه قصر ، وأظله فتح — من الله — ونصر . ساوق (51) سوره البحر فاعياه ، قد تهلل بالكلس محياه، واستقبل الثغر الغريب فحياه . اطرد صنع الله فيه ، من عدو يكفيه ، ولطف يخفيه ، وداء عضال يشفيـه . فهو خلوة العباد ، ومقام العاكف والباد ، ومسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب المسلمة والاكباد . هواؤه صحيح ، وثراه — بالخزين — شحيح ، وتجر الرباط فيه ربيح ، وحماه — للمال

---

(46) جبل الفتح : هو جبل طارق « Gibraltar » نسبة الى فاتح اسبانيا (طارق بن زياد) ، وكان يسمى قبل الفتح « Calpe » بمعنى « تجويف » يتبع بريطانيا حاليا ، وتنازعها اسبانيا فى الاحقية ، وهذا خلاف قديم .

راجـع : José Carlos de luna-Historia de Gibra ltar

(47) المهارق : جمع مهرق ، وهى الصحيفة .

(48) العقيق : العقيق تقوله العرب لكل مسيل ماء شقه السيل فى الارض فانهـره ووسعه ، وفى بلاد العرب اربعة أعقـة .

راجع : ياقوت الحموى — معجم البلدان — ج 14 ص 138 ، ص 139 .

(49) بارق ، ركن من اركان اليمامة ، وهو جبل ، كما يطلق ايضا على ماء بالعراق ، وهو الفاصل بين القادسية والبصرة من اعمال الكوفة ، وقد عناه المتنبى بقوله:

تذكرت ما بين العذيب وبارق   مجر عوالينا ومجـر السوابـق

راجع : ياقوت الحموى — معجم البلدان — ج 2 ص 319 — 320 .

(50) ارم : الارم ، ما يهتدى به من حجارة تنصب فى المفازة ، وجمعه آرام وأروم ، والمعنى : علم البلاد .

(51) ساوق : فاخـر .

والحريم — غير مبيح ، ووصفه الحسن لا يشان بتقبيح. الا انه — والله يقيه مما يتقيه — بعيد الاقطار، ممار بالقطار (52)، كثير الرياح والامطار. مكتنف بالرمل المخلف ، والجوار المتلف . قليل المرافق ، معدوم المشاكل والمرافق . هزل الكراع **(لعدم الازدراع ، حاسر الذراع ، للقراع)** (54)، مرتزق من ظل الشراع . كورة دبر ، (55) ومعتكف أزل وصبر ، وساكنه حي في قبر (102 : ب) .

هو الباب ان كان التزاور واللقيا وغوث وغيث للصريخ وللسقيا
فان تطرق الايام فيه بحادث وأعزز بمقلنا : السلام على الدنيا

2 — « اسطبونة » (56)

قلت : فاسطبونة ؟

قال : ذهب رسمها ، وبقي اسمها ، وكانت مظنة النعم الغزيرة ، قبل حادث الجزيرة (57) .

---

(52) القطار : السحاب الغزير القطر .
(53) المرافق : اراد بالمرافق الاولى المنافع ، وبالثانية الابار .
(54) لعدم الازدراع : لعدم المرعى ، وما بين القوسين زيادة وجدناها في نسختي (س ، ر) .
(55) كورة دبر : منزل النحل والزنانير ، وقد وردت في نسختي (ر ، د) « جبر » .
(56) اسطبونة : بلدة تقع غرب مالقة ، على شاطىء البحر المتوسط ، وتعرف في الاسبانية باسم « Estepona » .
(57) يقصد بحادث الجزيرة موقعه طريف ، وهي بالاسبانية: « Batalla del Salado » حدثت بين النصارى من جهة وبين المغاربة والاندلسيين من جهة اخرى، وتمخضت عن هزيمة المسلمين ، وسقوط كل من طريف والجزيرة الخضراء (30/10/ 1340 م = جمادى الاولى 741 هـ) .
راجع : ابن خلدون في « العبر » ج 7 ص 261 ، 262 ، والمقرى في « نفح الطيب » ج ص 317 ، 318 ، وابن الخطيب في اللمحة البدرية ص 92 ، 93 ، والسلاوى في « الاستقصاء » ج 2 ص 65 ، 66 ، ودكتور لويس سيكو دى لوثينا » في مجلة الاندلس — ملحق 1949 م .

مربلة (غرناطة)

صورة من الجو للمدينة الساحلية

3 ـ « مـــربلـــــة » (58)

قلت : فمربلــــــة ؟

قال : بلد التأذين على السردين ، ومحل الدعاء والتأمين ، لمطعـــم الحوت السمين ، وحدقاتهـــا مغرس السنب العديـــم القرين ، الى قبـــة أرين (59) . الا أن مرساها غير أمين ، وعقارها غير ثمين ، ومعقلها تركبه الارض عن شمال ويمين (60) .

4 ـــ « ســـهيــــــل » (61)

قلــت : فسهيـــل ؟

قال : حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى ــ بفضله ــ كل ذى عقل رصين ، سبب عزه متين ، ومادة قوته شعير وتين . قد علم أهله مشربهم ، وأمنوا مهربهم . وأسهلت بين يديه قراه ، وجاد بالسمك واديه وبالحب ثراه ، وعرف شأنه بارض النوب (62) ، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب . الا أن سواحله فل (63) الغارة البحرية ، ومهبط

(58 مربلة : مدينة متوسطة ، تقع غرب مالقة ، على مسافة 60 كم منها ، تعرف فى الاسبانية باسم « Marbella »

(59 فى نسخة (ر ، س ، ط) « قلت ان مرساها غير امين » ، وقد اوردها كذلـــك المستشرق « سيمونيت » ، ولكن الصواب فى نسختنا .

(60 فى نسخة (س ، ر) « من شمال ويمين » بدل « من شمال ويمين » .

(61 سهيل : ميناء على ساحل البحر المتوسط ، يعرف اليوم فى الاسبانيـــة باســـم Fuenjerola على مسافة 28 كم شرقى مربلة .

(62 ربما يقصد « بلاد النوبة » اقصى الجنوب بجمهوريـــــة مصـــــر العربية ، وشمال السودان ، والتعبير كناية من بعد صيت المدينة .

(63 فى نسخة (ر ، س) « بل » بدل « فل » .

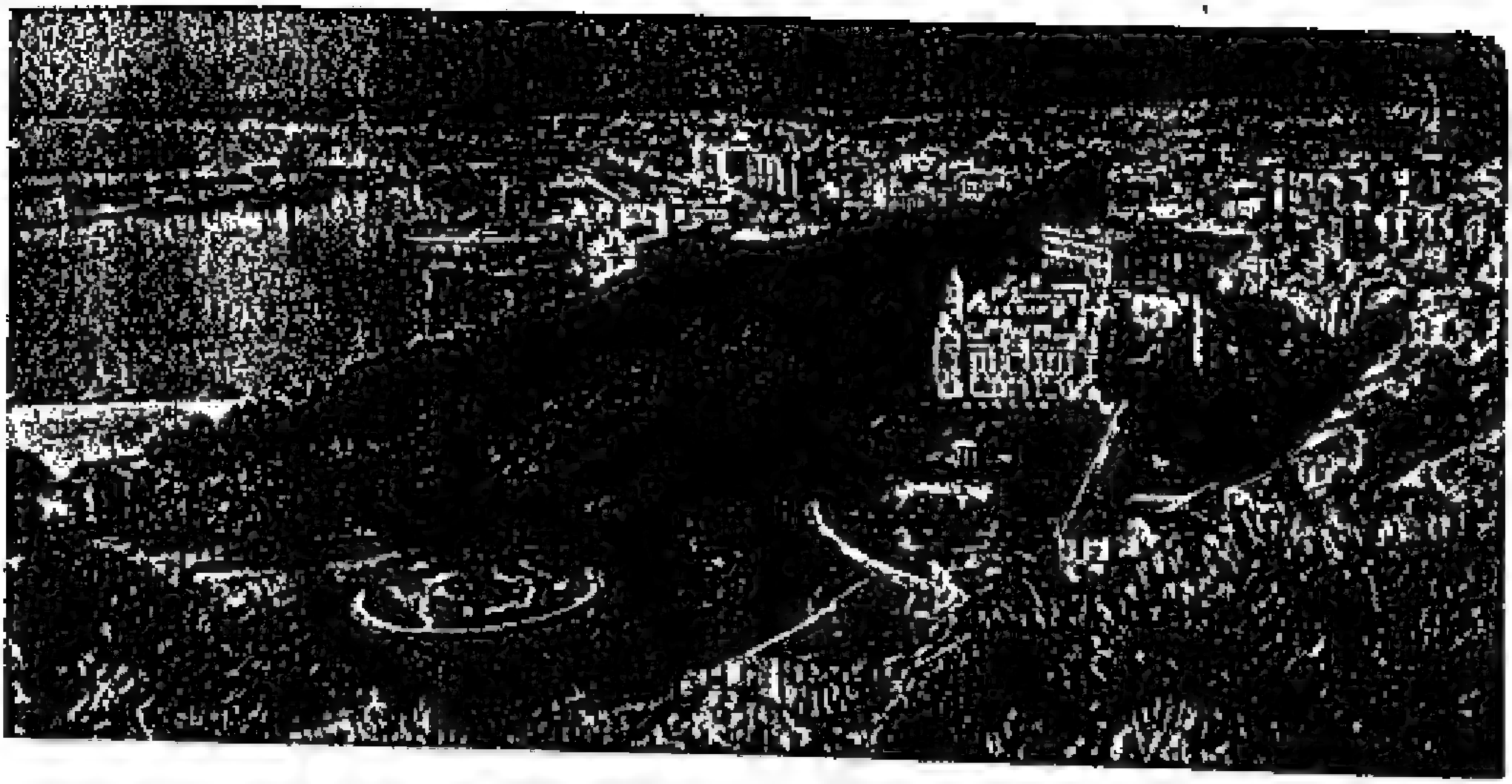

منظر عام للمدينة وميناتها

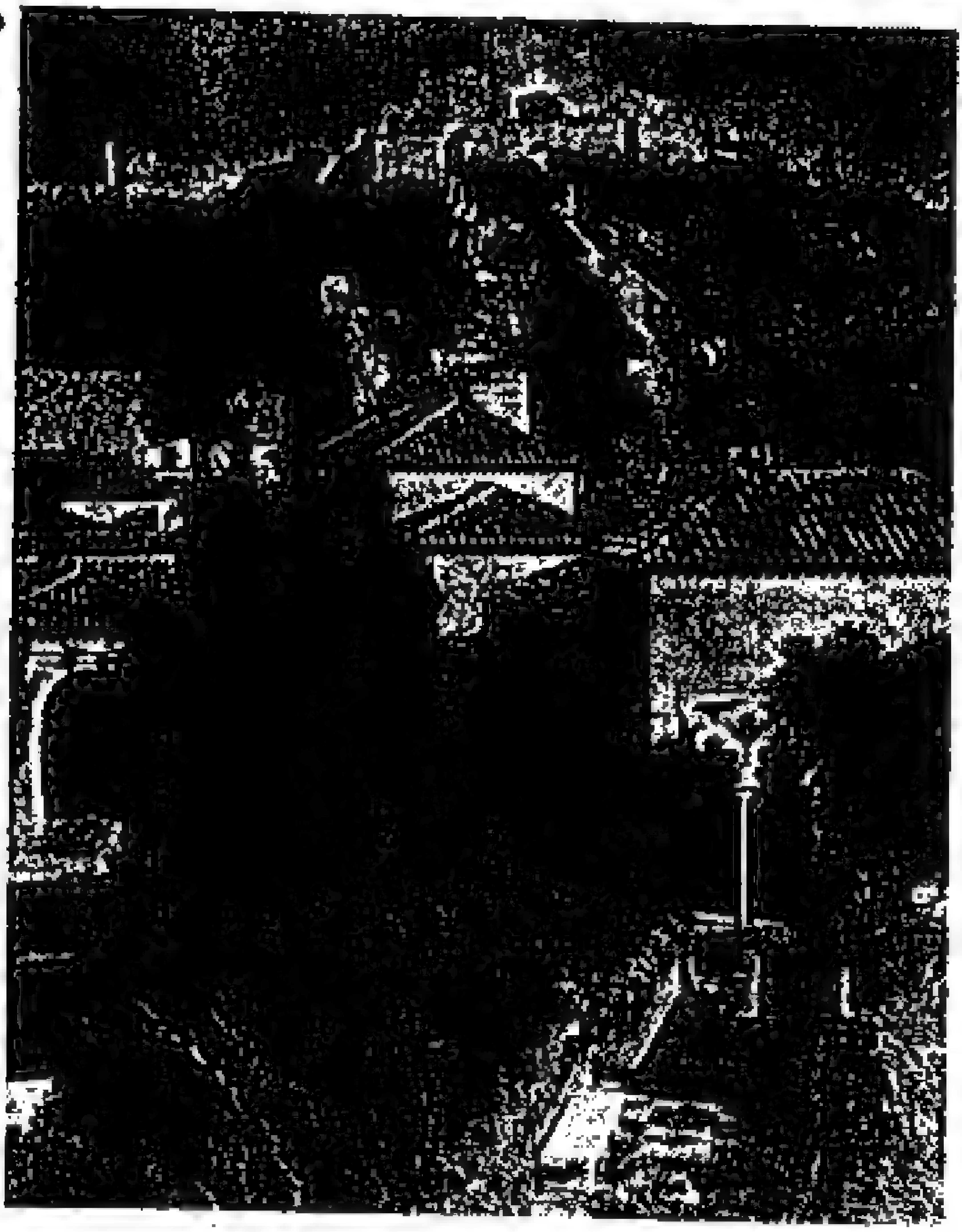

منظر داخلي للقصبة

السرية غير السرية ، الخليقة بالحذر الحرية ، مسرح السائمة الاميرية ، وخدامها (103 : أ) ــ كما علمت ــ أولئك هم شر البرية (64) .

5 ــ مالقــــة (65)

قلت : فمدينة مالقــة ؟

قال : وما القول (66) فى الدرة الوسيطة ، وفردوس هذه البسيطة ؟ أشهد لو كانت سورة لقرنت بها حذقة الاطعام (67) ، أو يوما لكانت عيدا فى العام (68) ، تبعث لهــا بالسلام مدينــة السلام (69) ، وتلقى لها يــد الاستسلام محاسن بلاد الاسلام . أى دار ، وقطب مدار ، وهالة ابدار ، وكنز تحت جدار . قصبتها مضاعفة الاسوار ، مصاحبة للسنين مخالفة للادوار (70) ، قد برزت فى أكمل الاوضاع وأجمل الاطوار . كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة . فحماها منيــع حريز ،

---

64) اقتباسا من قوله تعالى : « ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » سورة البينة ، آية : 6 .

65) مالقة : Malaga مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، جنوب شرق الاندلس ، يرجع تأسيسها الى الفنيقيين عام 1200 ق. م ، حيث كانت تعرف باسم« Malaca »بمعنى : المملح ، نسبة الى الاسماك المملحة التى اشتهرت بها ، وتتوفر المدينة ايضا على أجود أنواع الفواكه ، ولها شهرة فى صناعــة الفخار Ceramica ، كانت عاصمة الحموديين الادارسة أيام ملوك الطوائف ، كما كان بنو الاحمر يعتبرونها العاصمة الثانية بعد غرناطــــة .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 1 ص 186 ، وياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 17 ص 367 .

66) فى نسخة (ر ، س) « وما أقول » بدل « وما القول » وكلاهما بمعنى .

67) حذقة الطعام : الحفل الخاص بانتهاء الصبى من حفظ القرآن .

68) فى نسخة (ط ، س) « فى الايام » بدل « فى الطعام » فالتعبير فى نسختنا اعم .

69) مدينة السلام : بغداد .

70) فى نسخة (س ، ر) « مصاحبة السنين ، محالفة الادوار » ، فلعلها فى نسختنا أولــــى .

مالقة ـ القصبة

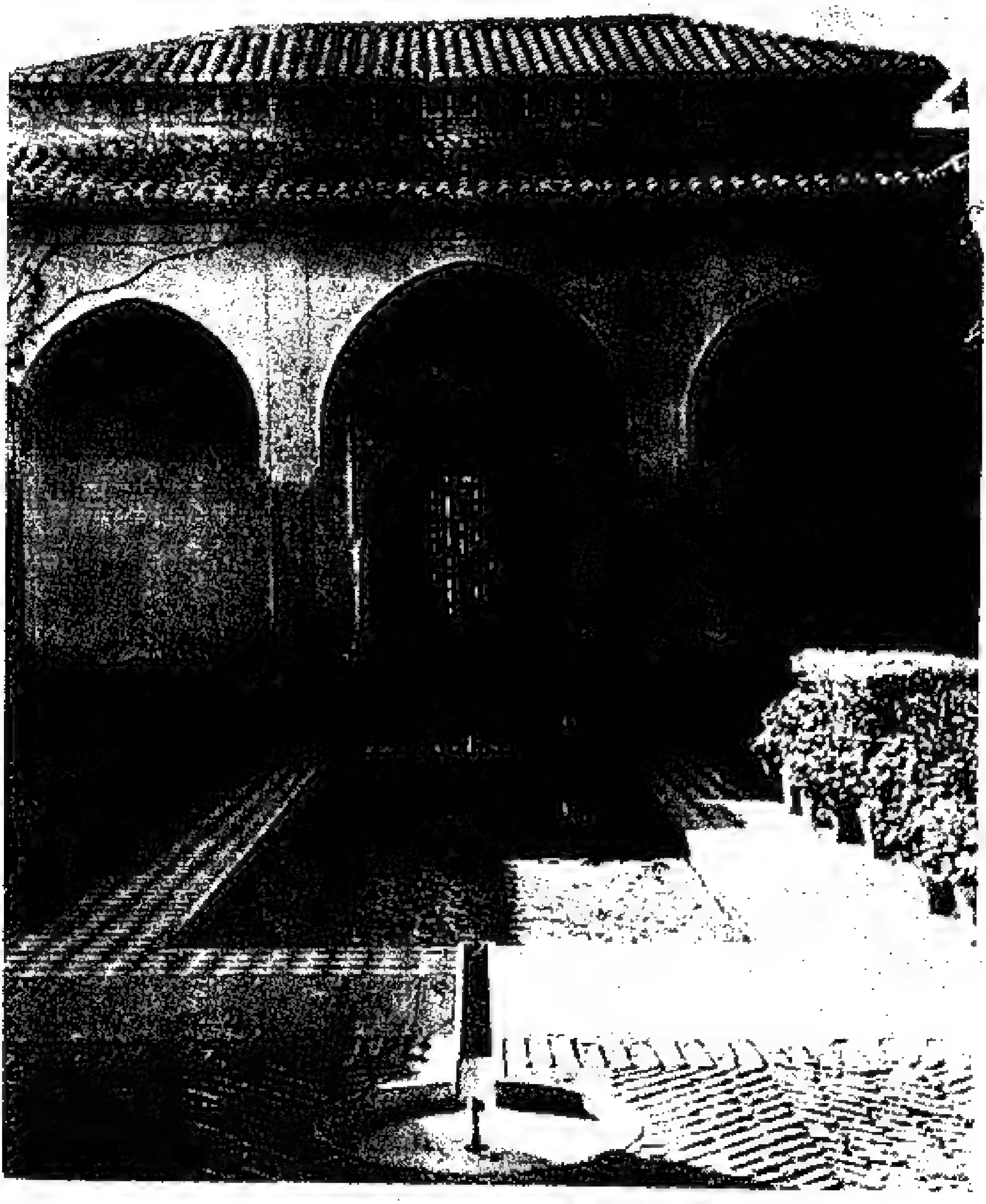

احد الافنية فى القصبة

اضطبنت دار الاسطول ، وساوقته البحر بالطول ، وأسندت الى جبل الرحمة ظهرها ، واستقبلت ملعبها ونهرها ، ونشقت وردها الارج (103 : ب) وزهرها ، وعرفت قدرها ، غاغلت مهرها . وفتحت جفنها على الجفن غير الغضيض (72) ، والعالم الثانى ما بين الاوج إلى الحضيض .

دار العجائب المصنوعة ، والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة ، حيث الاوانى تلقى لها يد الغلب صنائع حلب ، والحلل التى تلح صنعاء فيها بالطلب ، وتدعو الى الجلب ، الى الدست الرهيف ، ذى الورق الهيف . وكفى برمانها حقاق ياقوت ، وأمير قوت ، وزائر غير ممقوت . الى المواساة ، وتعدد الاساة ، واطعام الجائع والمساهمة فى الفجائع ، وأى خلق أسرى من استخلاص الاسرى ، تبرز منهم المخدرة حسرى ، سامحة بسواريها ولو كانا سوارى كسرى . الى المقبرة التى تسرح بها العين ، وتستهان — فى ترويض روضاتها — العين ، الى غلاها المحكمة البنيان ، الماثلة كنجوم السماء للعيان ، وافتراض سكناها — أوان العصير — على الاعيان ، ووفور أولى المعارف والاديان .

(104 : أ) وأحسن (73) الشعر فيما أنت قائله
بيت يقال — اذا أنشدته — صدقا

وعلى ذلك ، فطينها يشقى به قطينها ، وأزبالها تحيى بها سبالها ، وسروبها يستمد (74) منها مشروبها ، فسحنها (75) متغيرة ، وكواكب

---

(71) تبريز : مدينة فى ايران ، وهى قاعدة اقليم « اذربيجان الشرقية » ، وتشتهر بصناعة الطنافس والحرير .

(72) اضطبنت : وانتت .

(73) فى نسختى (س ، ط) « مما » بدل « فيما » .

(74) فى نسختى (ط ، د) « يستعمل » بدل « يستمد » .

(75) فى نسختى (ر ، س) « فسخهما ، فساحاتها » بدل « فسحنها » فلعلها فى نسختنا اولى .

قصبة مالقة (منظر جانبي)

أذهانها النيرة متحيرة ، وأقطارها جد شاسعة ، وأزقتها لزجة (76) غير واسعة ، وآبارها تفسدها أزفارها ، وطعامها لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الاحزان ، وجوعها ينفى به هجوعها ، تحث (77) على الامواج أقواتها ، وتعلو على الموازين غير القسط أصواتها ، وأرحيتها تطرقها النوائب ، وتصيب أهدافها السهام الصوائب ، وتعد بها الجنائب ، وتستخدم فيها الصبا والجنائب . وديارها الآهلة بالسكان قد صم بالنزائل صداها ، وأضحت بلاقع بما كسبت يداها ، وعين أعيانها أثر ، ورسم مجادتها قد دثر ، والدهر لا يقول «ا لمن عثر (78) ، ولا ينظم شملا اذا انتثر . وكيف لا يتعلق الذام ، ببلد يكثر به الجذام ! محلة بلواه آهلة ، والنفوس — بمعرة عدواه — جاهلة .

ثم تبسم عند انشراح صدر ، وتذكر (79) قصة (104 : ب) الزبرقان بن بدر (80) .

تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وان ذممت تقل (81) قىءالزنابير
مدح وذم ، وعين الشىء واحدة ... ان البيان يرى الظلماء كالنور (82)

---

(76) فى نسخة (س) « حرجة » .

(77) فى نسخة (ط) « تحط » بدل « تحث » .

(78) مثل يضرب عند العرب ، ومعناه : أن الدهر لا يدعو لك بالانتعاش اذا عثرت .

(79) فى نسخة (س) « وذكر » بدل « وتذكر » .

(80) تتلخص قصة الزبرقان بن بدر فى : ان النبى صلى الله عليه وسلم سأل عمرو ابن الاهتم عن الزبرقان بن بدر ، فقال : « مانع لحوزته ، مطاع فى أدنيه » فقال الزبرقان : اما انه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى ، فقال عمرو : « اما لئن قال ما قال : «والله ما علمته الا ضيق الصدر ، زمر المروءة ، لئيم الخال، حديث الغنى» ، فلما راى عمرو انه قد خالف قوله الاول، وراى الانكار فى عينى الرسول ، قال : « يا رسول الله ، رضيت ، فقلت احسن ما علمت ، وغضبت فقلت اقبح ما علمت ، وما كذبت فى الاولى ، ولقد صدقت فى الاخرى » فقال الرسول عند ذلك : « أن من البيان لسحرا » .
انظر : الجاحظ فى « البيان والتبيين » . ج 1 ص 52 .

(81) فى نسخة (ط) « فقل » .

(82) فى نسخة (ط ، س) « فى النور » بدل « كالنور » .

6 ـ « بليش مالقة » (83)

قلت : فبليش ؟

قال : جادها المطر الصيب ، فنعم البلد الطيب ، حلى ونحر ، (وبر) ولوز وتين ، وسبب من الامن متين ، وبلد أمين ، وعقار ثمين ، وفواكه عن شمال ويمين ، وفلاحة مدعى انجابها لا يمين . الا أن التشاجر بها أنمى من الشجر ، والقلوب أقسى من الحجر ، ونفوس أهلها بيئة الحسد والضجر ، وشأنها غيبة ونميمة ، وخبث (84) مائها ـ على ما سوغ الله من آلائها ـ تميمة (85) .

7 ـ « قمارش » (86)

قلت فقمارش ؟

قال : مودع الوفر ، ومحط السفر ، ومزاحم الفرقد (87) والغفر (88) ، حيث الماء المعين ، والقوت المعين . لا يخامر قلب

---

83) هى بالاسبانية « Velez Malaga » موقعها غرب مدينة مالقة على مسافة 34 كم . وقد تحدث ابن بطوطة عنها فى « الرحلة » بما يؤيد وصف ابن الخطيب هنا (رحلة ابن بطوطة ج 2 ص 187) .

84) فى نسخة (ر ، ص) « وخبيث » .

85) التميمة : تجمع على تمائم ، وهى للاطفال مثلا ما يوضع على صدورهم أو جباههم من تعاويذ ، يعتقد أهلوهم أنها تقيهم شر الجوائح وعين الحسود ، قال الشاعر :

وإذا المنية أنشبت اظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

والقصد فى موضوعنا : ان المؤلف يعلل لخبث ماء بليش ، بأنه تعويذة من حسد الحساد ، لما أنعم الله به عليها من النعم التى عددها .

86) تمارش : هى« Comares أحدى الحصون الهامة أيام مملكة غرناطة ، وتقع قربها .

87) الفرقد : البقر الوحشى .

88) الغفر : ولد الوعل .

المنكب

مرفا نزول عبد الرحمن الداخل
مؤسس دولة بني امية بالاندلس

صورة من البحر

الثائر به خطرة وجله ، الا من أجله . طالما نزعت اليه نفوس الملوك الاخائر بالذخائر ، وشقت عليه أكياس المرائر فى الضرائر . وبه الاعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين ، واللوز والتين ، والحرث الذى له التمكين ، والمكان المكين . الا أنه عدم سهله (89) ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهله .

8 ـ « المنكب » (90)

قلت : (105 : أ) فالمنكب ؟

قال : مرفأ السفن ومحطها ، ومنزل عباد المسيح ومختطها . بلدة معقلها منيع ، وبردها صنيع ، ومحاسنها غير ذات تقنيع . والقصر المفتح الطيقان ، المحكم الاتقان ، والمسجد المشرف المكان ، والاثر المنبىء عن كان وكان ، كانه مبرد واقف ، أو عمود فى يد مثاقف . قد أخذ من الدهر الامان ، وتشبه بصرح هامان (91) ، وأرهفت جوانبه بالصخر المنحوت ، وكاد أن يصل(ما) بين الحوت والحوت (92) . غصت

---

89) يرمى بهذه الكناية الى سوء خلق أهل البلد .

90) المنكب : مرفأ ساحلى مرتفع ، يقع جنوب شرق الاندلس بمقاطعة غرناطة ، يدعى الآن « Almunecar وقد نزل الامير الاموى عبد الرحمن بن معاوية بهذا الميناء منذ دخوله الاندلس فى ربيع الاول 138 هـ ـ سبتمبر 755 م ، وهذا الامير هو الذى عرف بعدئذ بلقب « الداخل » .
راجع : الادريسى فى « نزهة المشتاق » ـ ص 199 ـ نشر دوزى 1866 م ، وكذا « الروض المعطار للحميرى ص 186 .

91) يرمي الى الصرح الذى أمر فرعون وزيره هامان بتشييده له ، فى قوله تعالى : « وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فاوقد لى يا هامان على الطين ، فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى ، وانى لأظنه من الكاذبين » القصص : 38 .

92) يعنى بالحوت الاول : السمك ، وبالآخر : نجم ، كناية عن عظم ارتفاع القصر .

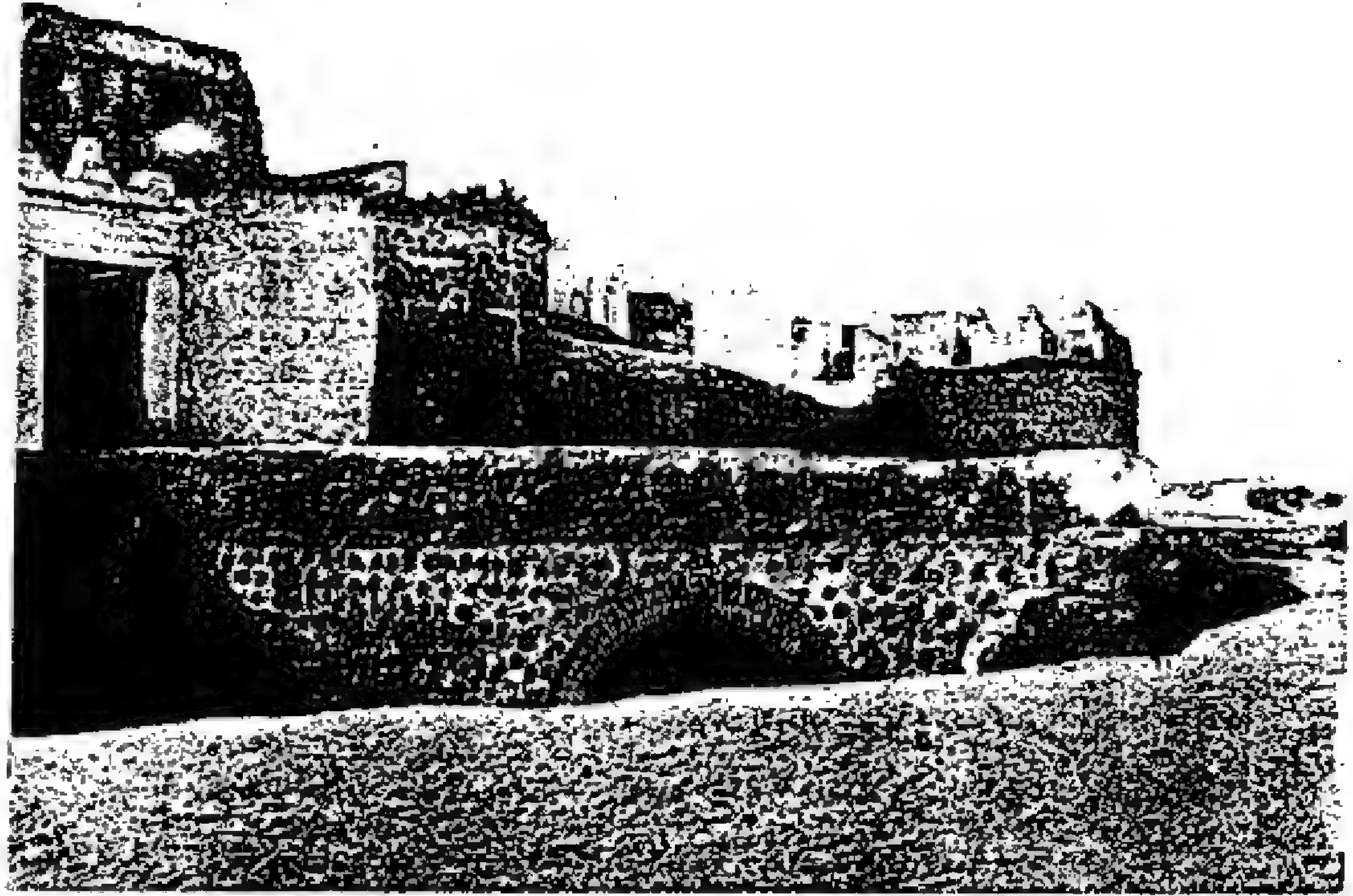

حصن المنكب (أول محط لعبد الرحمن الداخل)

ــ بقصب السكر ــ أرضها ، وأستوعب بها (93) طولها وعرضها ، زبيبها فائق ، وجنابها رائق .

وقد مت ــ اليها ــ جبل الشوار (94) بنسب الجوار . منشأ الاسطول ، بعدته (95) غير ممطول ، وأمده لا يحتاج الى الطول . الا أن اسمها مظنة طيرة تشتنف (96) ، فالتنكيب ــ عنها ــ يؤتنف (97) . وطرقها (98) يمنع شر سلوكها من تردد ملوكها ، وهواؤها فاسد ، ووباؤها مستأسد ، وجارها حاسد . فاذا التهبت السماء ، وتغيرت بالسمائم (99) المسميات والاسماء ، فأهلها ــ من أجداث بيوتهم ــ يخرجون (100) ، والى جبالها يعرجون . والودك اليها مجلوب ، والقمح بين أهلها مقلوب ، (105 : ب) والصبر ــ ان لم يبعثه البحر ــ مطلوب (101) ، والحرباء ــ بعرائها ــ مصلوب (102) ، والحر ــ بدم الغريب ــ مطلوب (103) .

---

93) فى نسخة (ر) « فيها » بدل « بها » .

94) يقصد به جبل « Sierra del Cazulas »
راجع فى هذا كلا من الحميرى فى « الروض المعطار » ص 112 ، وكذا : « سيمونيت » فى تحقيقه ص 47 .

95) فى نسخة (ط) « بموعدها » .

96) فى نسخة (س) « تستنف » .

97) يؤتنف : يبتدىء .

98) فى نسختى (س ، ط) « وطريقها » .

99) السمائم : الريح الحارة .

100) اقتباسا من قوله تعالى : « يوم يخرجون من الاجداث سراعا ، كأنهم الى نصب يوفضون » سورة المعارج ، آية : 43 .

101) لعله يقصد أن القمح هو الآخر يجلب من الخارج ، ثم يصرف بين أهل المدينة، فان لم تأت به السفن فالصبر نافذ .

102) لعل السبب لهذا شدة الحرارة ، كما اسلف ، ويبقى الاعتراض على تذكير « مصلوب » والحرباء مؤنثة ، وعلى هذا المرجح انه يقصد بالحرباء قاطع الطريق العاتى ، بدليل ما بعده ، ويميل « سيمونيت » الى ذلك .
راجع : سيمونيت فى تحقيقه ص : 47 .

103) ربما يرمى بذلك الى ان اهلها شرار يعترضون طريق الغريب ، بغية السلب، ولو ادى بهم ذلك الى قتل الغريب ، ومن ثم يكون القصاص منهم .

9 ـ « شلوبانية » (104)

قلت : فشلوبانية ؟

قال : أختها الصغرى ، ولدتها التى يشغل بها المسافر ويغرى ، حصانة معقل ، ومرقب متوقل ، وغاية طائر ، وممتنع ثائر ، ومتنزه زائر ، تركب ـ بدنها ـ الجداول المرفوعة ، وتخترق ـ جهاتها ـ المذانب المفردة والمشفوعة ، ففى المصيف تلعب بالعقل الحصيف ، وفى الخريف تسفر عن الخصب والريف . وحوت هذه السواحل أغزر من رمله ، تغرى (105) القوافل الى البلاد بحمله (106) ، الى الخضر الباكرة ، والنعم الحامدة للرب الشاكرة . وكفى بمترايل (107) من بسيطها محلة مشهورة ، وعقيلة ممهورة ، ووداعة فى السهل غير مبهورة (108) . جامعها حافل ، وفى حلة الحسن رافل . الا أن أرضها مستخلص السلطان بين الاوطان ، ورعيتها عديمة الاعيان ، مروعة على الاحيان . وتختص

---

104) شلوبانية : بلدة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، تبعد بمسافة 16 كلم شرق المنكب ، وتعرف فى الاسبانية باسم « Salobrena » تحيط بها الجبال من الشمال والغرب ، وبها حصن أندلسى من اهم الآثار الاندلسية ، وهو يشرف على المدينة من ناحية الشرق من ارتفاع شاهق ، وقد سقطت شلوبانية فى يد الاسبان فى نفس العام الذى سقطت فيه المنكب ، اى عام 1489 م ، والى شلوبانية ينتسب امام النحو الاندلسى « أبو على الشلوبين» المتوفى باشبيلية عام 645 هـ (1247 م) .

105) فى نسخة (س) « تغدو » .

106) فى نسخة (س) « تحمله » .

107) مدينة تسمى الآن « Motril » ، يبلغ تعداد سكانها حاليا 50.000 نسمة تقريبا ، تبعد عن مالقة بنحو 107 كم ، كما تبعد من مدينة غرناطة شرقا بنحو 74 كم تجاه ساحل البحر الابيض المتوسط ، تشتهر بزراعة قصب السكر ، ولها اهمية اقتصادية بين مدن غرناطة ، حيث أنها مركز هام للمواصلات .

108) غير مبهورة : غير مفضولة .

شلوبانية بمزية البنيان ، ولكنها غاب الحميات ، غير أمينة على الاقتيات ، ولا وسيمة الفتيان ولا الفتيات (109) .

10 — « بـرجـة » (110)

قلت : فبرجة ؟

قال : تصحيف وتحريف ، وتغيير فى تعريف (111) . ما هى الا بهجة ناظر ، وشرك خاطر ، ونسيجة (106 : أ) عارض ماطر ، ودارين (112) نفس عاطر . عقارها ثمين ، وحرمها أمين ، وحسنها باد وكمين ، عقود أعنابها قد قرطت آذان الميس (113) والحـور (114) ، وعقائل أدواحها مُبتسمة عن ثغور النور . وسيطها متواضع عن النجد ، مرتفع عن الغور ، وعينها سلسالة ، وسبائك (115) المذانب منها مسالة ، تحمل الى كل جهة رسالة ، ودورها فى العراء مبثوثة **(وركائب النواسم بينها محثوثة)** ، لا تشكو بضيق الجوار ، واستكشاف العوار ، وتزاحم الزوار .

مياه وظلال ، وسحر حلال ، وخلق دمث كثراها ، ومحاسن متعددة كقراها ، ولطافة كنواسمها عند مسراها ، وأعيان ووجوه ، نجل العيون ،

---

(109) فى نسختى (ط ، س) « والفتيات » بدون « لا » .

(110) برجه : هى « Berja » تقع شرق الاندلس ، وتتبع اقليم المرية .

(111) يصح أن يكون اسم المدينة مصحف من « بهجة » ومحرف عن « برج » ، وتقرأ معرفة « البرج » ، وهذا مقصد ابن الخطيب من تعبيره عنها .

(112) دارين : مكان بالبحرين يجلب اليه المسك من الهند ، وينسب اليها . وقد ورد هذا المكان كثيرا فى الاشعار العربية ، قال بعضهم :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم   ويرجعون من دارين بجر الحقائب

(113) الميس : نوع من الشجر . يوصف بضخامة الادواح والغصون .

(114) الحور : نوع من الكروم ينهض على ساق .

(115) فى نسخة (ط) « وسنابك » .

بيض الوجوه ، غلتهم الحرير ، ومجادتهم غنية عن التقرير . الا أن متبوأها بسيط مطروق ، وقاعدتها فروق (116) ، ووتدها مفروق (117) ، ومعقلها خرب ، كأنه أحدب جرب ، ان لم ينقل اليه الماء ، برح به الظماء ، ولله در صاحبنا اذ يقول :

يا بسيطا بمعانى برجه أصبح الحسن به مشتهرا
لا تحرك بفخار مقولا فلقد ألقمت منها حجرا

والبر بها نزر الوجود ، واللحم تلوه وهما طيبتا الوجود ، والحرف (106 : ب) بها ذاوية العود ، والمسلك اليها بعيد الصعود .

11 ـ « دلاية » (118)

قلت : فدلاية ؟

قال خير رعاية وولاية ، حرير ترفع عن الثمن ، وملح يستنفد على الزمن ، ومسرح معروف ، وأرض ينبت بها جبن وخروف . الا أنها لسرايا العدو البحرى مجر العوالى ، ومحل الفتكات على التوالى ، فطريقها صوى (119) ومشاهد ، والعارف ـ فى مثلها ـ زاهد .

---

116) قاعدتها فروق : اى أن أرضها مرضة للغارات ، التى تجعلها جزعة يتملكها الخوف .

117) وتدها مفروق : كناية عن ان مبانيها يفرقها نهر أو واد مثلا ، والتعبير اصطلاح عروضى ، والتورية واضحة .

118) دلاية : هى « Dalias » احدى القرى التابعة لولاية المرية ، تبعد بنحو 9 كم جنوب شرق برجة .

119) صوى : ما يوضع فى الطرق من احجار كعلامات ، وفى نسخ رس ، ط ، ر « هوى » . وقد أوردها « سيمونيت » هكذا ، ولعل الصواب فى نسختنا .

12 ـ « المريـــة » (120)

قلت : فمدينة المريـــة ؟

قال : المرية هنية مرية ، بحرية برية ، أصيلة سرية ، معقل الشموخ والاباية ، ومعدن المال وعنصر الجباية ، وحبوة الاسطول (121) ، غير المعلل بالنصر ولا المطول ، ومحط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تعبق طيبا ، ووجوه لا تعرف تقطيبا ، ولم تزل ، ـ مع الظرف ـ دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامساك .

---

120) المرية « Almaria » مدينة كبيرة جنوب شرق الاندلس ، ومن اجمل الثغور والمدن الاندلسية ، وهى عاصمة الولاية المسماة ، بهذا الاسم ، يبلـــغ سكانها اليوم 85.000 نسمة تقريبا ، واهم صادراتها الحديد والرصـــاص والفاكهة ، وكانت فى العهد الاسلامى من أهم ثغور الاندلس الجنوبية ، بناها الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر عام 344 هـ = 955 م ، وسقطت فى يد الاسبان فى فبراير 1490 م (895) .

راجع : الروض المعطار للحميرى ص 183 ، 184 ، وكذلك ما ذكـــره المستشرق « زيبولد » بدائرة المعارف الاسلامية ، عن وضعية هذه المدينة فى العهد الاسلامى ص 319 (Zeybold, Enc. ISl, I, P. 319)

121) يقصد القاعدة التى هى مرسى الاسطول .

122) فى نسختى (س ، ر) « وانف » وهكذا ورد عند « سيمونيت » ، فلعل الصواب فى نسختنا ، اذ يرمى المؤلف بتعبيره هذا الى ان معظم اسم المدينة يعنـــى « المرارة » التى ذاقها العدو فانقلب عنها .

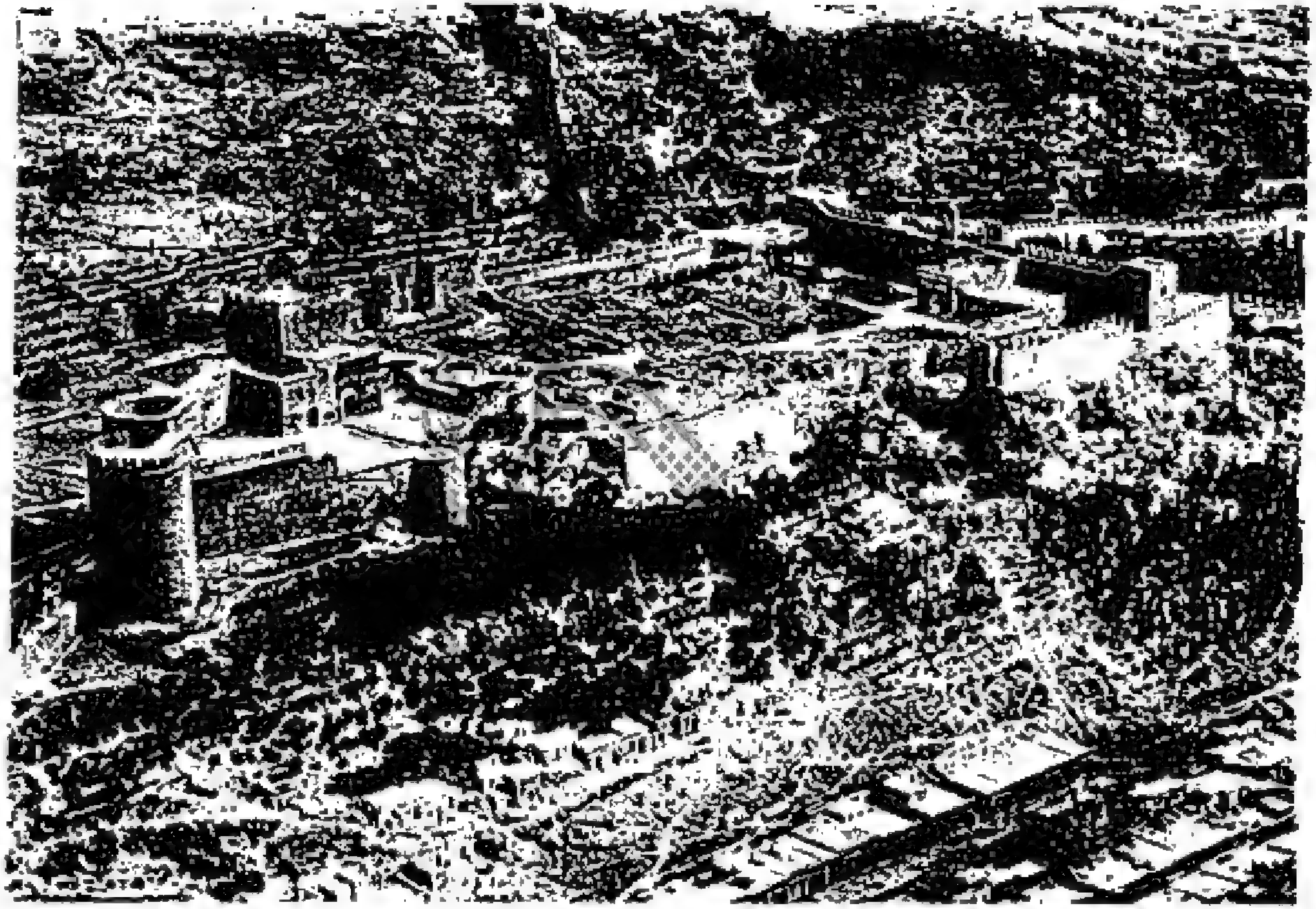

صورة للقصبة العربية من الجو

أرغم أهلها أنف الصليب ، لما عجم منها بالعود الصليب ، وألف (122) لامها والفها حكم التغليب ، فانقلب منها آيسا (123) عند التغليب :

يسأل عن أهل المرية سائل
وكيف ثبات القوم والروع باسر

(107 : أ) قطا دارج فى الرمل فى يوم لذة
ولهو ، ويوم الروع فتخ كواسر (114)

بحرها مرفأ السفن الكبار ، وكرسيها هو العزيز عند الاعتبار ، وقصبتها سلوة الحزين ، ومودع الخزين ، وفلك المتنزين . وهى محل الظل (125) المجدية ، والاندية (126) المشفوعة الاردية ، ولواديها المزية على الاودية . حجة الناظر المفتون ، المكسو الغصون (127) والمتون ، بالاعناب والزيتون .

---

123) ينبغى ان نشير هنا الى هذه المؤامرة السرية الخطيرة التى تمت بين قشتالة واراجون على غزو مملكة غرناطة فى آن واحد عام 1309م (709هـ) . وتتلخص هذه المؤامرة فى ان تهاجم الجيوش القشتالية مدينة الجزيرة الخضراء Algociras بالجنوب ، بينما تهاجم الاساطيل الارجونية ثغور المرية من الشرق ، ويتابع الطرفان هجومهما حتى يتقابلا فى غرناطة نفسها ، وقد تعرضت مدن اندلسية كثيرة لشر هذا الاتفاق ، وكانت المرية اكثر المدن ابتلاء بهذا الهجوم ، وقد فشل المشروع الهجومى بصمود هذه المدن .
انظر : ابن القاضى فى « درة الحجال فى غرة اسماء الرجال » ج 1 ص : 71 وما بعدها ، نشر علوش . الرباط 1934 م ، وقد ترجم النص الى عدة لغات، منها ترجمة اسبانية لسانشث البرانث فى :
Sachez, Alboramez, La España Musulmana, P. 386-392.

124) فتخ : الاسد ذوات الكف العريض .

125) فى نسختى (س ، ط) « والحلل » .

126) فى نسخة (ط) « والاردية » .

127) فى نسخة (ط) « الخصور » .

بلد الخام (128) ، والرخام ، والذمم الضخام ، وحمتها (129) بديعة الوصف ، محكمة الوصف ، مقصودة للملاج والقصف . حرها شديد، وذكرها طويل مديد ، وأثرها على البلى (130) جديد . الا أن مغارمها ثقيلة ، وصفحة جوها – فى انمحول – صقيلة ، وسماؤها بخيلة ، وبروقها لا تصدق منها مخيلة ، وبالة النطية منزورة العطية ، وسعرها من الاسعار غير الوطية . ومعشوق البر بها قليل الوصال ، وحمل البحر صعب الفصال (131) ، وهى متوقعة الا أن يقى الله طلوع النضال ، وعادة العصال (132) .

13 – « طبرنش » (133)

قلت : فطبرنش ، من شرقيها ؟

قال : حاضرة البلاد الشرقية (134) ، وثنية البارقة الافقية . ما شئت من تنجيد بيت ، وعصير زيت (135) ، (107 : ب) واحياء أنس

---

128) فى نسختى (ط ، ر) « الكتان » نفى نسختنا أمم .

129) حمتها : لا يقصد بلدة الحامة « Alhama » التى سيفرد ابن الخطيب لها وصفا خاصا بها بعد قليل . وانما يقصد العين الحارة الخاصة بالمرية ، وذلك خلافا لما ذكر د. العبادى فى « المشاهدات » .

130) فى نسخة (ر ، س) « البلاد » ، وقد أوردها « سيمونيت » كذلك ، ولعلها فى نسختنا أصوب .

131) فى نسختى (ر ، ط) « العضال » وقد أوردها « سيمونيت » كذلك ، ولعل الصواب فى نسختنا ، فهو يعنى أن حمل السفن من قمح وخلافه صعب النصال ، وهو كناية عن قلة البر وغلاؤه .

132) العصال : الكتاح .

133) طبرنش : هى « Tabernas » وتعنى باللاتينية : حوانيت وأكواخ . أنظر : سيمونيت فى تحقيقه . Simonet. O.P. Cit, P. 103

134) فى نسخة أخرى « البلاد المشرقية » .

135) فى نسخة (س) « وعصر الزيت » .

ميت ، وحمام طيب ، وشعب تنثر فيه دنانير أبى الطيب (136) . الا أنها محيلة الغيوث ، عادية الليوث ، متحزبة الاحزاب (137) شرهة الاعزاب . ولو شكر — الغيث — شعيرها ، أخصبت — البلاد — عيرها .

14 — « بيـــــرة » (138)

قلت : فبيـــرة ؟

قال : بلدة صافية الجو ، رحيبة الدو (139) ، يسرح بها البعير ، ويجم بها الشعير ، ويقصدها — من مرسية وأحوازها — العير ، فساكنها بين تجر وابتغاء أجر ، وواديها نيلى الفيوض والمدود ، مصرى التخـوم والحدود ، ان بلغ الى الحد المحدود ، فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود . الا أنها قليلة المطر ، مقيمة على الخطر ، مثلومة الاعراض والاسوار ، مهطعة لداعى البوار ، حليفة حسن مغلوب ، معللة بالماء المجلوب ، آخـذة باكظام القلوب ، خاملة الدور ، قليلة الوجوه والصدور ، كثيرة المشاجرة والشرور ، برها أنذر من برها فى المعتمر والبور ، وزهد أهلها فى الصلاة

---

136) يرمى بذلك الى وصف المتنبى (303 — 354 هـ/915 — 965 م)الشعب بوان، فى تساقط اشعة الشمس من خلال الاوراق على الارض ، وكانها الدنانير ، وشعب بوان هو مكان بفارس قرب شيراز ، يوصف بكثرة المياه والاشجار . قال المتنبى فى وصفه :

غدونا تنفض الاغصان فيـــه　　على اعرافها مثل الجمـــان
فسرت وقد حجبن الشمس عنى　　وجئن من الضياء بما كفانـــى
والقى الشرق منهـا فى ثيابـى　　دنانيـــر تفـر من البنـــان

راجع : العرف الطيب — لليازجى ج 7 ص 603 — 612 .

137) فى نسختى (ر ، س) « شريفة » فلعل الصواب فى نسختنا .

138) بيرة : هى بالاسبانية « Vera » تقع شمال شرق مملكة غرناطة ، وهى بلدة مرتفعة ، على ساحل البحر الابيض المتوسط ، مما اكسبها أهميتها الحربية .

139) الدو : الفضاء خارج المدينة .

شائع فى الجمهور ، وسوء ملكة الاسرى من الذائع (بها) (140) والمشهور .

(ما قام خيرك يا زمان بشره   اولى‌لنا ما قل منكوما كفى) (141)

15 ـ « مجاقر » (142)

قلت : فمجاقر ؟

قال : حصن جديد ، وخير مديد ، وبحر ما على افادته مزيد ، (وخصب ثابت ويزيد) (143) . ساكنه قد قضى ـ الحج ـ أكثره ، وظهر (108 : أ) عين الخير فيه وأثره ، الا أنه لا تلفى ـ به ـ للماء بلالة ، ولا تستشف للجود علالة .

16 ـ « قنتورية » (144)

قلت : فقنتورية ؟

قال يسار يمينها ، وغبار كمينها ، ومعمول يمينها ، يجود بها الجبن والعسل ، ومن دونها الاسل (145) ، وأما عن الخبز فلا تسل . وان كانت أحسن شكلا ، فاقل شربا وأكلا ، وأجفا أهلا ، وأشد جهلا ، وأعدم علا

---

140) زيادة فى « س » .

141) هذا البيت ورد فى النسخ الاخرى ، واثبته « سيمونيت »
Simonet OP. Cit. P. 112

142) مجاقر : هى بالاسبانية « Mojacar » احدى قرى الاندلس الصغيرة ، مما زالت حتى اليوم ، وما زال نساؤها حتى الآن يرتدين الحجاب .

143) زيادة فى « س ، ط » .

144) قنتورية : هى « Cantoria » تقع جنوب « برشانة » على نهر المنصورة .

145) كناية من بخل اهلها ، بدليل ما ذكره بعدئذ .

ونهلا ، وأهلها شرار ، أضلعهم بالظماء (146) حرار . لا تلفى بها نغبة (147) ماء ، ولا تعدم (148) مشقة ظماء ، ولا تتوج أفقها الا فى الندرة قزعة سماء .

17 — « برشانة » (149)

قلت : فبرشانة ؟

قال : حصن مانع ، وجناب يانع ، أهلها أولو عداوة لاخلاق البداوة ، وعلى وجوههم نضرة وفى أيديهم نداوة ، يداوون بالسلافة (150) علل الجلافة ، **(ويؤثرون علل التخلف على لذة الخلافة)** (151) ، فأصبح ربعهم ظرفا ، قد ملىء ظرفا ، فللمجون به بسوق ، وللفسوق ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق . وهى تبين بعض بيان عن أعيان ، وعلى وجوه نسوانها طلاقة ، وفى ألسنتهم ذلاقة ، ولهن بالسفارة (152) فى الفقراء علاقة . (153) الا أن جفنها ليس بذى سور يقيه مما يتقيه ، ووغدها يتكلم بملىء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجور فيه .

---

146) فى نسختى (س ، ر) « بالظما » وهكذا أوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

147) النغبة : بالتشديد مع الفتح او الضم ، بمعنى الجرعة من الماء .

148) فى نسخة (س) « ولا يعدم » .

149) هى« Purchena وتقع على نهر المنصورة ، تتبع ولاية « المرية » ، ويوجد مكان آخر بهذا الاسم بولاية « جيان » .
انظر « الروض المعطار » للحميرى ص 52 حاشية 1 .

150) السلافة : افضل انواع الخمر ، اذ هى السائل قبل العصير

151) هذه العبارة زائدة فى النسخ الاخرى ، والعلل هو الشرب للخمر المرة تلو المرة ، فأهل المدينة يؤثرون ذلك على لذة الملك .

152) فى نسختى (س ، ر) « عن » ، وهو اصوبه وانسبه .

153) كناية عن اشتغال بعض نسائها بالقوادة .

18 ــ « اوريــــة » (153)

قلت : فاوريــة ؟ (108 : ب) .

قال : بلد الجبن والعسل (154) ، والهواء الذي يذهب بالكسل ، وأما عن الماء البرود فلا تسل . ادامه الصيد الذى لا يتعذر ، وقوته الشعيــر الذى يبــذر . الا أنه بادى الوحشـــة والانقطـــاع ، والاجابـــة لداعــى المخالفة (155) والاهطاع (156) . وحش الجناب (157) ، عرى من ثمرات النخيل والاعناب ، حقيق لمعرة العدو والاجتناب .

19 ــ « بليــش الشقــراء » (158)

قلت :فبليــــش ؟

قال : ثغر قصى ، وقياد (159) ــ على الامن ــ عصى ، ويتيم ليس عليه ــ غير العدو ــ وصى . ماؤه معين ، وحوره عين ، وخلوته ــ علــى النسك وسواه ــ تعين . وبه الحمام ، والنطف الجمام (160) ، ولاهله بالصيادة اهتمام ، وعسله ــ اذا اضطفت العسول ــ امــــام . الا أنها

---

153) هى المعروفة اليوم باسم « Oria » بولاية المرية .

154) فى النسخ الاخرى « بلدة » .

155) فى نسخة اخرى « المخالفة » .

156) الاهطاع : الاسراع فى خوف .

157) فى نسختى (س ، ر) « وحسن » هكذا اوردها « سيمونيت » ، وهو مـــا يتناسب مع السياق العام للوصف .

158) هى « Velez Rubio » تقــع قــرب مدينة « لورقــة » ، علاوة علــى « بليش البيضاء » Y en sun proximidales Velez Blanec كما توجد بليش اخرى تدعى « Velez Malaga » وهى قرب « مالقــة » .

159) فى النسخ الاخرى بحذف « وقياد » .

160) النطف الجمام : الماء الكثير .

بسطة غرناطة

منظر عام للمدينة

بلدة منقطعة بائنة ، وبأحواز العدو كائنة ، ولحدود لورقة (161) ــ فتحها الله ــ مشاهدة معاينة . وبرها الزهيد القليل يتحف به العليل ، وسبيل الامن اليها غير سبيل ، ومرعاها ــ لسوء الجوار ــ وبيل .

20 ــ « بسطة » (162)

قلت : فمدينة بسطة ؟

قال : وما بسطة ! بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمها نصيب ، دوحها متهدل ، (163) وطيب هوائها غير متبدل ، وناهيك من بلد اختص أهله فى معالجة الزعفران ، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران . عمت ــ أرضها ــ السقيا فلا تخلف ، وشملتها البركة يختص الله (164) 109 : أ) من يشاء ويزلف ، يتخلل ــ مدينتها ــ الجدول المتدافع ، والناقع للغلل (165) النافع . ثياب أهلها بالعبير تتأرج ، وحورها تتجلى وتتبرج وولدانها ــ فى شط انهارها المتعددة ــ تتفرج . ولها الفحص الذى يسافر فيه الطرف سعيا ، ولا تعدم السائمة به ريا ولا رعيا ، ولله در القائل :

الجانى الدهر الى عالم يؤخذ منه العلم والدين (166)
فى بلدة عوذت نفسى بها اذ فى اسمها طه وياسين

---

(161) لورقة : مدينة تبعد عن مرسية بنحو60كم على مرتفع جبلى، فهى قلعة مرسية فى الحروب الاسلامية النصرانية ، وقد سقطت لورقة هذه فى يد الاسبان عام 1248 م (645 هـ) .
راجع : الروض المعطار ص 171 .

(162) بسطة : تعرف الآن فى الاسبانية باسم « Baza » تقع شمال شرق غرناطة بنحو 25 كم .

(163) فى نسختى (ص ، ر) « متدل » .

(164) فى نسختى (ط ، ر) « تختص » .

(165) فى نسخة (ط) « للغلل » .

(166) فى نسخة (ط) يتأخر البيت الاول عن الثانى ، وهو ما لا يتناسب والسياق العام ، وهكذا أوردها سيمونيت دون اشارة الى نسختنا .

الا أن ترتبها تفضح البناء ، وان صحبة الاعتناء ، فأسوارها تسجد عند الاقامة ، وخندقها ــ لاكسارها ــ تلقامة ، فهى ــ لذلك ــ غير دار (167) مقامة ، ورياحها عاصفة ، ورعودها قاصفة ؛ وحاميتها تنظر الى الهياج ، من خلف سياج ، فالعدو فيها شديد الفتكات ، ممل الحركات ، وساكنها دائم الشكات ، وحدها فليل ، وأعيانها قليل (168) ، وعزيزها ــ لتوقع المكروه ــ ذليل .

21 ــ « أشكر » (169)

قلت : فأشكر ؟

قال : نعم البسيط المديد ، والرزق الجديد ، والتقى (170) المديد ، والصيد والقديد (171) ، تركب الجداول فحصها ، ويابى الكمال نقصها ، ويلازم ظل الخصب شخصها . مسرح البهائم ، ومعدن الرعى الدائم . الا أن معقلها لا يمنع ، ومكانها يحوم عليه (109 : ب) الحادث الاشنع ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يصنع .

---

167) فى نسخة (ط) « خير » ، وهو ما لا يتناسب والسياق العام لوصف طبيعة البلد ، وقد أوردها سيمونيت كذلك مخالفة لنسختنا .

168) هذه الجملة زائدة فى نسختنا ، دون النسخ الاخرى .

169) اشكر : هى « Huescar تتبع ولاية غرناطة ، موقعها شمال بسطة ، ويشير « سيمونيت » عند ذكر هذه المدينة الى المنازعات التى كانت بين المسلمين والنصارى أيام ابن الخطيب .
راجع : Simonet. OP. Cit. p. 63

170) فى نسخة (ط) « والسمن » .

171) فى نسختى (ر ، س) « القديد » بدون الواو .

22 ـ « أنـــــدرش » (172)

قلـت : فـأنـــدرش ؟

قال : عنصر جباية ، ووطن بهم (173) أولو ابابة ، حريرها ذهب ، وتربها تبر منتهب (174) ، وماؤها سلسل ، وهواؤها لا يلغى معه كسل . الا أنها ضيقة الاحواز والجهات ، كثيرة المعابر والفوهات . أعرابها أولو استطالة ، وابناء مترفيها كثيرو البطالة ، فلا يعدم ذو الزرع عدوانا ، ولا يفقد عير الشر نزوانا ، وطريقها غير سوى ، وساكنها ضعيف يشكو من قوى .

23 ـ « شبالــش » (175)

قلت : فشبالــش ؟

قال : معدن حرير خلصت سبائكه ، وأثرى بزازه وحائكه ، وتهدلت حجاله وتمهدت آرائكه ، وجباية سهل اقتضاؤها ، وجمت بيضاؤها . الا

---

(172) اندرش : هى « Andorax » تتبع المرية ، مدينة صغيرة ، توجد الآن قسرب ولايتها ، واسمها يطلق على نهر هناك ينبع من جبل الثلج Sierra Nevada ويصب فى البحر الابيض المتوسط .

(173) فى نسخة (ر) « به » بدل « بهم » ، والبهم بضم ففتح ج بهمة ، وهو الشجاع، يقول البوصيرى :

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا   فما تفرق بين البهم والبهم

(174) فى نسختى (س ، ر) « ملتهب » هكذا أوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

(175) فى نسخة (ط ، ر) « الفرج » ، هكذا أوردها سيمونيت ، وهو ما لايتناسبه والسياق ، فلعل الصواب فى نسختنا .

(175) تسمى بالاسبانية« Jubles »موقعها بأطراف جبل الثلج« Sierra Nevada » وكانت عبارة من حصن فى العصور الاسلامية ، وقد تحدث « سيمونيت » عن هذا الحصن واهميته فى الحروب الاهلية ، التى كانت تنشب فى غرناطة على مر عصورها الاسلامية المختلفة .

راجع فى هذا : « سيمونيت » ص 102 .

أنه وطن عدم ادامه ، وبيت ظهر اهتدامه ، وفقدت به حيل التعيش وأسبابه ، ومحل لا يقيم به الا أربابه .

24 — « وادى آش » (176)

قلت : فمدينة وادى آش ؟

قال : مدينة الوطن ، ومناخ من عبر أو قطن ، للناس ما بدأ (177) ولله ما بطن . وضع سديد ، وبأس شديد ، ومعدن حديد ، ومحل عدة وعديد ، وبلد لا يعتل فيه الا النسيم ، ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم . كثيرة الجداول والمذانب ، مخضرة الجوانب . الى (110 : أ) الفواكه الكثيرة ، والكروم الاثيرة ، والسقى الذى يسد الخلة ، ويضاعف الغلة . وسندها معدن الحديد والحرير ، ومعقلها أهل للتاج والسرير . وهى دار أحساب ، وارث واكتساب ، وأدب وحساب . وماؤها مجاج الجليد ، وهواؤها يذكى طبع البليد . الا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش ، وناقهها يتعذر عليه الانتعاش ، وشيخها يسطو على عصبة الارتعاش (178) . فهى ذات برد ، وعكس وطرد ، ما شئت من لحى راعد ، ومقرور على الجمر قاعد ، ونفس صاعد ، وفتنة يعد بها واعد ، وشرور تسل الخناجر ، وفاجر يسطو بفاجر ، وكلف بهاجر (179) ، واغتمام تبلغ به القلوب الحناجر ، وزمهرير تجمد له المياه فى ناجر شهر (180) . وعلى ذلك فدرتها

---

176) وادى آش : هى« Guadix تقع شمال شرق غرناطة ، على نهر « فردس » وتبعد عن غرناطة بنحو 55 كم .
راجع : الحميرى فى : « الروض المعطار » ص 192 — 193 نشر ليفى بروفنسال

177) فى نسخة (ط) « ما ظهر » .

178) فى نسختى (ط ، س) « وشيخها يخطو على عصبة الارتعاش » .

179) الهاجر : الفحش والبذىء من القول .

180) شهر ناجر : كل شهر من شهور الصيف ، لان الابل تنجر فيه اى تعطش .

أسمح (181) للحالب ، ونشيدتها أقرب للطالب ، ومحاسنها أغلب والحكم للغالب .

25 ـ « فنيانة » (182)

قلت : ففنيانة ؟

قال : مدينة ، وللخير خدينة ، ما شئت من ظبى غرير ، وعضب طرير (183) ، وغلة وحرير ، وماء نمير ، ودوام للخزين (184) وتعمير . الا أن بردها كثير ، وودقها نثير ، وشرارها لهم فى الخيار تأثير .

26 ـ « مدينة غرناطة » (185)

قلت : نمدينة غرناطة ؟

قال : حضرة سنية ، والشمس (بها)عن مدح المادح غنية ،

---

(181) فى نسختى (س ، ر) « اسمح » وهكذا اوردها « سيمونيت » ، ولكنها فى نسختنا اصوب

(182) هى « Finana » تقع ضمن مقاطعة المرية على مسافة 30 كم . جنوب شرق وادى آش .
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ، ص 172 حاشية 2 .

(183) عضب طرير : سيف ذى حد مرهف .

(184) فى نسختى (س ، ر) « للتخزين » .

(185) هى Granada ومعناها « الرمانة » ، وهى شعارها التاريخى ، تقع فى واد عميق ، يمتد من المنحدر الشمالى الغربى لجبال « سييرانيفادا » ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادي الكبير ، ويخترق فرعه « حدره » المدينة من الوسط ، والى يمينه يقع حى البيازين ، ومعظم المدينة الحديثة ، وتقع قصبة الحمراء فى الناحية الاخرى . وقد سقطت غرناطة بالتسليم فى يد الملكين الكاثوليكيين « فرناندو وايزابيلا » فى 2 يناير 1492 م (2 ربيع الاول 897 هـ). وهى خاتمة الفتوح التى توجت حروب الاسترداد la Reconquista لذلك تحظى

غرناطة

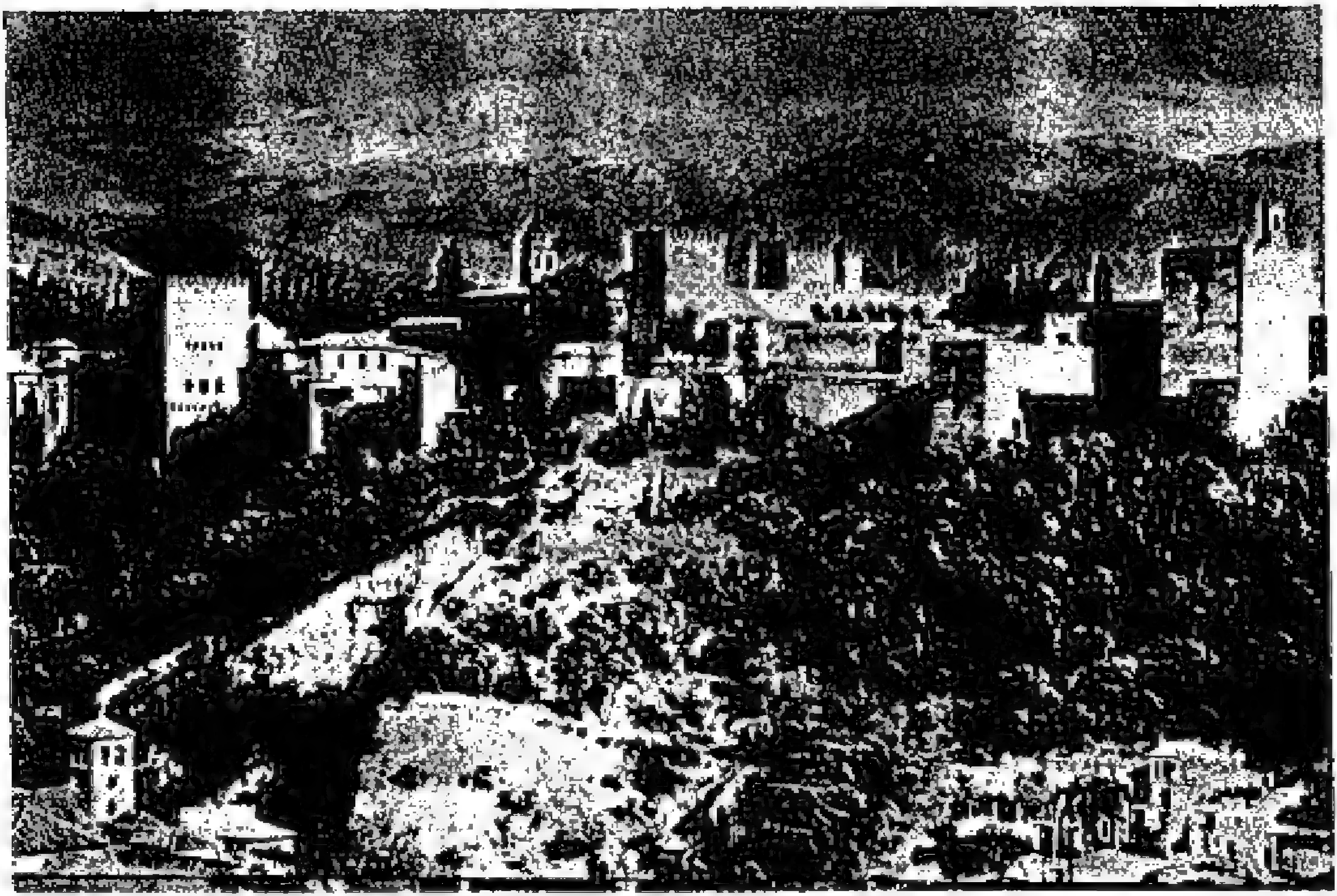

الحمراء وقلعتها

كبرت عن قيل وقال ، وجلت عن (110 : ب) وامق (186) وقال (187) ، وقيدت العقل بعقال ، وأمنت حال حسنها من انتقال . لو خيرت فى حسن الوضع لما زادت وصفا ، ولا أحكمت رصفا ، ولا أخرجت

غرناطة بمنزلة خاصة فى نفوس الاسبان ، وفى التاريخ الاسبانى كذلك ، فهى المرقد الابدي لفاتحيها الكاثوليكيين ، كما حباها ملوك اسبانيا بعنايتهم ، وفى مقدمتهم الامبراطور « شارلكان » الذى اسس جامعتها الشهيرة . وغرناطة اليوم ولاية ومدينة ، فكونها ولاية تشغل مساحة قدرها 5.000 ميل مربع يحدها البحر من الجنوب ، ومن الشمال ولايات قرطبة وجيان ، ومن المشرق ولايتا المرية ومرسية ، ومن الغرب ولاية مالقة ، وتخترقها وتظللها جبال الثلج « سييرانيفادا » ويرويها كل من نهر الوداى الكبير وفرعه نهر شنيل ، وجوها جار ، ولاسيما فى الوديان المنخفضة ، وباردة فى التلال ، وتربتها خصبة جدا ، ولاسيما فى المغرب والجنوب ، ويبلغ سكان الولاية 1.500.000 نسمة تقريبا ، ويتبعها من المدن : وادى آش ، واشكر ، ومترايل ، والحامة ، وسنتاق ، ولوشه ، وحصن اللوز ، ومونتى فريو ، واجيجر ، وبسطة ، والمنكب ، وارجبة ، وشلوبانية . وغرناطة العاصمة حاليا ثلاثة اقسام ، هى : انتكيريلا ، وغرناطة ، والبيازين . وهى مدينة زراعية صناعية ، ويبلغ عدد سكانها اليوم حوالى 170.000 نسمة ، وتمتاز بكثرة منشآتها العلمية والفنية ، وقد تأسست جامعتها عام 1531 م فى عصر الامبراطور شارلكان ، وقد بارك المشروع « البابا كليمنت السابع » واصدر مرسوما بانشاء الجامعة التى تشتمل على كليات ، هى : الفلسفة والاداب ، والعلوم ، والحقوق والطب ، والصيدلة . ويلحق بكلية الاداب — معهدان هما : معهد تاريخ الملكين الكاثوليكيين ، وقد انشىء عام 1943 م ، والثانى مدرسة الابحاث العربية بغرناطة ، والتى تعمل بالتعاون مع مدرسة « بيجيل آسن » للدراسات العربية بمدريد ، ويصدران معا « مجلة الاندلس » ، وبغرناطة عدة متاحف ، منها متحف الحمراء ، والمتحف الاثرى ، ومتحف البلدية . أما المعالم والآثار الاندلسية الباقية فهى : الحمراء ، وحى البيازين ، وميدان باب الرملة ، والقيسرية ، والمدرسة ، والفان ، والابواب والاسوار ، وقصر شنيل .

راجع : رحلة ابن بطوطة لهذه المدينة ، ج 2 ص 1187 ، 68 — 27 ، وكذا :
Simonet, OP. Cit.

(186) الوامق : المحب .

(187) القال : الكاره .

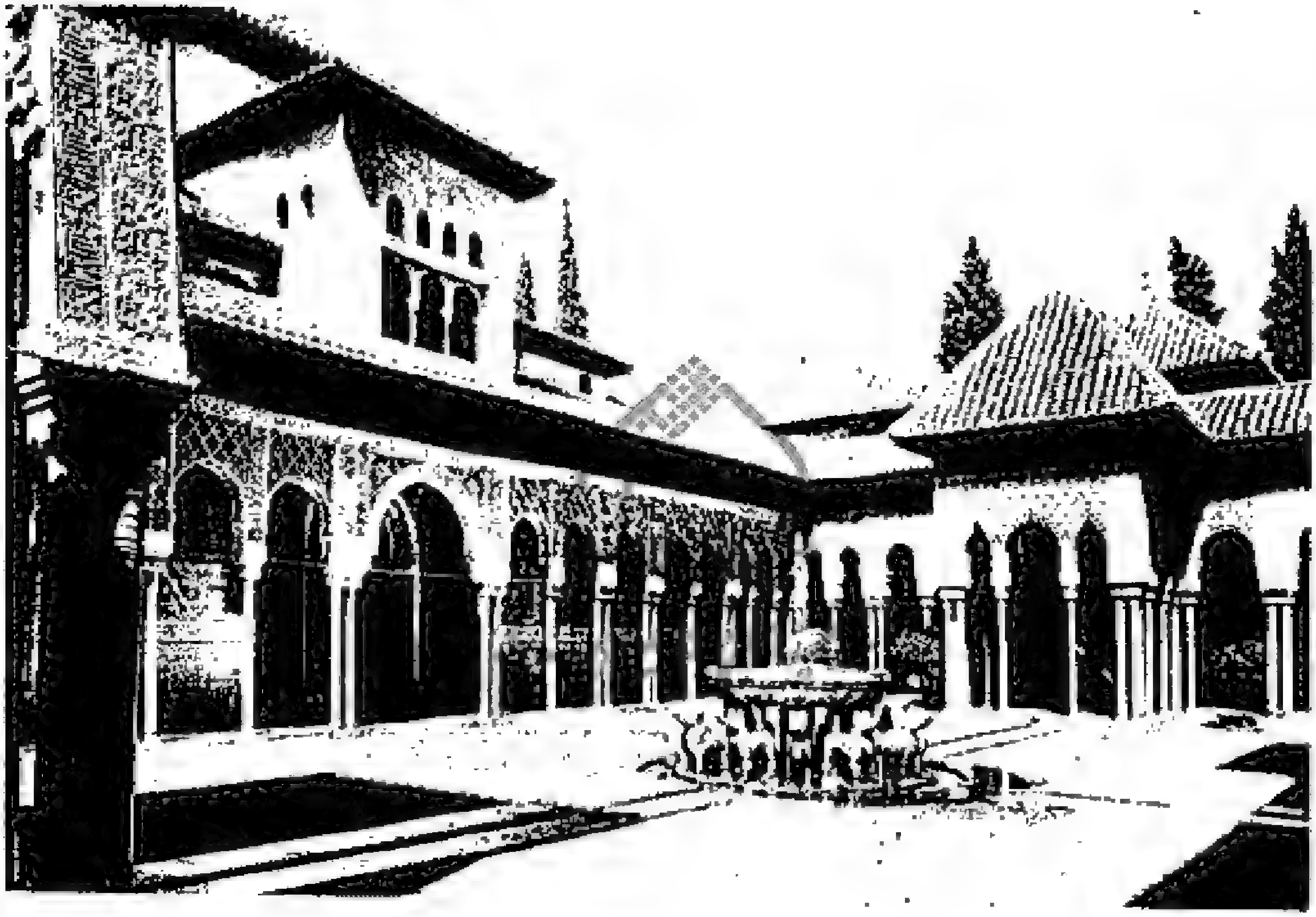

فناء الاسود (قصر الحمراء)

أرضها ريحانا ولا عصفا (188) ، ولا أخذت بأشتات المذاهب ، وأصناف المواهب جداً و (لا) قصفا . كرسيها ظاهر الاشراف، مطل على الاطراف، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف ، وهواؤها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت ــ الجنوب عنها ــ الجبال ، فامن (189) الوباء والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال، وفى جنه من النبال، وانفسحت للشمال (190) ، واستوفت الشروط على الكمال ، وانحدر منها مجاج الجليد على الرمال . وانبسط ــ بين يديها ــ المرج الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تفلى بها مفارقه . ريع من واديه بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطه تلها للجبين ، وولدت حيات المذانب عن الشمال واليمين (191) ، وقلد منها اللبات سلوكا تاتى (192) من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مفترة ، والحياة الدنيا ــ بزخرفها ــ مغترة .

أى واد أفاض من عرفات
فوق حمرائها أتم أفاضة

(111 : أ) ثم لما استقر بالسهل يجرى
شق منها بحلة فضفاضة

كلما انساب كان عضبا صقيلا
واذا ما استدار كان مفاضة (193)

---

(188) العصف : ورق الزرع .
(189) فى نسخة (س) « فأمنت » .
(190) الشمال : رياح الشمال .
(191) فى نسخة (س) « وولد حيات المذانب تاتى من الشمال واليمين » .
(192) فى نسختى (ر ، س) « تاثر » ، وهكذا اوردها سيمونيت ، والصواب فى نسختنا .
(193) مفاضة : درع .

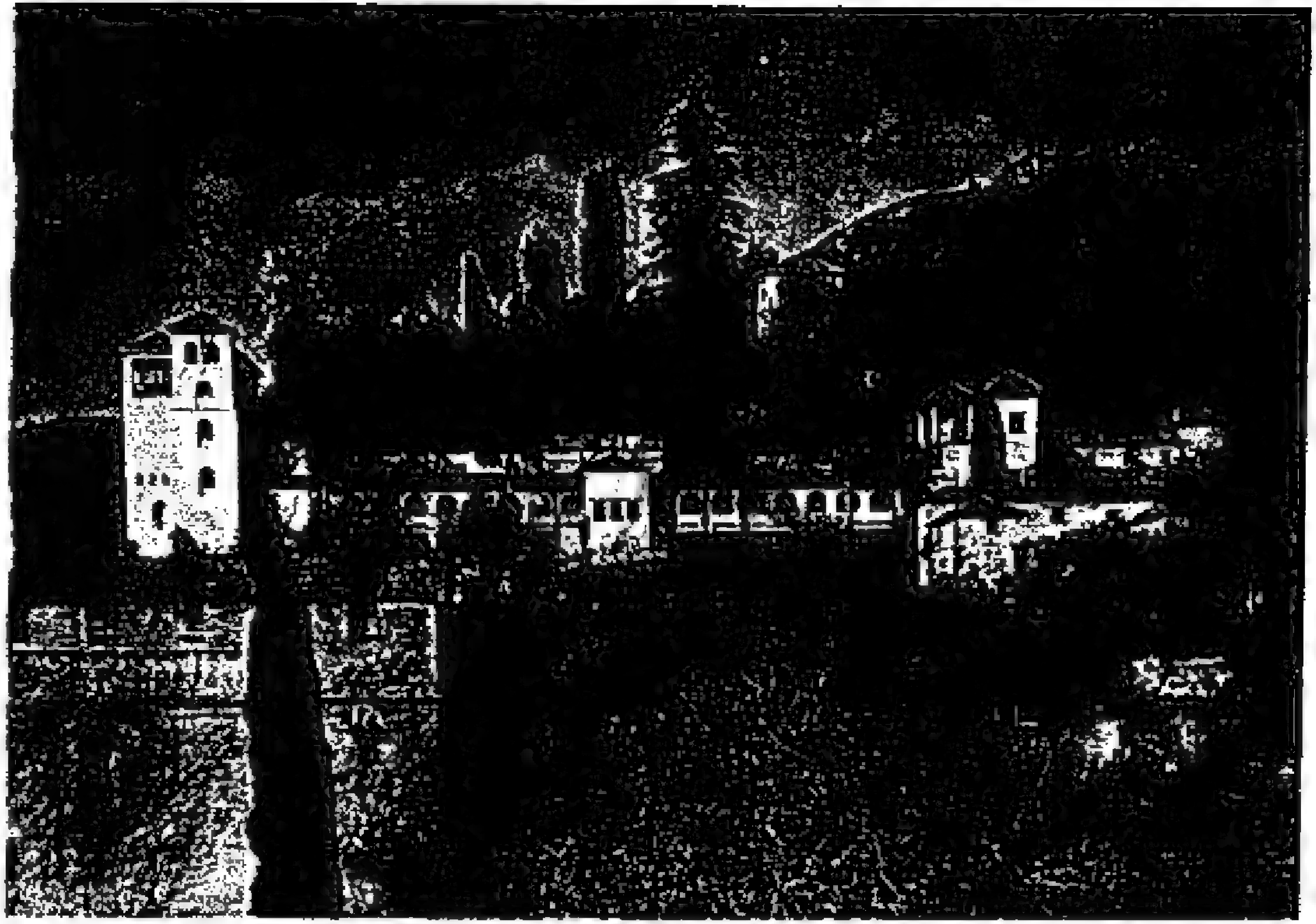

قصر جنة العريف من الخارج
(الحمراء)

فتعددت القرى والجنات ، وحفت — بالامهات منها — البنات ، ورف النبات ، وتدبجت الجنبات ، وتقلدت اللبات ، وطابت بالنواسم المهبات ، ودارت بالاسوار دور السوار المنى والمستخلصات ، ونصبت — لعرائس الروض — المنصات ، وقعد سلطان الربيع لعرض القصات ، وخطب بلبل الدوح فوجب الانصات ، وتموجت الاعناب ، واستبحر — بكل عذب الجنا — منها الجناب ، وزينت السماء الدنيا من الابراج انعديدة بأبراج ، ذات دقائق وأدراج ، وتنفست الرياح عن أراج ، أذكرت الجنة كل امل ما عند الله وراج .

وتبرجت بحمرائها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات ، سافرة عن صفحات القبات المزخرفات . تقذف — بالانهار من بعد المرتقى — فيوض بحورها الزرق ، وتناغى — أذكار المآذن بأسمارها — نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهلة ، وربت من ملوك جلة ، الى بحر التمدن (194) المحيط الاستدارة ، الصادر عن الاحكام والادارة ، ذى المحاسن غير المعارة ، المعجزة لسان (111 : ب) الكناية والاستعارة ، حيث المساجد العتيقة القديمة ، والميازب الحافظة للرى المديمة ، والجسور العريضة ، والعوائد المقدرة (**تقدير الفريضة ، والاسواق المرقومة الاطواق**) (195) بنفائس الاذواق ، والوجوه الزهر ، والبشرات الرقاق ، والزى الذى فاق زى الآفاق ، وملأ قلوب المؤمنين بالاشفاق :

بلد جللها الله حسنا وسنى
وأجر السعد من حل لديها رسنا

---

194) وردت هذه العبارة فى نسختى (ط ، ر) هكذا : « الى التمدين المحيط الاستدارة » كما اوردها بهذا سيمونيت ، ولعلها فى نسختنا اوفى

195) هذه الزيادة بين القوسين وجدتها فى نسختنا فقط .

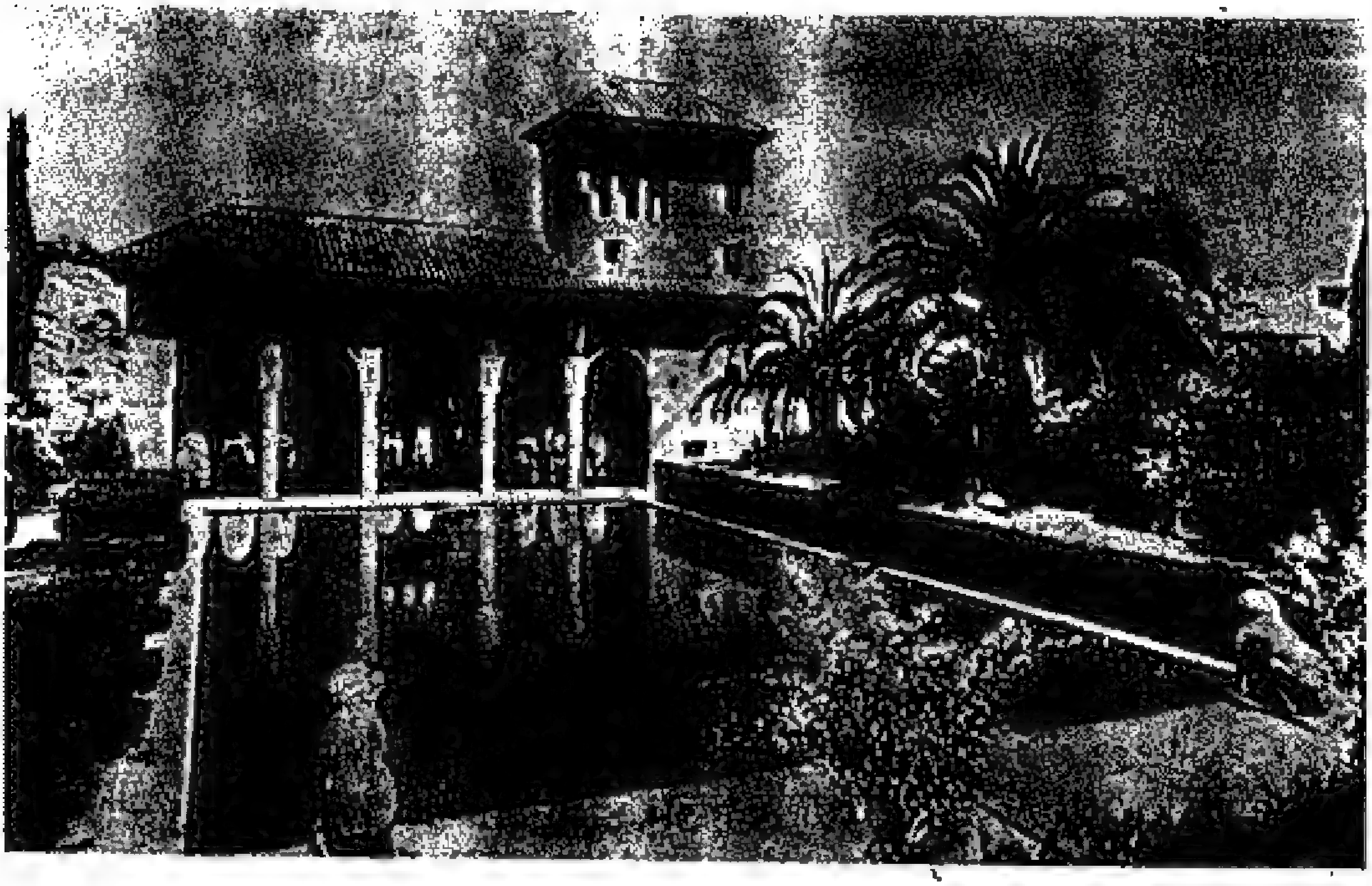

بركة البرطل
(الحمراء)

قد أجنت سكرا جما ورزقا حسنا
أعجزت عن (196) منتهى الفخر البعيد السنا(197)

يروقك فى أطرافها حسن الصور وجمالها ، وظرف (198) الصنائع وكمالها ، والفعلة وأعمالها ، حتى الاطلال وانهما لها ، والسؤال واسمالها (199) :

كل عليه من المحاسن لمحة   فى كل طور للوجود تطورا
كالروض يعجب فى ابتداء نباته   واذا استجم به النبات ونورا
واذا الجمال المطلق استشهدته   ألغيت ما انتحل الخيال وزورا

(112 : أ) ثم قال : أى أمن (200) عرى من مخافة ، وأى حصافة لا تقابلها سخافة ، ولكل شىء آفة . لكنها — والله — بردها يطفىء حر الحياة ، ويمنع الشفاه عن رد التحيات ، وأسعارها يشعر معيارها بالترهات (201) ، وعدوها يعاطى كئوس الحرب فهاك (202) وهات . الى السكك التى بان خمولها ؟ ولم يقبل الموضوع محمولها ، والكرب الذى يجده الانسان فيها ، صادف اضافة أو ترفيها ، والمكوس التى تطرد البركة وتنفيها . الى سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونزالة الديار ، وغلاء الخشب والجيار ، وكساد المعايش عند الاضطرار ، واهانة المقابر وهى دار

---

196) فى نسخة (ر ، ى) « من » .

197) فى نسخة (ط) « السعيد لسنا » ، ولكن هذا الشطر الاخير يناسبه ما ورد فى نسختنا ، حيث يستقيم به المعنى .

198) فى نسخة اخرى « وطرفة » .

199) السؤال : ج سائل . والاسمال : البالى من الثياب ، وهى مبالغة تكاد تكون غير معقولة .

200) فى نسخة (س) « آمن » .

201) الترهات : ج ترهة ، وهى الاباطيل .

202) فى نسخة (ط) « بهاك » .

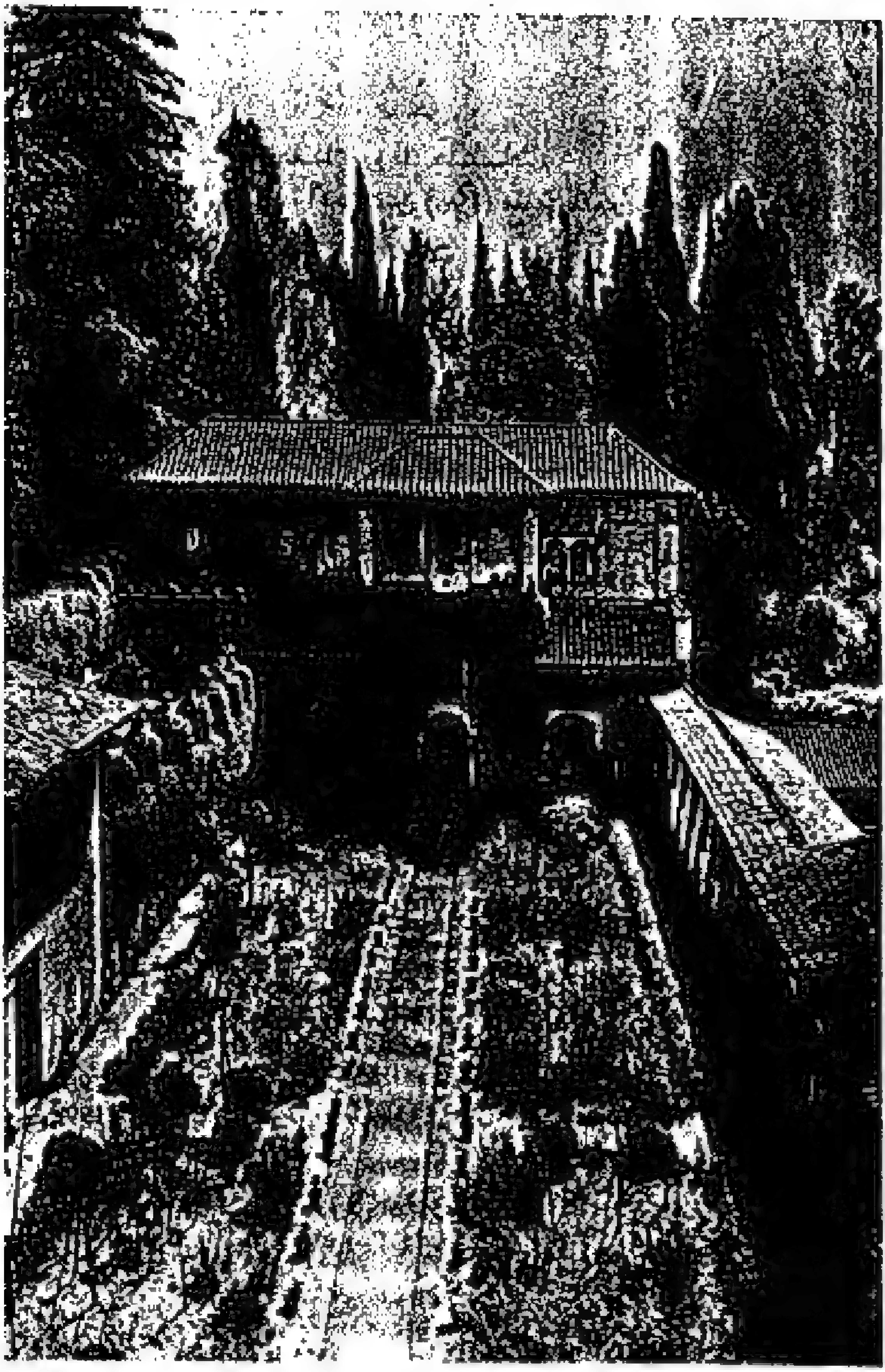

جنة العريف
(الحمراء)

القرار ، وقصر الاعمار ، واستحلال الغيبة فى الاسمار ، واحتقار أولى الفضل والوقار ، والتنافس فى العقار ، والشح فى الدرهم والدينار ، باليم والنار (203) .

ثم قال : اللهم غفرا ، وان لم نقل كفرا ، « أن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (204) » . ولله در أبى العتاهية (205) حين يقول :

أصبحت الدنيا ــ لنا فتنة   والحمد لله على ذالكا
اجتمع الناس على ذمها   وما نرى ــ منهم لها ــ تاركا

---

203) فى نسختى (س ، ر) « واليم » وهكذا أوردها « سيموتيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

204) آية : 48 من سورة النساء .

205) أبو العتاهية : هو اسماعيل بن القاسم ، شاعر الزهد العربى فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، من بلدة عين التمر بالانبار غرب الكوفة . وقد وقد ولد حوالى عام 130 هـ (747 م) ، ومات حوالى عام . 210 هـ (825 م) درس اللغة العربية والادب ، ثم اتصل بالمهدى والهادى والرشيد والمامون، اشتهر شعره بالزهد فى أواخر حياته ، وخاصة عندما بلغ الخمسين ، وكان للرشيد جارية تسمى « عتبة » عشقها أبو العتاهية فى شبابه ، وتصبب بها كثيرا ، وخاصة فى بدء قصائده التى مدح بها الرشيد ، وكان حائرا بين مذاهب الشعر التى عاصرها ، ولكنه استقر اخيرا على شعر الزهد فاجاده .
راجع : مجلة الرسالة المصرية ــ العدد 3 عام 1953 م « شاعرنا العالمى أبو العتاهية » ــ لعبد المتعال الصعيدى .
ثم « أبو العتاهية » لمحمد أحمد برانق ــ القاهرة 1947 م .

27 ـ « الحمـــــة » (206)

قلت : فالحمــــــة ؟

قال : أجل ، الصيد (207) والحجل ، والصحة (208) وان كـان المعتبر (112 : ب) الاجل ، وتورد الخدود وان لم يطرقها الخجـل . والحصانة عند الهرب من الرهب ، والبر كأنه قطع الذهب . والحمة التى حوضها يفهق (209) بالنعيم ، مبذولة للخامل والزعيم ، تمت ثنيتها بالنسب الى ثنية النعيم . قد ملأها الله اعتدالا ، فلا تجد الخلق اعتياضا عنها ولا استبدالا ، وأنبط صخرتها الصماء عذبا زلالا ، قد اعتزل الكدر اعتزالا . لكـن مزارعها لا ترويهـا الجداول ، ولا ينجدها الا الجـود المزاول (210) ، فان أخصب العام أعيا (211) الطعام ، وان أخلـف الانعام ، هلكت الناس بها والانعام . والفواكه يطرف بها الجلب ، وتزر عليها العلب ، وعصيرها لا يليق بالأكل ولا يصلح للحلب ، وبردها شديد وان لم يقض بـه المنقلـب .

---

206) الحمة : هى Alhama بلدة صغيرة تقع قرب مدينة بجانة من أعمال المرية ، وقد اطلق عليها العرب هذا الاسم نسبة الى العين الحارة الموجودة بها ، والتى هى مقصد كثير من ذوى العلل والاسقام .
كما يقصد السياح اليوم هذه المدينة للاستشفاء بعينها ، وما تزال بهـا الحمامات العربية والعين حتى الآن .
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ص 39 ، وابن بطوطة فى رحلتـه ج 2 ص 187 .

207) فى نسخة اخرى « الصحة » .

208) فى نسخة (س) « والصيد » ، وهو ما لا يتناسب والسياق بعد .

209) يفهـق : يعمـر .

210) الجود المزاول : المطر الغزير المعالج .

211) يحتمل معنى (أعيا الطعام) اعجز الناس عن حمله لكثرته ووفرته متى أخصب العـام .

28 — « صالحة » (212)

قلت : فصالحة ؟

قال : لولا أنها مناخ لم تذكر ، فليس مما يذم ولا مما يشكر ، وان كان ماؤها فضيا ، ووجه جوها وضيا ، وعصيرها مرضيا ، ورزقها أرضيا ، وفضلها ذاتيا لا عرضيا . فهي مهب نسف ، ودار خسف ، وأهلها بهم ، ليس — لأحد منهم — فهم .

29 — « أليرة ومنتفريد » (213)

قلت : فاليرة ومنتفريد ؟

قال : بلد ارتفاق (214) ، باجماع واتفاق ، معدن البر الذكى ، والصيد الزكى ، وهد شاهق ، ومصرخ ناهق ، ومعدن بر فائق ، ان لم يعق — من عدو القلعة — (113 : أ) عائق .

30 — « لوشة » (215)

قلت : فلوشة ؟

قال مرأى بهيج ، ومنظر يروق ويهيج ، ونهر سيال ، وغصن مياد ، وجنات وعيون ، ولذات لا تمطل بها ديون ، وجداول تتضح بها الجوانح ،

---

212) صالحة : مدينة زالت معالمها منذ أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، يطلق عليها الكتاب الاسبان اسم Zalea موقعها قديما كان قرب الحمة .

213) اليرة Illora ومنتفريد Montefrio تقع المدينتان شمال مدينة لوشة . Loja.

214) ارتفاق : استقرار واعتماد .

215) راجع ما كتباه عن هذه المدينة بأول الكتاب ، عند التعريف بالمؤلف ، فهي مسقط رأسه .

ومحاسن يشغل بها عن وكره السائح ، ونعم يذكر ــ بهـــا ــ المائح المانح . ما شئت من رحا يدور ، ونطف تشفى ــ بهـــا ــ الصدور ، وصيد ووقود ، وأعناب كما زانت اللبات عقود ، وأرانب تحسبهم أيقاظا وهم رقود (217) . الى معدن الملح ، ومعصر الزيت ، والخضر المتكفلـــة بخصب البيت ، والمرافق التى لا تحصر الا بعد الكيت . والخارج الذى عضد مسحة الملاحة ، بجدوى الفلاحة . الا أن داخلها حرج الأزقة ، وأحوال أهلها مائلة الى الرقة ، وأزقتها قذرة ، وأسباب التطوف (218) بها متعذرة ، ومنازلها ــ لنزائل الجند ــ نازلة ، وعيون العدو ــ لثغرها الشنيـــب (219) ــ مغازلـــــة .

31 ــ « أرجـــذونـــــة » (220)

قلت : فأرجـــذونـــــة ؟

قال : شر دار وطلل لم يبق منه غير جدار ، ومصام يرجع البصـــر عنه وهو حاسر (221) ، وعورة ساكنها ــ لعدم الماء ــ مستأثرة (222). وقومها ذو بطر وأشر ، وشيوخها ــ تيوس فى مسالخ بشر ، طعام مـــن

---

216) اقتباسا من قوله تعالى : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » الكهف : 18 .

217) فى نسخة (ط ، س) « ومعاصر » .

218) فى نسخة (ط) « التصرف » .

219) الثغر الشنيب : ما كان أبيض الاسنان حسنها ، ويقصد صفحة المدينـــة الجميلة .

220) ارجذونة : هى حاليا Archidona بلدة متوسطة تتبع ولاية مالقة التى لا تبعد منها كثيرا .

221) اقتباسا من قوله تعالى : « ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئـــا وهو حسير » الملك : 4 .

222) مستأســـر : قابـــض .

يقوت منهم أو يعول ، التيوس والوعول ، وحرثها مغل ، (113 : ب) وخلقها حسد وغل .

32 – « أنتقيرة » (223)

قلت : فأنتقيرة ؟

قال : محل الحرث والانعام ، ومبذر الطعام ، والمرآة التى يتجلى بها وجه العام ، الرحب والسهل ، والنبات والطفل ، والهشيم والكهل ، والوطن والاهل . ساحت الجداول فى فحصها الافيح وسالت ، وانسابت حيات المذانب (224) فى سقيها الرحب الجوانب وانسالت . لا تشكو من نبو ساحة ، ولا تسفر الا عن ملاحة ، ولا تضاهى فى جدوى فلاحة ، وعظم ملاحة . الا أنها جرداء الخارج ، بل مارد ومارج (225) . وشدة فرجها فارج . لا تضبطها المسلحة للاتساع ، والدرع الوساع ، قليلة الفواكه ، عديمة الملاطف والمفاكه . أهلها أولو شرور وغرور ، وسلاح مشهور ، وقاهر ومقهور ، لا تقبل غريبا ، ولا تعدم (226) من العدو تثريبا .

---

(223) انتقيرة : هى حاليا Antequera احدى مدن الاندلس القديمة ، تبعد من مالقة بحوالى 60 كم ، وهى عبارة عن حصون بين مالقة وغرناطة . ينسب اليها : الحكيم ابو بكر يحيى بن محمد بن يحيى الانصارى الانتقيرى .
راجع : معجم البلدان ــ للحموى ــ ج 3 ص 259 .

(224) المذانب : ج مذنب بوزن منبر ، وهو جدول الماء ذو المسيل الضيق .

(225) المارد : العاتى القاسى ، والمارج : الشعلة ذات اللهب الشديد .

(226) فى نسخة (س) « عن » بدل « من » .

33 — « ذكوان » (227)

قلت : فذكوان ؟

قال : روض وغدير ، وفواكه جلت عن التقدير ، وخورنق وسدير (228) ، ومائدة لا تفوتها فائدة . دارت على الطحن أحجارها ، والتفت أشجارها ، وطاب هواؤها ، وخفق بالمحاسن لواؤها . الا أنها ضالة ساقطة ، وحبة ترتقب لاقطة ، لا تدفع عن قرطها وسوارها باسوارها ، ولا تمنع نزع صدارها بجدارها ، وقضت بغلة (114 : أ) أعيانها حداثة بنيانها .

34 — « قرطمة » (229)

قلت : فقرطمة ؟

قال : الكرك (230) ، الذى يؤمن عليه الدرك (231) ، وان عظم المعترك . جوها صاف ، فى مشتى ومصطاف ، وتربها للبر مصاف ، وعصيرها

---

(227) ذكوان : عبارة عن حصن يسمى « Coin » موقعه قرب مالقة ، يرجع تاسيسه الى أيام عبد الرحمن الثالث الاموى ، اعظم واشهر ملوك بنى أمية (300 — 350 هـ = 912 — 961 م) ، ويروى ابن عذارى ان السبب فى اقامته هو مواجهة حصون عمر بن حفصون وأولاده ، الذين أعلنوا عصيانهم لحكومة قرطبة .
راجع : ابن عذارى فى « البيان المغرب » ج 2 ص 189 وكذا :
Simonet Op. cit, p. 81

(229) الخورنق والسدير : قصران ينسبان فى التاريخ للنعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وتنسج حولهما طرائف .
راجع : الحموى فى معجم البلدان ج 3 ص 54 ، والاغانى للاصفهانى ج 2 ص 144 .

(229) قرطمة : هى بالاسبانية « Cartama » ، أحدى مدن الاندلس الصغيرة .

(230) الكرك : نوع من الطير .

(231) الدرك : الحراسة .

رندة

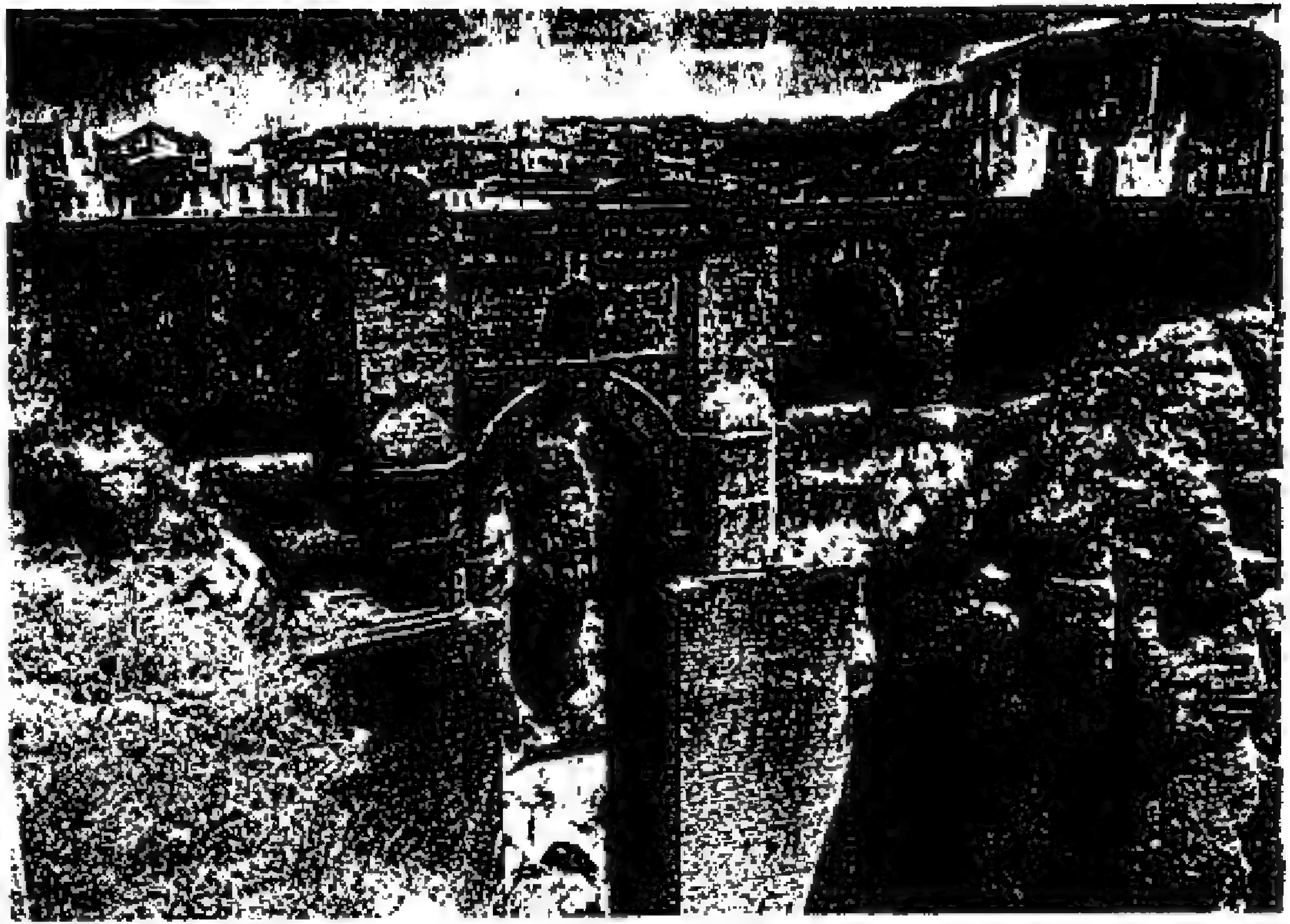

القنطرة العربية

بالكثرة ذو اتصاف . الا أن الماء بمعقلها مخزون ، وعتاد موزون ، وأهلها فى الشدائد لا يجزون ، أيديهم ــ بالبخل ــ مغلولة ، وسيوف تشاجرهم مسلولة .

35 ــ « رندة » (232)

قلت : فرندة ؟

قال : أم جهات وحصون ، وشجرة ذات غصون ، وجناب خصيب ، وحمى مصون . بلد زرع وضرع ، وأصل وفرع ، مخازنها بالبر مالية ،

---

(232) رندة : هى « Ronda » تقع غرب مالقة ، وقد كانت من أهم القواعد الاندلسية، كما كانت من أهم مدن غرناطة ، وتعتبر الحصن الذى يحمى مالقة من ناحية الغرب ، ولذلك لما سقطت رندة فى يد الاسبان فى أبريل 1485 (جمادى الاولى 890 هـ) ، اضحى الطريق سهلا لاستيلاء القشتاليين على مالقة ، فقد سقطت بعد قليل فى أيديهم فى اغسطس 1487 م (شعبان 892 هـ) . وهى تشرف على منطقة مائية من الربى ، ويشقها من وسطها وادى لبين Guadalebia وقد وصفه ابن بطوطة مدينة رندة حينما زار الاندلس عام 1350 م بقوله : « وهى من امنع معاقل المسلمين واجملها وضعا » ، ويبلغ سكان رندة حاليا اكثر من 35.000 نسمة ، فهى مدينة متوسطة الحجم ، ويغلب عليها طابع القدم والبساطة ، وعليها المسحة الاندلسية . هذا ، واهم المعالم والآثار الاندلسية الباقية بها اطلال القصبة الشهيرة ، والقنطرة العربية عند مدخل المدينة الغربى ، وهى ذات عقد واحد بالغ الارتفاع ، ثم الحمامات العربية ، وهى اطلال دارسة من حمامات اندلسية قديمة ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، وكذلك من الآثار « المنارة » فى نهاية المدينة ، ويبلغ طولها حوالى 12 مترا ، والظاهر انها من ايام الموحدين لشبهها بمآذنهم ، ثم قصر الامير ابى مالك ، ويعرف فى رندة باسم « Casa del Gigante » وهو اسم الاسرة التى تملكه ، ويقع القصر فى طرف المدينة الجنوبى ، وكذلك باب المقابر Puerta de Almocabar ويقع فى حى فرانسسكو . وينسب الى هذه المدينة الفقيه ابن عباد الرندى .

راجع ما كتبه ليفى بروفنسال عن هذه المدينة الاسلامية فى Enc. ISl. III, P. 1254 ومجلة الاندلس Al-Andalus (1944) 472.

رندة

باب المقابر

وأقواتها جديدة وبالية ، ونعمها ــ بجوار الجبل ــ متوالية . وهى بلد أعيان وصدور (233) ، وشموس وبدور ، ودور أى ودور ، وماء واديها يتوصل اليه فى جدور ، محكم مقدور . وفى أهلها نضاضة (234) وغضاضة (235) ، ما فى الكلف بها غضاضة (236) ، يلبس نساؤها الموق (237) ، على الاملد المرموق ، ويسفرن عن الخد المشوق ، وينعشن قلب المشوق ، بالطيب المنشوق . الا أن العدو طوى ذيل بردها ، وغصب بنيانها ، وكيف السبيل الى ردها ، وأضاق خارجها ، وخفض معارجها ، وأعلى طائرها ودارجها (238) .

* * *

فلما بلغ هذا الحد قال : هل اكتفيت ؟ فقد شرحت صدرك (114 : ب) وشفيت ، وبما طلبت منى قد وفيت . يا بنى كانى بالصباح السافر ، وأدهم الظلام النافر ، قد أجفل أمام مقتنبه (239) الوافر ، وترك من الهلال نعل الحافر . ونفسى مطيتى ، وقد بلغت الليلة طيتى (240) ، وأجزلت عطيتى ، فلنجم بالحمض (241) ، ونلم بالغمض ، وأنا بعد

---

233) فى نسخة (ط) « وجدور » ولعل الصواب فى نسختنا .

234) نضاضة : سعة الصدر .

235) غضاضة : حلم .

236) غضاضة : حط من القدر . وفى (س) ما فى الكلف بها « حضاضة » ، أى : ما فى الكلف بها شىء .

237) الموق : خف غليظ تلبسه النساء فوق خف أرق منه .

238) كناية من أن العدو بغاراته يثير طيورها فتعلو فى الجو ، وفى الوقت نفسه يثير غبار طرقها .

239) المقتنب : الوعاء للصائد يجعل فيه ما يصيده .

240) طيتى : حاجتى .

241) فلنجم بالحمض: الحمض هو الفاكهة، والابل لها طعامها ولها حمضها، ويقصد بالتعبير : المذاكرة .

نزيلك ، ان سرنى جزيلك ، وعديلك ان ضحك الى منديلك ، وسميرك ان روانى نميرك . فبادرت البدرة ففضضتها ، والصرة فافتضضتها ، والعيبة (242) فنفضتها ، والمعادن فافضتها . فقال : بوركت من مواس، وانشد قول أبى نواس (243) :

ما من يد فى الناس واحدة   كيد أبو العباس (244) أولاها
نام الثقات على مضاجعهم   وسرى الى نفسى فأحياها

ثم قال : نم فى أمان ، من خطوب الزمان ، وقم فى ضمان ، من وقاية الرحمن . فلعمرى وما عمرى على بهين ، ولا الحلف على بمتعين ، لو كان الجود ثمرا لكنت لبابه ، أو عمرا لكنت شبابه ، أو منزلا لكنت بابه .

فما هو الا أن كحلت جفنى بميل الرقاد ، وقدت طرفه سلس المقاد، وقام قيم الخان الى عادة الافتقاد ، وبادر سراجه بالايقاد ، ونظرت

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(242) العيبة : الزنبيل .

(243) ابو نواس : هو الشاعر ابو الحسن بن هانىء الفارسى الاصل ، المولود عام 140 هـ (747 م) عاصر هارون الرشيد الخليفة العباسى ثم ابنه الامين ، فكان شاعرهما . اشتهر بمجونه وتهتكه ، وكثيرا ما حبساه لظهور ذلك فى شعره ، توفى بعد مقتل الامين عام 199 هـ (813 م) ببغداد . ويعتبر ابو نواس ممثل المدرسة الشعرية الحديثة ، وقد ظهر تجديده فى خمرياته وغزله بالمذكر . فهو فى هذين المجالين خصب الفكرة ، واسع الخبرة ، بحيث يستطيع أن يتفنن بمحاسنهما فى صور متجددة .
راجع : ديوان ابى نواس « المقدمة » ج 1 ص 248 ، نشر وتحقيق ايفالد فاغر (القاهرة عام 1958 م) .

(244) يعنى بابى العباس الوزير « الفضل بن الربيع » المكنى بابى العباس . وأبو نواس بهذين البيتين يمدح ابا العباس هذا ، بعد ان تم اطلاقه من السجن على يده . وقوله « وسرى الى نفسى .. » يعنى : سرى الممدوح الى نفسه فاحياها ، بعد أن انقذه من السجن .

(115 : أ) الى مضجع الشيخ ليس فيه الا زئبر أطماره (245) ، وروث حماره ، فخرجت لايثاره ، مقتفيا لآثاره ، فكأن الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره (246) ، وسرت وفى قلبي – لبينه وذهاب أثره وعينه – حرقة ، وقلت متأسيا : لكل اجتماع من خليلين فرقة .

⁂

---

(245) زئبر اطماره : اثر ثيابه البالية .

(246) اقتباسا من قوله تعالى : « فخسفنا به وبداره الارض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » سورة القصص ، آية: 81.

الفصل الخامس

المجلس الثاني

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(116 : أ) المجلس الثاني

قال المخبر : فلما اندمل جرح الفراق بعد طول ، وزمان مطول (1) ومحا ــ رسم التذكر ــ تكرار فصول ، ونصول خضاب (2) ، وخضاب نصول (3) ، بينا أنا ذات يوم فى بعض أسواق الغبار ، أسرح طرف الاعتبار ، فى أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب ، ما بين مشتمل للصماء يلويها ، ولائث للعمامة لا يسويها ، ومتلفظ بالشهادة وهو لا ينويها ، وصاعد من غور ، ومتظلم من جور ، وممسك بذنب عير أو روق (4) ثور ، يموجون ، ومن الاجداث يخرجون ، كأنهم النمل نشرها وقد برزت للشمس ، من مطر الامس ، يشيرون (116 : ب) بأجنحة الاكسية ، ويتساقطون على ثماد القلب (5) وأسئار الاحسية (6) ، وقد اصطف ذابحو الجزور ، وبائعو اللبوب (7) والبذور (8) ولصق بالاملياء (9) حللة العقد وشهدة الزور ، ونظرت فى ذلك المجتمع الهائل المرأى والمسمع .

الى درسة غى ، وطهاة كى ، ورقاة جنسون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظل بقيطون (10) ، وسل سيف

---

1) فى نسخة (ط) « ممطول » .

2) نصول خضاب : ذهاب الحناء .

3) خضاب نصول : حناء مزالة .

4) روق ثور : قرن ثور .

5) ثماد القلب : حفر الآبار .

6) أسئار الاحسية : بقايا الماء فى المستنقعات .

7) اللبوب : الجوز واللوز .

8) البزور والابزار : التوابل .

9) الاملياء : ج ملى ، كغنى وزنا ومعنى .

10) قيطون : يطلقها اهل المغرب على الخيمة ، والجمع : قياطين .

لاطون (11) ، وتحدى برقية لديغ ومداواة مبطون ، قد اشتمل بسمل غفاره وبين يديه غبار فى جلد فاره ، وطحن من اطعام كفارة (12) . وأمامه تلميذ قد شمر الاكمام ، والتفت الخلف والامام ، وصرف لوحى لحظه ـ الاهتمام . وهو ياسو ويجرح ، ويتكلم بلسان القوم ثم يشرح ، ويقيد من حضره بقيد العزيمة فلا يبرح . ويقول :

أيها البهم السارح ، والحزب المسرور بما لديه الفارح ، والسرب الذى تقتاته لولاة البغى الجوارح (13) . صرفتم غروب اعتنائكم ، لمآرب نسائكم وأبنائكم ، وذهلتم عمن حل بغنائكم ، وجعلتم تطعمون وتجمعون ، « انما يستجيب الذين يسمعون » (14) . من وقعت على منكم عينه ، فقد رأى فاتح أقفال الاسرار ، ومثبت (117 : أ) الفرار ، ومصمت أولئك الصرار ، ومغور مياه الآبار بيسير الغبار ، ومخرج الاضمار فى المضمار ، ومذهب المس وطارد العمار (15) .

أنا قاطع الدماء اذا نزفت ، وكاشف الغماء اذا ما انكشفت ، أهنا (16) الابل فلا تجرب ، وأخط حول الحمى فلا تدنو السباع ولا تقرب ، وأدخن بها فلا تتسلل الحية ولا تدب العقرب ، ان نعيت الشمس ـ لوقت محدود ـ طمس فيها نورها (17) ، وان وعدت الارض بري

---

(11) يرجح أستاذنا عبد الله كنون انها ربما تكون مشتقة من الكلمة الاسبانية لاطون « Laton » بمعنى النحاس ، فقد استعملها المقرى فى كتابه « نفح الطيب » بهذا المعنى .

(12) ولاة البغى : يقصد بهم شرطة المكوس .

(13) كان العامة يعتقدون نوعا من الشفاء فى مثل هذه الامور .

(14) اقتباسا من قوله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم اليه يرجعون » سورة الانعام ، آية : 36 .

(15) العمار : الجن يسكنون البيوت .

(16) اهنا الابل : اطلى الابل بالقطران .

(17) كناية عن تنبؤه بأحوال الطقس .

محمود فار تنورها (18) ، وان كتبت لعقد النكاح انحلت ، وان عقلت خطى الضالة وقفت حيث حلت ، وان زجرت الجنون تركت وخلت ، وان استثرت الدفائن ألقت الارض ما فيها وتخلت (19) . أنا جردت البيضة الشقراء ، وزوجت الفتي الشرقي من الجارية العذراء . أنا صافحت الملك، ورصدت الفلك ، ومزجت ــ بسر الحكمة ــ الضياء والحلك ، فاحتقرت الملــك وما ملــك .

دعوت علم الطباع فاطاع ، وقطعت شكوك الهيئة بالشكل القطاع ، وقلت بالقدر وبالاستطاع ، وسبقت فى صناعة البرهان (20) يوم الرهان . ورضت صعاب الرياضيات حتى ذل قيادها ، وسهل انقيادها ، وعدلت الكواكب (117 : ب) واختبرت القلوب اليابانية والمناكب ، وبشرت عند رجوع خنسها (21) بالغيوث السواكب ، ووقفت بالامتحان ، على صناعة الالحان ، وقرأت ما بعد علم الطبيعة ، وناظرت قسيس البيعة (22) ، وأعملت فى الاصول مرهفة النصول ، وأحكمت أمزجة الطباع وطبائع الفصول . وامتزت بالبروع فى علم الفروع ، وقمت فى العهد الحديث بالحديث، وحزت فى علم اللسان درجة الاحسان . وحققت قسمة الفروض،

---

(18) فــار تنورها : فاضت مياهها .

(19) اقتباسا من قوله تعالى : « واذا الارض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت » سورة الانشقاق ، آية 3 ، 4 .

(20) يقصد علم المنطق والمناظرة فى البحث العلمى .

(21) خنسها : الخنس ، قيل : الكواكب كلها ، وقيل : السيارات منها فقط ، وقيل : الخنس ، هى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد . وقد أقسم اللــه تعالى بها فى قوله : « فلا اقسم بالخنس ، الجوار الكنس ... انه لقول رسول كريم » آية 15 ــ 19 من سورة التكوير .

(22) قسيس البيعة : يرمى بهذا الى ما كان يحدث أحيانا بين بعض المسيحيــين المستعربين من جهة ، وبين الاندلسيين الذين اتقنوا لغة المسيحيين من جهة اخرى ، فهؤلاء واولئك كثيرا ما التحما فى مجادلات دينية .
راجع ابن الخطيب فى : الاحاطة ، لوحة 111 ، 222 من مخطوطة جاييجوس بالاسكوريال .

وعدلت الشعر بميزان العروض ، ونظمت ونثرت ، وأكثرت فما عثرت . وعبرت حلم النوم ، ولبست الخرقة بشرط القوم (23) ، ولزمت خلوة الذكر وممتكف الصوم .

وأما ممرفتي بالاخبار ، وزرع الارض بالاشبار ، ما بين جليقية (24) الى الانبار (25) ، وأوصاف المدن الكبار — فقد ثبت بالاختبار .

قال : فاثار قديمى ، وأذكرنى بنديمى ، فقلت : الله أكبر ، أوضع — الخبر — المخبر . فخضت اليه ومن بينى وبينه وهم بحر زاخر ، وأول ليس له آخر ، وبهم يسخر منه الساخر ، ما بين كبش مجتر وعجل ناخر (26) . وقلت : أيها الحبر ، ضالتى قريب أمدها ، معروف معتمدها . وعلى ذلك فالشكر (118 : أ) ممنوح ، والرفد طوفان نوح . فالان (27) العريكة ، وسلم النطع والاريكة ، وقال : أجل واعرض ،

---

23) بشرط القوم : يعنى وفق شروط قوم الصوفية فى اللباس المرقع .

24) جليقية : ادارة اسبانية انشاها « فرناندو الاول » لابنه « غارسيا » ، ضمت الى قشتالة عام 1662 م ـ 1073 هـ ، وتمتع امراؤها ببعض الاستقلال الذاتى الى اواخر القرن الخامس عشر ، موقعها شمالى الاندلس فى اقصى الغرب . وقد وصل الى هذا المكان « موسى بن نصير » لما فتح الاندلس ، وينسب الى هذه الناحية « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » من الخارجين بالاندلس ايام بنى امية .
راجع : المعجم للحموى ج 3 ص 257 .

25) الانبار : آثار مدينة قديمة فى العراق على ضفة الفرات ، فتحها خالد بن الوليد القائد الاسلامي على عهد الخليفة ابى بكر الصديق عام 634 هـ (1236 م) . وكانت مقرا للخلافة الاسلامية حتى تاسست بغداد ، فاضحت حاضرة الخلافة حيث جددها ابو العباس السفاح ، اول خليفة عباسى . وينسب لهذه المدينة القاضى احمد بن نصر بن الحسين الانبارى .
راجع : المعجم للحموى ج 3 ص 257 .

26) عجل ناخر : اى يمد نفسه من خياشيمه .

27) فى نسخة (س) « فالن » بصيغة الامر ، ولعل سياق المحاورة يتمشى مع نسختنا .

وأنزل السؤال وافرض . فقلت : بي الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون ، وقد ظفرت قبلك بنقاب (28) ، وعود احتقاب ، وسارب أنقاب (29) ، حصل به من طلبي الشطر (30) ، وبك يتم الشكر (31) ، ويعظم الخطر . فقال : الناس متهم (32) ومنجد (33) ، (وخائل وممجد)، ولا تجود يد الا بما تجد .

والله المرشد . وجعل ينشد :

اذا المشكلات تصدين لي   كشفت غوامضها بالنظر
ولست بامعة في الرجال   أسائل هذا وذا : ما الخبر (34)
ولكنني مذرب الاصغرين   ابين ـ مع ما مضى ـ ما غبر (35)

ثم قال : هات ، أمن عقدك الشبهات .

---

28) نقاب : رجل علامة .

29) سارب أنقاب : السارب ، هو الذاهب على وجهه بالانقاب ، وهي الطرق في الجبل .

30) في نسخة (س) « الشكر » .

31) في نسخة « الشطر » .

32) متهم : ساكن تهامة ، وهي اراضي السهل الساحلي الضيق ، الممتد من شبه جزيرة سيناء شمالا الى اطراف اليمن جنوبا ، وفيها مدن نجران وجدة وصنعاء ، وسكانها يميل بعضهم الى الزراعة بينما يميل البعض الى التجارة والملاحة وصيد اللؤلؤ .

33) منجد : ساكن نجد ، ونجد ، اقليم بالسعودية ، والعاصمة الرياض ، وهي بلاد جبلية في شمال شبه جزيرة العرب ، نقيضها تهامة ، وهي البلاد الساحلية الغربية هناك .

34) في نسختي (س ، ر) « وما الخبر » بالواو ، وهو خطا في الوزن ، وهكذا اوردها موللر .

35) في نسختي (ظ ، س) « وما غبر » ، وهو خطا في الوزن ايضا ، وقد اوردها موللر هكذا ايضا .

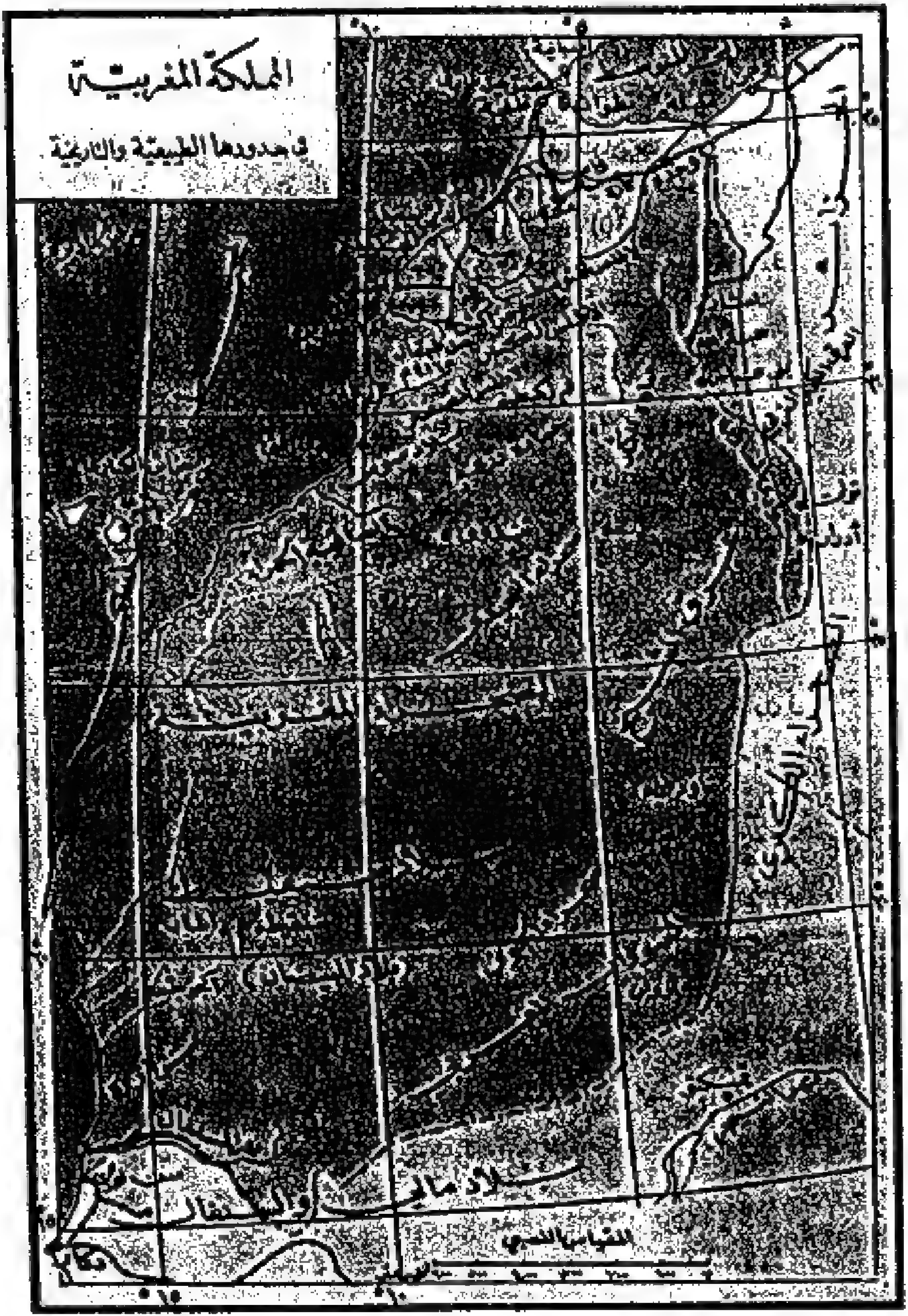

المملكة المغربية

في حدودها الطبيعية والتاريخية

بلاد مالي والسنغال
المقياس النسبي

1 — « بـــادس » (36)

قلت : ما تقول فى بــادس ؟

قال : بدأت بحمدلة الرقعة ، وبركة البقعة ، ومدفن الولى (37) ، والبحر غير العاطل ولا الخلى من الحلى . بلد السراوة والشجاعة ، والايثار على فرض المجاعة ، والنفوس الاوابة (**الى الله**) الرجاعة ، حيث البر والحوت ، والخشب الذى ينشأ منه كل منحوت ، والباس والاقدام ، والفاكهة الطيبة والادام ، (118 : ب) ورب الجبال ، وفضل للمدافعة لصهب السبال . الا انها موحشة الخارج ، وعرة المعارج ، مجاورة غمارة (38) بالمارد والمارج ، فهم ذوو دبيب ، فى مدارج تلك الغرابيب (39) ، وكيدهم — ببركة الشيخ — فى تتبيب (40) .

---

36) بادس : مدينة اندثرت فى اواخر القرن السادس عشر الميلادى ، حيث خربها الاسبان ، ويقال لها : « باديس » « وبادس غمارة » ، كما يقال لها « بادس فاس » تمييزا لها من « بادس الزاب » الواقعة بالجزائر ، اما الاولى فكانت تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وتبعد عن « الحسيمة » بنحو 40 كم
راجع : صحيفة الميثاق المغربية عدد 7 من السنة الاولى 1962 م ، وكذا ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 2 ص 29 .

37) يقصد بالولى هنا : ابو يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلى البادسى ، نسبة الى بادس . (640 — 734 هـ = 1242 — 1333 م) عالم متصوف ذكره ابن خلدون عرضا فى حديثه عن قبائل البربر . عاصر الملك ابا الحسن المرينى ، وقد عثر مؤخرا على مخطوط الفه « ابو محمد الاوربى » فى مناقب ابى يعقوب البادسى .
راجع : صحيفة الميثاق المغربية عدد 7 ، 8 من السنة الاولى 1962 م .

38) غمارة : قبيلة بربرية ، وتسمى الجبال التى تسكنها بهذا الاسم أيضا .

39) مدارج غرابيب : طرق حالكة السواد .

40) تتبيب : هــلاك .

2 ـ « سبتة » (41)

قلت : فمدينة سبتة ؟

قال : عروس المجلى ، وثنية الصباح الاجلى . تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالاعمال الثقيلة . واذا قامت بيض أسوارها مقام سوارها ، وكان جبل بنيونش (42) شمامة أزهارها ، والمنارة منازه شوارها (43) ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارها ، وتخيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها ! ! الى الميناء الفلكية ، والمراسى (44) الفلكية ، والركية الزكية (45) ، غير المنزورة ولا البكية (46) ذات الوقود الجزل ، المعد للازل ، والقصور المقصورة على الجد والهزل ، والوجوه الزهر السحن ،

---

(41) سبتة : هى Ceuta احدى المدن الساحلية على شواطىء البحر الابيض المتوسط شمال المغرب ، ولكنها تتبع حاليا اسبانيا ، لها تاريخها على مر العصور الوسطى الاسلامية ، من حيث كونها قاعدة سياسية هامة ، وقد اتخذها الامويون فى العصر الاسلامى قاعدة يصدون منها تيار الفاطميين . وفى القرن الثالث عشر استولت عليها اسرة اندلسية اسمها « بنى العزفى » ، وبقيت تحت حكم بنى الاحمر فترة من الوقت ، ثم استولى عليها البرتغال فى القرن الخامس عشر ، واخيرا استولى عليها الاسبان ، وما تزال تحت حكمهم حتى اليوم . ومنها « مرانة السبتى » من اعلم الناس بالحساب والهندسة والفرائض والتاليف ، ومن تلاميذته ابن مرانة الفرضى « الحاسب » ، يقولون : انه كان من اهل بلده ، وكان المعتمد بن عباد يقول : « اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر : « ابن غازى » الخطيب ، « وابن عطاء » الكاتب ، « وابن مرانة » الفرضى .
انظر : معجم البلدان للحموى ج 10 ص 182 ــ 183 .

(42) بنيونش : قرية تجاور سبتة من الغرب ، لا زالت آثارها باقية حتى اليوم .

(43) شوارها : حسنها .

(44) فى نسخة « س » والمراقى ، بدل « والمراسى » .

(45) الركية الزكية : البئر الطاهرة .

(46) البئر غير البكية : هى التى لا تفيض فيض الدموع حين البكاء ، والتعبير عموما كناية عن أن منسوب المياه فيها معتدل .

سبتة

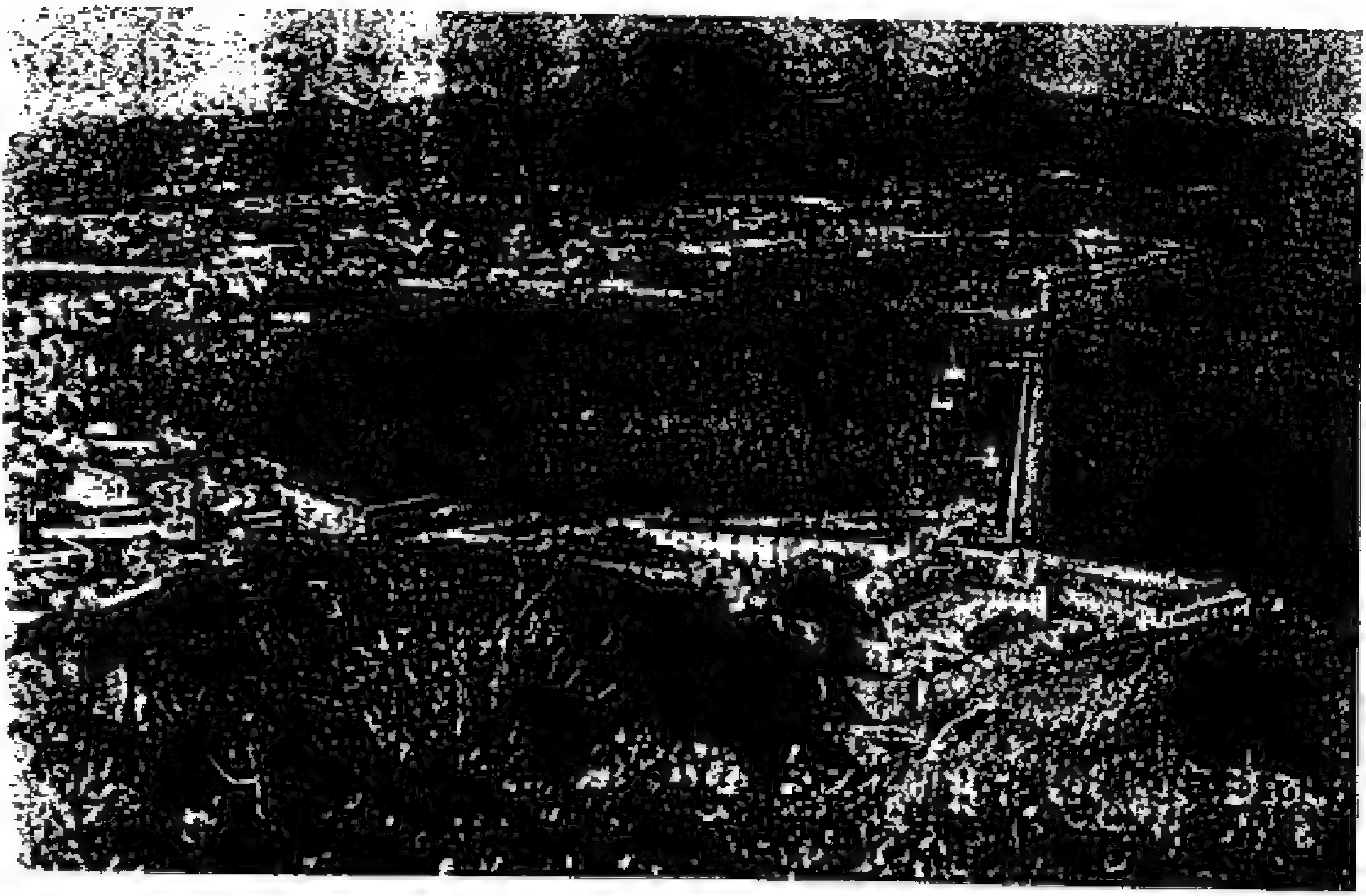

ساحل المدينة وجبل بنيونش

المضنون بها عن المحن . دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحرب المناشبة ، والاسطول المرهوب ، المحذور الالهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والاثر المعروف المنسوب . كرسي الامراء والاشراف ، والوسيطة لخامس أقاليم البسيطة ، فلا (119 : أ) حظ لها فى الانحراف .

بصرة علوم اللسان ، وصنعاء الحلل الحسان ، وثمرة امتثال قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (47) ، الامينة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان ، وكفاها السكنى ببنيونش (48) فى فصول الزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الاثمان . والمدفن المرحوم غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم (49) ، الا أنها فاغرة أفواه الجيوب (50) للغيث المصبوب ، عرضة للرياح ذات الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو (52) فيه المضاجع بالجنوب . وناميك (59) بحسنة تعد من الذنوب ، فأحوال أهلها رقيقة (52) ، وتكلفهم ظاهر مهما عرضت وليمة أو عقيقة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وأنسابه نفقاتهم — فى تقدير الارزاق — عريقة ، فهم يمصون البلالة مص المحاجم ، ويجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم ، بالبشير الهاجم (53) ،

---

(47) اقتباسا من قوله : « ان الله يامر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » سورة النحل ، آية : 9.

(48) هى «Boliones » قرية تجاور سبتة من الغرب ، كانت تشتهر بحماماتها وبساتينها وانهارها ، ويسمى الجبل هناك باسمها .

(49) الحلوم : العقول ، والمفرد ، حلم .

(50) فى نسخة (ط) « الجنوب » وهى أنسب للسياق .

(51) ناميك : حسبك ، بمعنى يكفيك .

(52) فى نسخة (س) « دقيقة » وكلتاهما مناسبة للمعنى العام .

(53) كناية من حبهم الشديد لبلدهم ، فهم مفتونون بها ، كفتنة الحزين ببشير مندفع نحوه ، او كفتنة راعى ارض مجدبة تدفق عليها المطر .

وراعى الجديب بالمطر الساجم (54) ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة ، (119 : ب) الشك — عندي — فى مكة والمدينة .

3 — « طنجة » (55)

قلت : فطنجة ؟

قال : المدينة العادية ، والبقعة التى ليست بالخبيثة ولا بالردية ، اليها بالاندلس كانت نسبة المغاربة ، والكتائب المحاربة ، والرفق (56) السائحة فى الارض الضاربة . سورها ليس بمثلوم ، وساكنها غير ملوم ، وفضلها معلوم ، ودارها ليست بدار لوم . ميدان أفراس كبير ، ومعدن هند (57) وذكير (58) . مثلت بين المنار والقالة «59» ، وحكماهما فى التفضيل ، فأشكل الحكم وتعذرت المقالة ، ولم يصح البيع ولا وجبت الاقالة . هذى سماء بروج ، وهذى أزهار مروج ، وكلاهما مركب سرور

---

54) المطر الساجم : الكثير المنصب .

55) طنجة : « Tanger » احدى مدن المغرب القديمة ، موقعها على المحيط الاطلسى بينها وبين اوروبا مسافة مضيق جبل طارق . عرفها الفينيقيون مركزا تجاريا هاما ، ثم القرطاجنيون كذلك فى تبادل السلع الهامة ، وتموين السفن التى فى طريقها الى المحيط . ولما ظهرت الدولة الرومانية واكتسحت الدولة القرطاجنية فرضت سيادتها — ضمن ما فرضت — على طنجة ، والتى عرفت ازدهارا تجاريا ضخما بين المغرب — من طريقها — وبين روما مركز الدولة الرومانية . وتوالى الزمن على المدينة ، حتى جاء عقبة بن نافع وموسى بن نصير الفاتحان الاسلاميان للمغرب عام 62 هـ (681 م) ، ومن يومها وطنجة العربية الاسلامية محافظة على طابعها ، حتى غدت قطعة من المغرب عام 1956 م (1376 هـ) .

56) الرفق : المعونة .

57) هند : السيف . ويقال ايضا للمائة من الابل فما فوقها .

58) ذكير : الذكير هو اجود الحديد .

59) القالة : يعنى بها الميناء ، وهى بالاسبانية : La Cala

طنجة

المدينة العربية

وسروج ، ومتمتع فروج ، ومطعم قديد ومروج . ديارها نبيهة ، وأحوالها ــ بأحوال جارتها (الاندلس) شبيهة .

لكن رملها يحشو العين بالذرور عند المرور ، (**ويدخل الدور ، ويفسد القدور**) ورياحها لا تسكن الا فى الندور ، وظلمة جوها متسببة عما وراءها من مغرب الشموس والبدور . وعين برقانها ــ أعذب عيونها ــ مشهور بتوليد الهوج ، قران عند الناس غير ذى عوج ، ويذكر أن سليمان اختصها بسجن مردة الجن ، فيعثر بها على (120 : أ) أوان ملئت ريحا ، تثير تبريحا (60) ، ويسندون ــ لذلك ــ افكا صريحا .

4 ــ « قصر كتامة » (61)

قلت : فقصر كتامة ؟

قال : مغرد عندليب (62) ، وعنصر بر وحليب ، ومرعى سائمة ، ومسرح بهيمة فى الجميم هائمة ، ومسقط مزنة عادية وديمة دائمة . وبه التفاح النفاح ، ترتاح الى شميمه الارواح ، والفوائد قد ثقلت بها الادواح ، يقذف به السماء والصباح ، ويتفنن فيه الحرام والمباح ، والسمك كما جردت الصفاح اذا استبحر الكفاح . وطريقه مسلك القافلة ، وببابه السوق الحافلة . ينسل اليها من غمارة قرود وفهود (63)

---

60) تبريحا : شدة وهلاكا .

61) قصر كتامة : اراد به « القصر الكبير » أحد مدن الشمال بالمغرب ، على بعد 25 كم من مدينة العرائش ، كما يبعد عن ساحل المحيط الاطلنطى بنحو 35 كم .
راجع : ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 15 ص 360 .

62) الجميم : يقال أرض جميم اى ملساء .

63) الوان مختلفة من افراد قبيلة غمارة

وأمة صالح وهود ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (64). الا أنه قور (65) قد تهدم ، ودار الندوة لام ملدم (66) ، ومنتزى لهائج المرار وثائر الدم . جثم الهواء الخبيث فى بطيحته وربض ، وانبسط وما انقبض ، وجهز ليله عسكر البعوض الهاجم ، دربة بمص المحاجم . وأما وحله فلا يعبر ولا يسبر ، وان اسهبت العبارة فالامر أكبر .

5 — « أصيـــــلا » (67)

قلـت : فـأصيـــلا ؟

قال : كثيرة المرافق ، رافعة فى الخصب اللواء الخافق ، (120 : ب) العصير الاثير ، والحوت الكثير ، والادام الذى يرمى به من حكم عليه بالتعزيز (68) ، والسفن المترددة فيها الملف (69) والابازير . الا أن حصنها من المنعة برى ، وساكنها بربرى ، وجارها — من غمارة — جـــــرى .

---

(64) اقتباسا من قوله تعالى : « ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الاخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » سورة هود ، آية : 103 .

(65) قــور : بئر .

(66) ام ملدم : كنية الحمـــى .

(67) اصيلا : هى « Arcila » مدينة صغيرة على ساحل المحيط الاطلنطى ، ينسب اليها الاديب المحدث أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن محمد الاصيلـــى ، ترأس الكتابة بقرطبة على عهد المستنصر .
راجع : ياقوت الحموى « معجم البلدان » ج 15 ص 212 .

(68) كناية عن وفرة الزاد بالبلد .

(69) الملف : لفظ شامل للغطاء والكساء .

ســـــلا

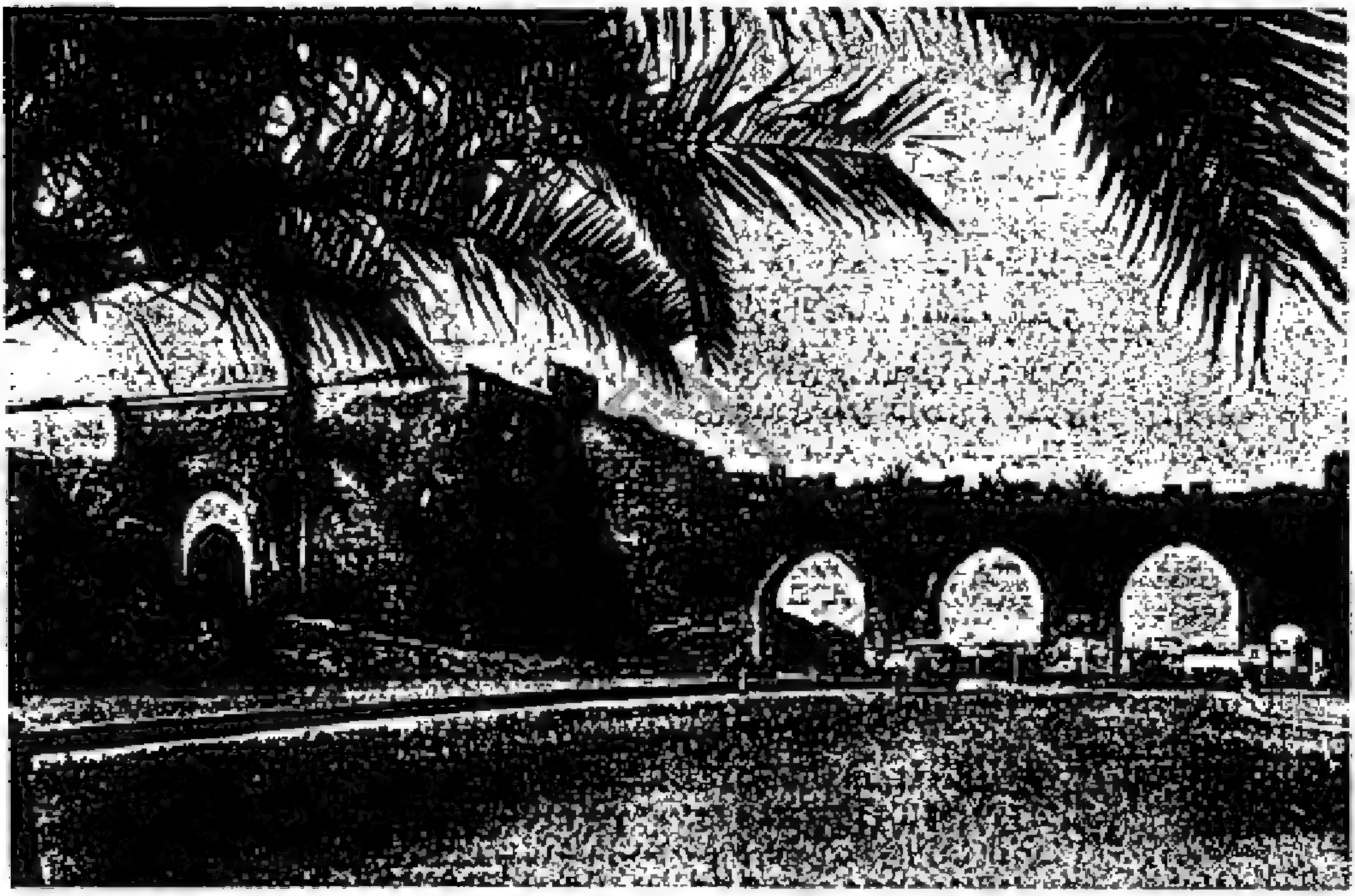

الاسوار القديمة الاثرية
(مدخـــل المدينـــة الشمالي)

6 ـ « سـلا » (70)

قلت : فمدينة سلا ؟

قال العقيلة المفضلة ، والبطيحة المخضلة ، والقاعدة المؤصلة ، والسدرة المفصلة . ذات الوسامة والنضارة ، والجامعة بين البداوة والحضارة . معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمارستان ، والزاوية كأنها البستان ، والوادى المتعدد الاجفان ، والقطر الآمن عند الرجفان ، والعصير العظيم الشأن ، والاسوق الممتازة حتى برقيق الحبشان . اكتنفها المسرح ، والخصب الذى لا يبرح ، والبحر الذى يأسو ويجرح ، وشقها الوادى يتمم محاسنها ويشرح .

وقابلها **الرباط** (71) ، الذى ظهر به ـ من المنصور ـ الاغتباط ، حيث القصبة والساباط (72) ، ووقع منه بنظرة الاعتباط ، فاتسع الخرق

---

70) هى Salé مدينة موازية لوادى ابى الرقراق الذى يفصلها عن مدينة الرباط العاصمة ، يعتقد بأنها تأسست فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ويرى بعض المؤرخين انها مدينة رومانية قديمة ، نالت عناية بنى مرين فسوروها ، وانشأوا بها كثيرا من المرافق العامة ، وتعتبر عمارتها نموذجا للفن المغربى الرائع فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ولسلا شهرة صناعية تجارية فى الجلد والاوانى النحاسية والحديدية ونسج الزرابى والطرز وصناعة الحصر ، وهى المدينة التى بقى فيها ابن الخطيب منفيا لمدة ثلاث سنوات تقريبا (760 ـ 763 هـ / 1358 ـ 1361 م) حيث الف بها كتابه هذا ضمن ضمن كتب اخرى ، حينما جاء الى المغرب مع سلطان غرناطة المخلوع « الغنى بالله محمد الخامس ابن الاحمر » .

راجع : المعجم للحموى ج 10 ص 231 .

71) الرباط : « Rabat » هى عاصمة المغرب الادارية، وقد اسسها الخليفة المنصور ابو يوسف بن عبد المؤمن ، (554 هـ 595 هـ) = (1159 ـ 1198 م) اشهر ملوك الموحدين ، وسماها « رباط الفتح » ، وهى مدينة الابواب العظيمة ، اقامها الموحدون ، فقد كانت رباطهم العسكرى ، كما ان بها صومعة حسان الشامخة البتراء ، تشرف على المدينة وعلى بقايا اطلال المسجد ، وهذه الصومعة من طراز الكتبية بمراكش والخيرالدا باشبيلية .

راجع : « السلاوى » فى الاستقصا ج 1 ص 16 ـ 181 .

72) الساباط : سقيفة بين دارين تحتها طريق .

الرباط

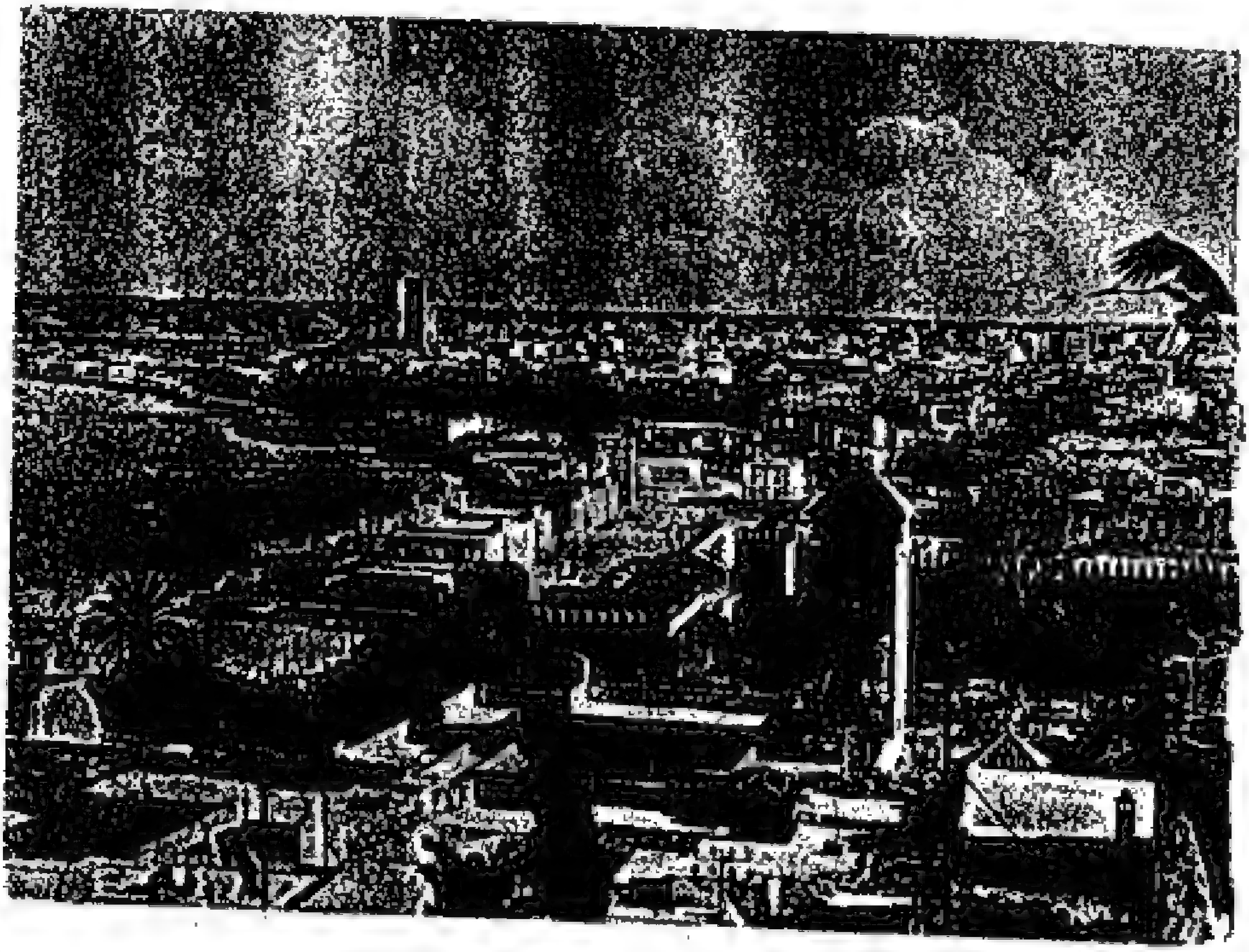

المدينة كما تبدو من وادى ابى الرقراق
وحيث تطل عليه قصبة الاوداية

مسجد حسان

« الصومعة وبعض الاعمدة »
— الرباط —

قصبة الاوداية

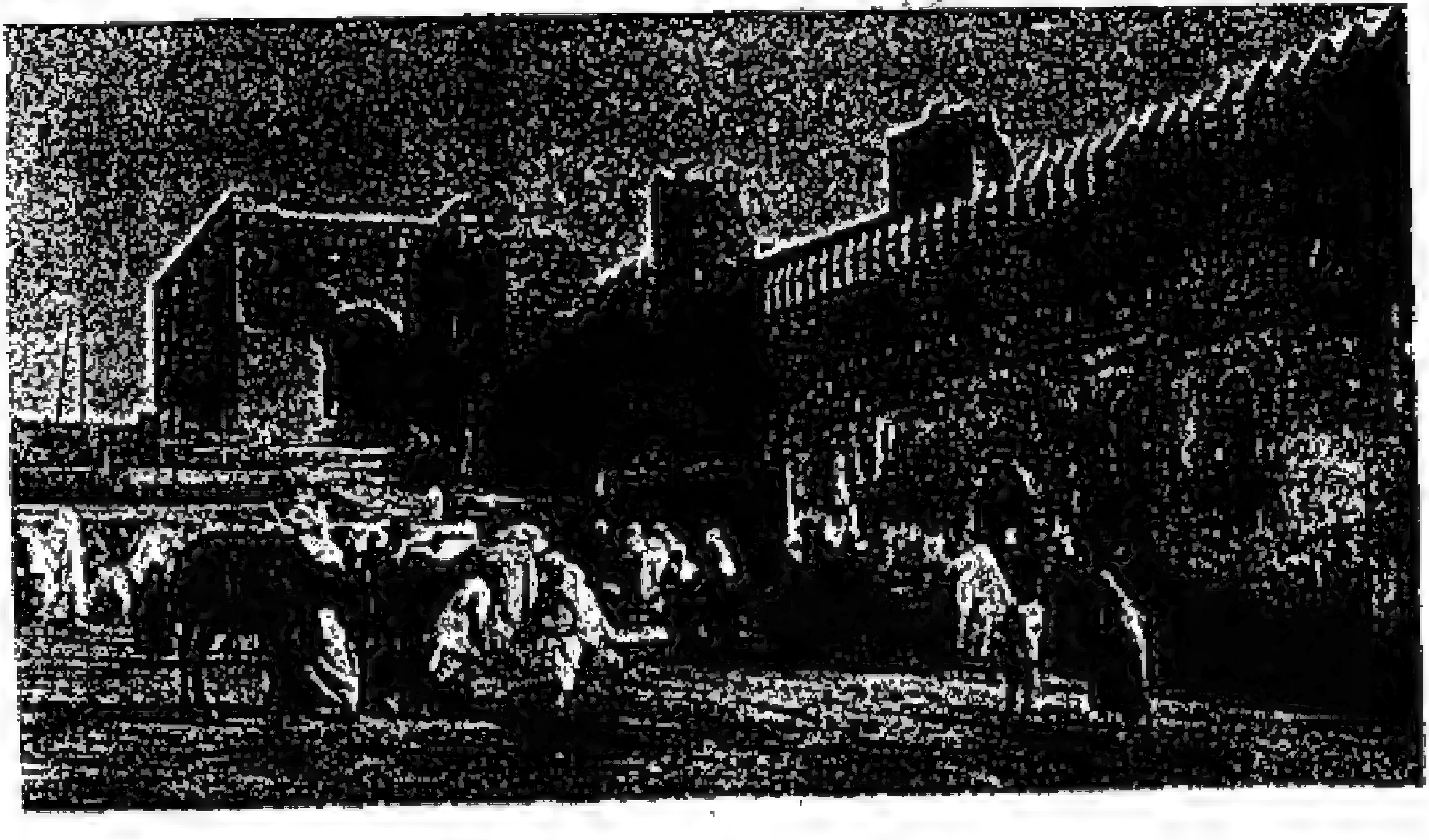

وعظم الأشتطاط ، وبعد الكمال يكون الانحطاط (73) . **الى شامة (74)** مرعى الذمم ، ونتيجة (121 : أ) الهم ، **(ومشمخ الانوف ذوات الشمم)** (75) وعنوان بر الديم ، حيث الحسنات المكتتبة ، والاوقاف المرتبة ، والقباب كالازهار ، مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، وطلل حسان المثل فى الاشتهار .

وهى — على الجملة من غيرها — أوفق ، ومغارمها — لاحترام الملوك الكرام — أرفق ، ومقبرتها المنضدة عجب فى الانتظام ، معدودة فى المدافن العظام ، وتتأتى بها — للعبادة — الخلوة ، وتوجد عندها — للهموم — السلوة ، كما قال ابن الخطيب :

وصلت حثيث السير فيمن فلا الفلا   فلا خاطرى لما نأى وانجلى انجلى
ولا نسخت — كربى بقلبى — سلوة   فلما سرى فيه نسيم سلا سلا

وكفى بالشابل رزقا طريا ، وسمكا بالتفضيل حريا ، يبرز عدد قطر الديم ، ويباع ببخس القيم ، ويعم حتى المجاشر (76) النائية والخيم الا أن ماءها لا يروى به بارد (77) ، لا كريم ولا بارد ، وأليفها شارد ، والخزين بها فاسد ، وبعوضها مستأسد ، راضع غير مفطوم ، وأسم للخد والخرطوم ، بذيالك الخرطوم ، خالع للعذار غير مخطوم ، تصغى

---

73) يرمى بهذا الى ما روى عن المنصور مؤسس الرباط عند ما توفى ، من أنه قال: ندمت على ثلاثة اشياء : بناء مدينة الرباط ، واسكان عرب بنى هلال فى المغرب ، واطلاق أسرى النصارى ، وهم الذين كان قد أسرهم فى موقعة « الارك » الشهيرة (ربيع الاول 592 هـ = 1195 م) ، وقد تحققت نبوءة المنصور فى العاقبة السيئة لهذه الامور الثلاثة ، فقد اتخذ الفرنسيون مدينة الرباط قاعدة بعد احتلالهم المغرب فيما بعد ، وأثار عرب بنى هلال القلاقل والفتن فى المغرب ، واخذ النصارى بثارهم فى موقعة « العقاب » حيث هزموا المسلمين فيها شر هزيمة (15 صفر 609 هـ = 18 يوليو 1212 م).

74) فى نسختى (ط ، س) « شالة » وهو الاوفق .

75) زيادة فى (س ، ط) .

76) المجاشر : يعنى القرى والضياع ، ويقال لها فى المغرب الآن « المداشر » .

77) فى نسخة (س) « وارد » وهو لصوب .

ـ لرنته ـ الآذان ، ويفتك بوكز السنان ، كالقوس تصمى (121 : ب) الرمايا وهى مرنان (78) ، وديارها ـ فى الماء ـ دار عثمان (79) ، وطواحنها غالية الاثمان ، وكثبانها العفر تلوث بيض الثياب ، طى العيا ب، وعابر واديها ـ الى مآرب أكيد ـ فى تنكيد . الى غلبة الامساك، وخوض النساك (80) ، وكثرة أرباب الخطط ، (81) والاغياء فى الشطط ، تذود ـ عن جناته للاسد ـ جنان ، (82) فلا يلتذ ـ بقطف المنقود منهـا ـ بنان ، وفى أهلها خفة ، وميزانها لا تعتدل منه كفة .

7 ـ « أنفـا » (83)

قلت : فانفـــا ؟

قال : جون (84) الحط والاقلاع ، ومجلب السلاع ، تهدى اليهـا السفن شارعة ، وتبتدرها مسارعة . تصارف برها الذهبى بالذهـب الابريز ، وتراوح برها وتغاديه بالتبريز .

---

78) قوس مرنان : صلبة مرنة .

79) يرمى بذلك الى انه لا ماء فيها ، اذ دار سيدنا عثمان بن عفان الخليفة لم يكن بها ماء اثناء حصـــاره .

80) يغلب على اهل البلد البخل ، وعلى نساكها خوضهم فى أعراض الناس .

81) الخطط : اربـاب الوظائـف .

82) جنان : حراس كالجن فى الذب عن البساتين .

83) انفا : الدار البيضاء Casablanca العاصمة التجزبة للمغرب الاتمى علـى ساحل المحيط الاطلنطى ، تشتهر بالانتاج الزراعى والصناعى . وقد وقـع عليها اعتداء من الاساطيل البرتغالية عام 1465 م حيث دمرتها تماما ، بسبب منافستها التجارية لثغر قادس ، ولكن اعيد بناؤها عام 1515 م ، وقد قست عليها الطبيعة من البحر فاجتاحت معظمها الامواج عام 1755 م ، ولم تعـد مدينة تتطور وتزدهر الا فى عام 1907 م ، وهى اليوم كبرى مدن المغـرب مساحة ، واعظمها تعدادا للسكان ، ذات مرسى ضخم تبلغ ارصفته مساحة 6 كيلومترات . والسكان حاليا يتجاوزون المليون والنصف نسمة تقريبا .

84) الجون : احد انواع القطا ، اسود البطن والجناح ، والجونة : الشمس عنـد مغيبها والسياق يحتمل أحد المعنيين .

الدار البيضاء

((منظر حديث للمدينة))

يكثـر الطيـر حيث ينتشر الحب وتغشى منـازل الكرمـاء

وخارجها يفضل كل خارج ، وقانصها يجمع بين طائر ودارج ، وفواكهها طيبة ، وأمطار عصيرها صيبة ، وكيلها وافر ، وسعرها ـ عن وجه الرخاء ـ سافر ، وميرتها لا ينقطع لها خف ولا حافر . لكن ماءها وهواءها عديما الصحة ، والعرب عليها فى الفتن ملحة ، والامراض بهـا تعيث وتعبث ، والخزين بها لا يلبث .

8 ـ « أزمـــور » (85)

قلـت : فـأزمـــور ؟

قال : جار واد وريف (86) ، وعروس ربيع وخريف ، وذو وضع شريف . أطلت على واديه المنازه (122 : أ) والمراقب ، كانها النجوم الثواقب ، وجلت من خصبه المناقب (87) ، وضمن المرافق نهره المجاور وبحره المصاقب (88) . بلد يخزن الاقوات ، ويملأ اللهوات . باطنه الخير ، وادامه اللحم والطير . وساكنه رفيه ، ولباسه يتحد فيه ، ومسكنه نبيه ، وحوته الشابل ليس له شبيه . لكن أهله ـ أنما حرثهم وحصادهم ـ اقتصادهم ، فلا يعرفون ارضاخا (89) ، ولا وردا نضاخا ،

---

(85) ازمور : هـى « Azammur » مدينة ساحلية على المحيط الاطلنطى بالمغـرب، موقعها على الجانب الايسر لمصب وادى ام الربيع ، وعلى مسافة 80 كم من الدار البيضاء جنوبا ، وهى مدينة صغيرة مشيدة بجانب رأس صخـرى عال ، كانت عاصمة اقليم دكالة القديمة .
راجع : J. Leon Africano, Op. Cit. P. 83
والتعريف بابن خلدون ص 44 حاشية 4 .

(86) وريف : ممتد واسـع .

(87) المناقب : الطريق فى الجبل .

(88) المصاقب : المجاور .

(89) ارضـاخا : تساهـلا .

يترامون على حبة الخردل (90) بالجندل (91) ، ويتضاربون على الاثمان الزيوف (92) بالسيوف . بربرى لسانهم ، كثير حسانهم ، قليل احسانهم ، يكثر بينهم — بالعرض — (93) الافتخار ، ويعدم — ببلدهم — الماء والملح والفخار .

9 — « تيط » (94)

قلت : فتيط ؟

قال : معدن تقصير ، وبلد بين بحرى ماء وعصير ، ورباط للاولياء به (سرور)(95) ، واغتباط ، ومسجدها تضيق عنه المدائن منارا عاليا ، وبقلادة الاحكام حاليا . الا أن خارجها لا يروق عين المقيم والمسافر ، ولا يشوق بحسن سافر ، ومؤمنه يشقى بصداع كافر ،

---

90) الخردل : نبات برى ينبت فى الحقول مع الزرع ، او على حافة الطرق ، حبه أسود وصغير جدا ، يستعمل فى التوابل ، وله فوائد طبية ، كما يستخرج منه الزيت .

91) الجندل : الصخر العظيم .

92) الاثمان الزيوف : النقود الزائفة .

93) العرض : ضد الجوهر .

94) تيط : هى « Tit » تقع جنوبى مدينة الجديدة ، وهى ضمن اقليم دكالة ، على ساحل المحيط الاطلنطى .

95) زيادة فى (س ، ط) .

وحماه عدو كل خف وحافر ، فلولا ساكنه لم ينبس يوم فخر ، ولم ينم الا الى صخـر (96) .

10 ـ « آسفـــــى » (97)

قلت : فربـــاط آسفـــى ؟

قال : لطف خفى ، وجناب حفى ، ووعد وفى ، ودين ظاهره مالكى ، وباطنه حنفى . الدماثة والجمال ، والصبر (122 : ب) والاحتمال ، والزهد والمال ، والسذاجة والجمال (98) . قليلة الاحزان ، صابرة علـى الاختزان ، وافية المكيال والميزان ، رافعة اللواء ، بصحة الهواء . بلد

---

96) كناية عن انها بلدة شبه منقطعة عن سواها ، لوعورة الطرق اليها ، كما اسلف فى وصفها ، وهو يورى بصخر المبكى عليه من اخته الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية ، عاش صخر هذا فيما بين القرنين السادس والسابـــع الميلادي ، وخرج فى احدى الغزوات ، فقاتل حتى أصابه جرح فمات ، فحزنت عليه اخته اكثر من حزنها على اخيه معاوية ، الذى توفى قبله ، لما للاول من أياد كريمة عليها . ولها ديوان خاص فى رثاء صخر ، فمن قولها فيه ترثيه :

وان صخـرا لتاتـم الهـداة بـه   كانـه علـم علـى راسـه نـار
جلـد جميـل المحيـا كامـل ورع   وللحروب غـداة الروع مسعار
حمـال الويـة ، هبـاط اوديـة   شهاد اندية ، للجيش جـرار

راجع : الموجز فى الادب العربى وتاريخه ، نشر دار المعارف ج 1 ص 204 ،

97) رباط آسفى : هى « Safi » مدينة على ساحل المحيط الاطلنطى بالمغـرب ، وهى اصلا مؤسسة برتغالية ، كادت تندثر عندما غادرها مؤسسوها ، ولم يبق من آثارهم فيها غير حصن عظيم ، وثكنة ، وقصر يسمى « دار البحر » ، وترتكز ثروة آسفى على صيد الاسماك ، فهى من اهم مراسى الصيد للسردين فى العالم ، ومن مرسى آسفى يصدر الفوسفات المستخرج من مناجـــم « كشكاط » ، وتبعد المدينة عن الدار البيضاء بمسافة 252 كم .

98) فى نسخة اخرى « والجلال » وهو انسب .

موصوف ، برفيع ثياب الصوف ، وبه تربة الشيخ أبى محمد صالح (99) . وهو خاتمة المراحل ، لمسورات ذلك الساحل . لكن ماءه قليل ، وعزيزه — لعادية من يواليه من الاعراب — ذليل (100) .

11 — « مراكش » (101)

قلت : فمدينة مراكش ؟

قال : فتنفس الصعداء ، وأسمع البعداء ، وقال : درج الحلى ، وبرج النير الجلى ، وتربة الولى ، وحضرة الملك الاولى ، وصرح الناصر الولى . ذات المقاصير (102) والقصور ، وغابة الاسد الهصور ،

---

(99) هو أحد رواد الطرق الصوفية ، عاش فى أوائل القرن السابع الهجرى ، كان براس — بهذه البلاد — جمعية لتيسير الحج ، لحراسة القوافل الذاهبة الى الاراضى المقدسة .

(100) كناية عن كثرة السطو على الموسرين بالمدينة من قبل الاعراب المجاورين لها .

(101) هى بالاسبانية « Marraquex » تبعد عن الرباط بمسافة 326 كم ، عاصمة الجنوب بالمغرب ، أسسها يوسف بن تاشفين أعظم ملوك المرابطين عام 454 هـ = 1062 م ، كما بنى بها مسجده المعروف باسم « جامع يوسف » . استمرت عاصمة للموحدين كما كانت عاصمة للمرابطين ، ولكن بنى مرين تحولوا عنها الى فاس ، ففقدت مراكش من يومها مركزها السياسى ، وقد شيد بها الموحدون جامع الكتبية بمنارته الشهيرة ، كما أن بها من آثار السعديين مقابرهم العظيمة . وتشتهر المدينة بصناعة الجلد والصباغة والنحاس ، والمنسوجات الوطنية ، والزرابى . وخارجها مزارع الزيتون ، وواحات النخيل الشاسعة ، تحوطها جبال الاطلس التى تكسوها الثلوج شتاء . وللعلويين بها جنان أكدال التى أنشأها عبد الرحمن بن هشام العلوى ، وبها ضريح القاضى عياض ، وأبو العباس السبتى ، وأبو القاسم السهيلى ، ومحمد بن سليمان الجزولى .
راجع : البغدادى فى « مراصد الاطلاع ، على أسماء الامكنة والبقاع » ج 3 ص 1251 . وكذا : J. Leon. Op. Cit. P. 67-68

(102) المقاصير : ج مقصورة ، وهى الدار الواسعة المحصنة .

مراكش

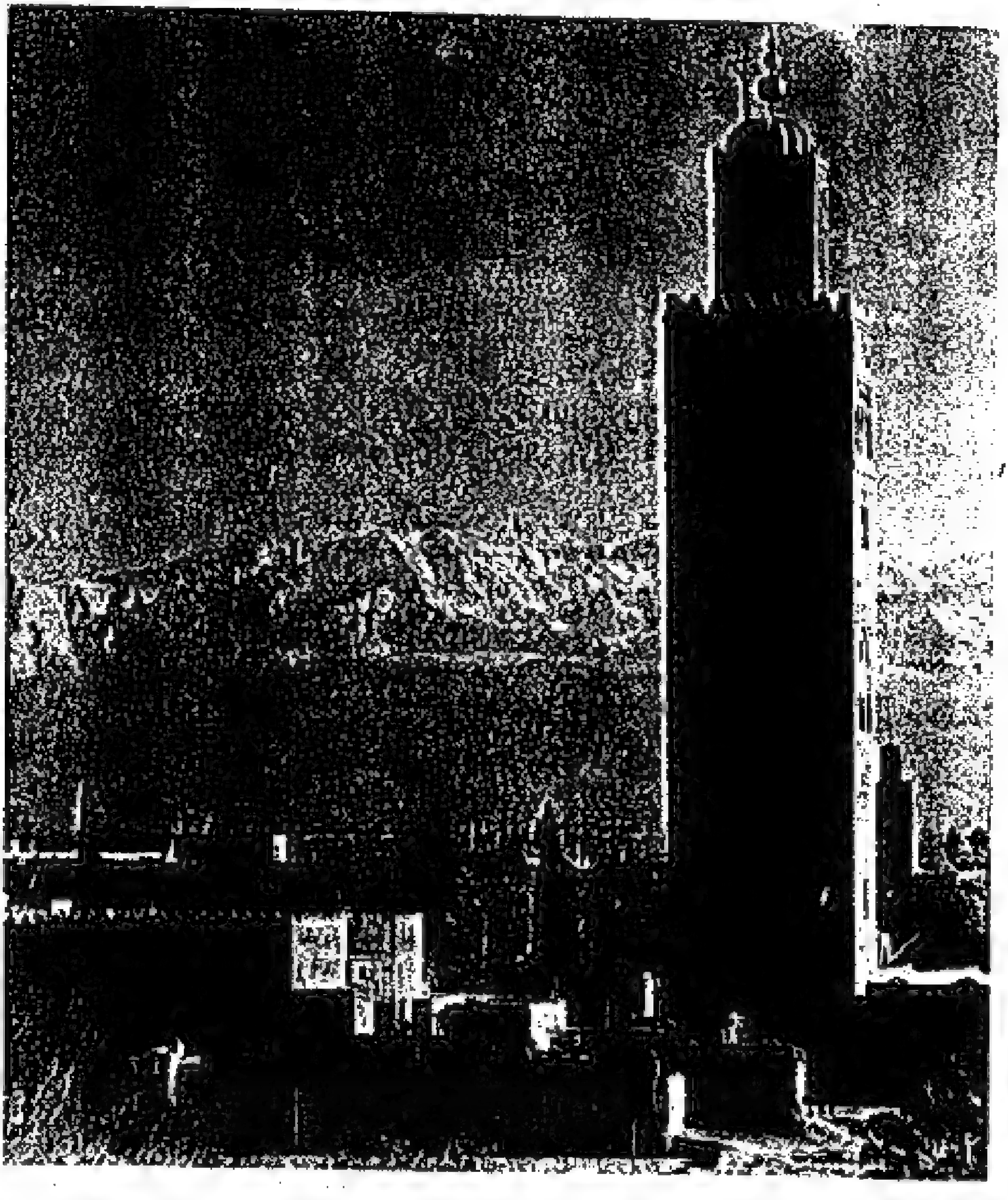

صومعة مسجد الكتبية — واحدة من ثلاث ذات هندسة واحدة : الخيرالدا باشبيلية ، والكتبية بمراكش ، وحسان بالرباط .

وسدة(103) الناصر والمنصور . بعدت عن المركز دارتها ، وجرت ــ على قطب السياسة ــ ادارتها ، وسحرت ــ العيون ــ شارتها ، وتعبد الاباءة اشارتها ، وخاضت ــ البحر الخضم ــ نذارتها وبشارتها . اقتعدت البسيط المديد ، واستظهرت بتشييد الاسوار وأبراج الحديد . وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت المذانب كصفاح القيون ، وقيدت طرف الناظر المفتون ، أدواح الشجر بها وغابات الزيتون .

(123 : أ) فما شئت من انفساح السكك ، وسبوع الشكك(104)، وانحلال التكك ، وامتداد الباع فى ميدان الانطباع ، وتجديد فنون المجون بالمد والاشباع . زينتها الزمن يمصر ، وخيرها يمد ولا يقصر ، وفواكهها (لا تحصى) ولا تحصر . فاذا تناصف الحر والبرد ، وتبسم الزهر وخجل الورد ، وكسا ــ غدرانها الحائرة ــ الحلق السرد (105) ، قلت : أنجز ــ للمتقين من الجنة ــ الوعد ، وساعد السعد ، وما قلت إلا بالذى علمت سعد (106) . ومنارها العلم فى الفلاة، ومنزلته ــ فى المآذن ــ منزلة والى الولاة . الا أن هواءها محكم فى الجباه والجنوب (يحمى عليها بكير الجنوب)(107) وحمياها كلفة بالجسوم ، طالبة ديونها بالرسوم ، وعقاربها كثيرة الدبيب ، منغصة مضاجعة الحبيب ، وخرابها موحش هائل ، وبعد الاقطار ــ عن كثير من الاوطار ــ بها ــ حائل ، وعدوها ينتهب ــ فى الفتن ــ أقواتها ، وجرذان

---

103) سدة : السدة : المنصب الرفيع .

104) الشكك : ج شكة ، وهى اللباس يقى لابسه ضربة السلاح .

105) السرد : المنتظم المتتابع .

106) مثل عربى يضرب فى اسناد الاخبار الى مصادرها ، وهو الشطر الاخير من قول الشاعر :

ويعذلنى أبناء سعد فيهم … وما قلت الا بالذى علمت سعد

107) زيادة فى (س) .

المقابر تاكل أمواتها ، وكانت أولى المنازل بالأغياء ، لو أنها — اليوم — معدودة فى الاحياء (108) .

12 — « أغمات » (109)

قلت : فأغمات ؟

قال : بلدة — لحسنها — الاشتهار ، وجنة تجرى من تحتها الانهار ، وشمامة تتضوع منها الازهار ، متعددة البساتين ، (123 : ب) طامية بحار الزياتين ، كثيرة الفواكه والعنب والتين ، خارجها فسيح ، والمذانب فيه تسيح ، وهواؤها صحيح ، وقبولها للغريب شحيح ، وماؤها نمير ، وماء وردها ممد للبلاد وممير . الا أن أهلها يوصفون بنوك (110) . وذهول ، بين شبان وكهول ، وخرابها يهول ، وعدوها تضيق — لكثرته —

---

108) يرمى بهذا الى ان مراكش قد فقدت مركزها السياسى فى العصر الذى يعيشه ابن الخطيب ، وهو عصر المرينيين ، الذين اتخذوا فاس عاصمة لهم ، فتحولوا بذلك من مراكش ، التى ظلت العاصمة فى عهد كل من المرابطين والموحدين . هذا ، والاغياء هو : بلوغ الغاية من الشئ .

109) اغمات« Agmat »موقعها قرب مدينة مراكش ، وفى هذه الفترة التي يؤرخ لها ابن الخطيب كانت اغمات عبارة عن مدينتين مواجهتين لبعضهما وهما : اغمات هيلان ، واغمات وريكة ، وكان بينهما خصام مستحكم ، فرق بينهما حتى فى دور العبادة ، وقد انتهى هذا الخلاف فيما بعد ، واندثرت أغمات وريكة وبقيت الاخرى ، وذلك فى القرن السادس عشر الميلادي ، وتشتهر المدينة بوفرة مياهها وكثرة بساتينها ، وبها قبر المعتمد بن عباد ملك اشبيلية زمن الطوائف ، الذى قبض عليه ملك المغرب يوسف بن تاشفين بعد تغلبه عليه عام 480 هـ (1087 م) .
راجع : Discripcion de Africa P. 73, J. Leon Affricano,
وكذا : مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، لصفى الدين البغدادى ج 1 ص 98 .

110) نوك : حمق .

السهول ، وأموالها — لعدم المنعة — فى غير ضمان ، ونفوسها لا تعرف طعم أمان .

13 — « مكناسة » (111)

قلت : فمدينة مكناسة ؟

قال : مدينة أصيلة ، وشمب المحاسن وفصيلة ، فضلها الله ورعاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها (112) ، فجانبها مريع (113) وخيرها سريع ، ووضعها له — فى فقه الفضائل — تفريع ، عدل فيها الزمان ، وانسدل الامان ، وفاقت — الفواكه — فواكهها ، ولا سيما الرمان ، وحفظ — أقواتها — الاختزان ، ولطفت فيها الاوانى والكيزان ، واعتدل — للجسوم — الوزان . ودنا — من الحضرة (114) — جوارها ، فكثر قصادها من الفضلاء وزوارها ، وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الابهة

---

(111) مكناس او مكناسة : هى بالاسبانية Mequinez اتخذها المولى اسماعيل عاصمة له (1673 — 1726 م) وطبعها بطابع عبتريته . تقع جنوب غرب فاس على مسافة 60 كم ، وقد سميت باسم قبيلة مكناسة البربرية التى اختطت المدينة اولا ، ويحيط بمكناس نطاق مثلث من اسوار وحصون يبلغ طولها 40 كم . من آثارها العتيقة باب منصور ، والاصطبلات القديمة ، وبركة البساتين التى تبلغ مساحلتها 4 هكتارات مربعة ، وهى على غرار بركة مراكش . وتعتبر مكناس اليوم خامس مدن المغرب سكانا ، اذ تتقدمها الدار البيضاء والرباط ومراكش وفاس . ويبلغ تعداد السكان حاليا حوالى 230 الف نسمة ، وارتفاعها من سطح البحر بنحو 522 مترا .
راجع : التعريف بابن خلدون ، ص 221 حاشية 3 ، و « الروض الهتون فى اخبار مكناسة الزيتون » لابن غازى العثمانى المكناسى (ط. القصر الملكى بالرباط 1966 م) بتحقيق عبد الوهاب بن منصور . وكذا مجلة « الثقافة المغربية » ج 7 عدد 7 (1972) تحت عنوان (التخطيط المعمارى لمدينة مكناس) للاستاذ محمد المنونى ، ص 21 — 56 .

(112) اشارة الى قوله تعالى : « اخرج منها ماءها ومرعاها » النازعات : 31 .

(113) مريع : خصب .

(114) يقصد بالحضرة المرينية : فاس العاصمة .

مكناس

منظر عام لمدينة مكناس

مكناس

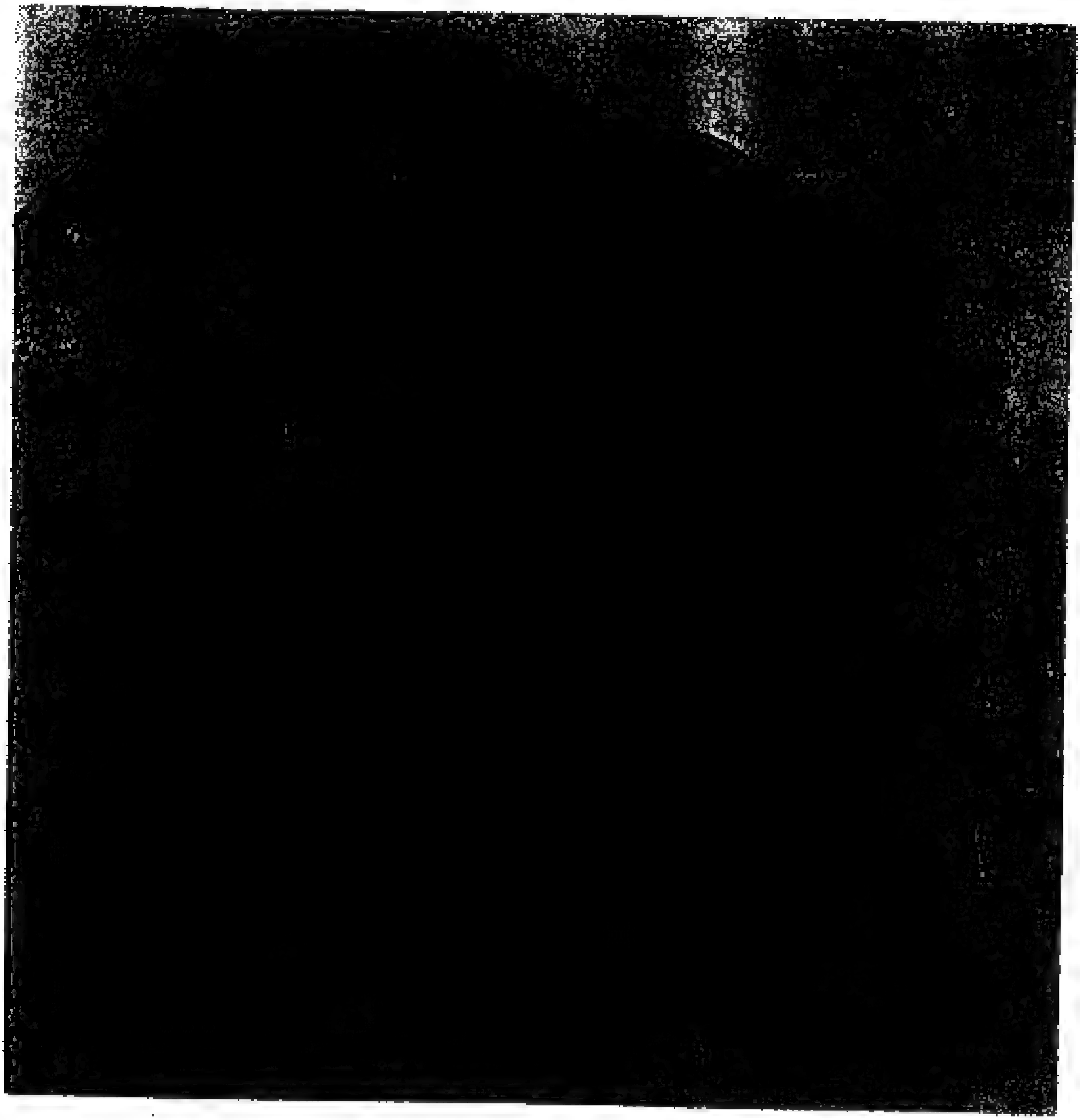

مدخل ضريح مولاى أسماعيل

مكناس

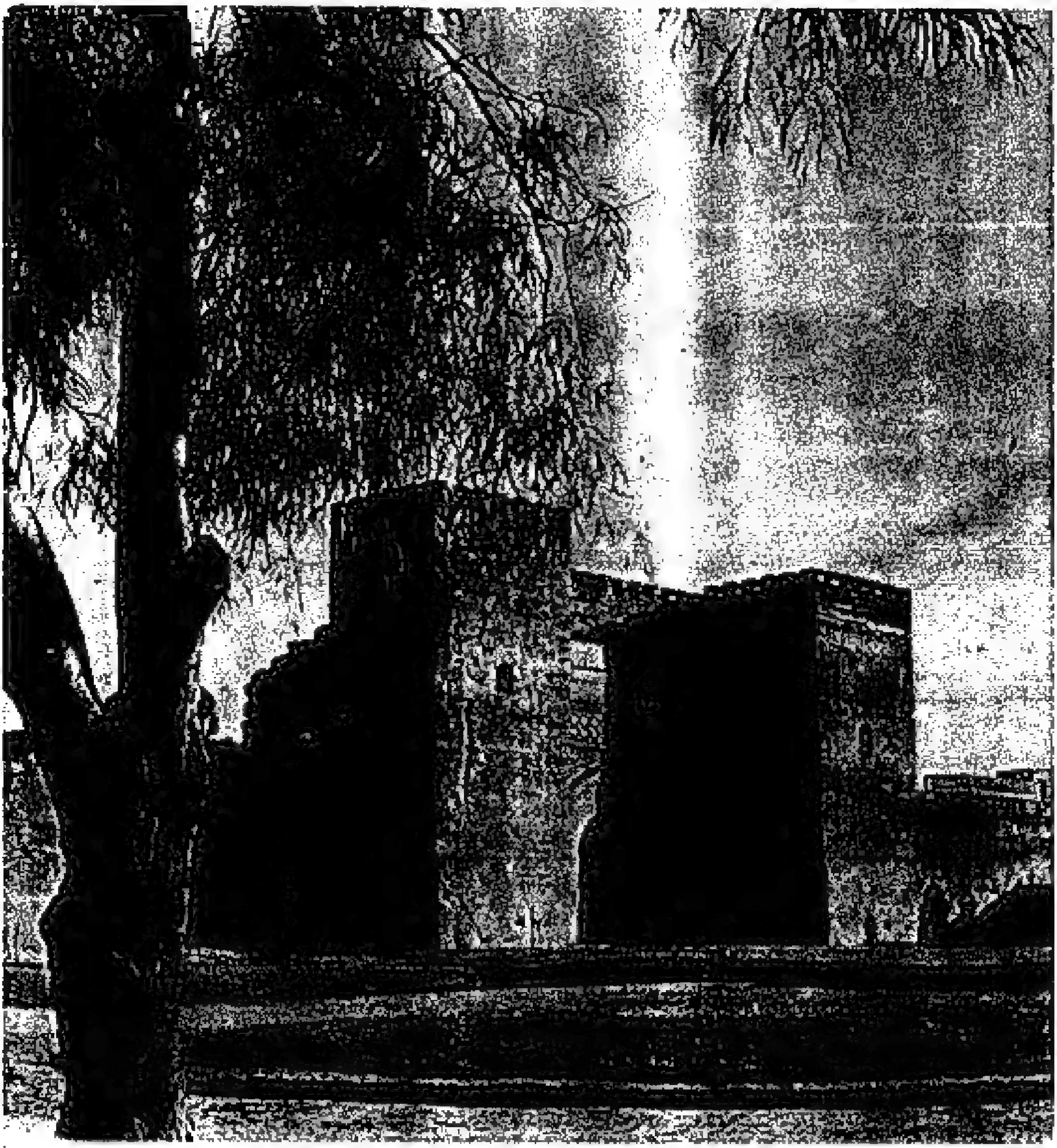

باب الريح
أحد المداخل الرئيسية لمدينة مكناس

مكناس

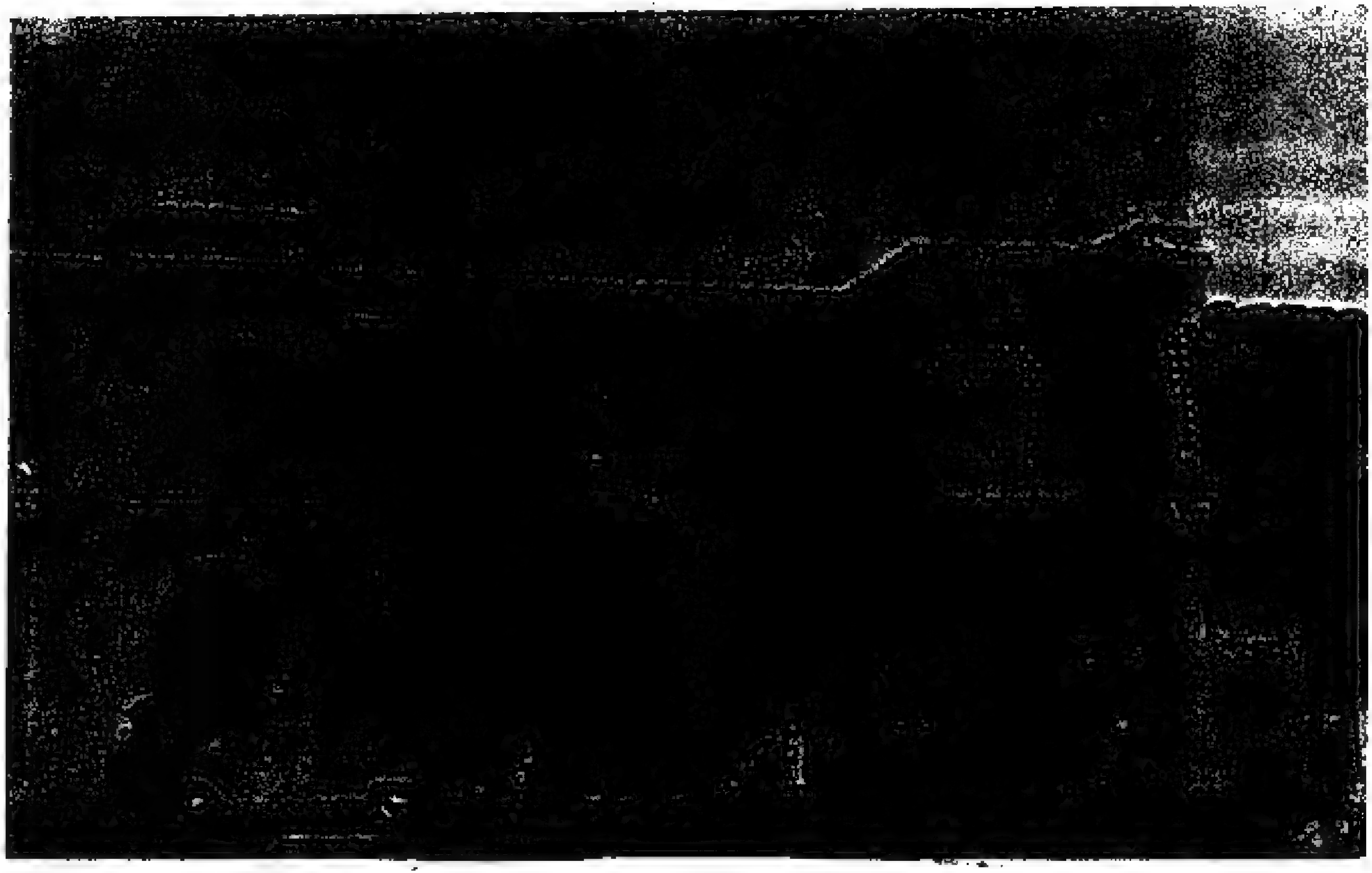

باب منصور
المدخل الرئيسى للمنشئات الملكية بالعاصمة الاسماعيلية

مكناس

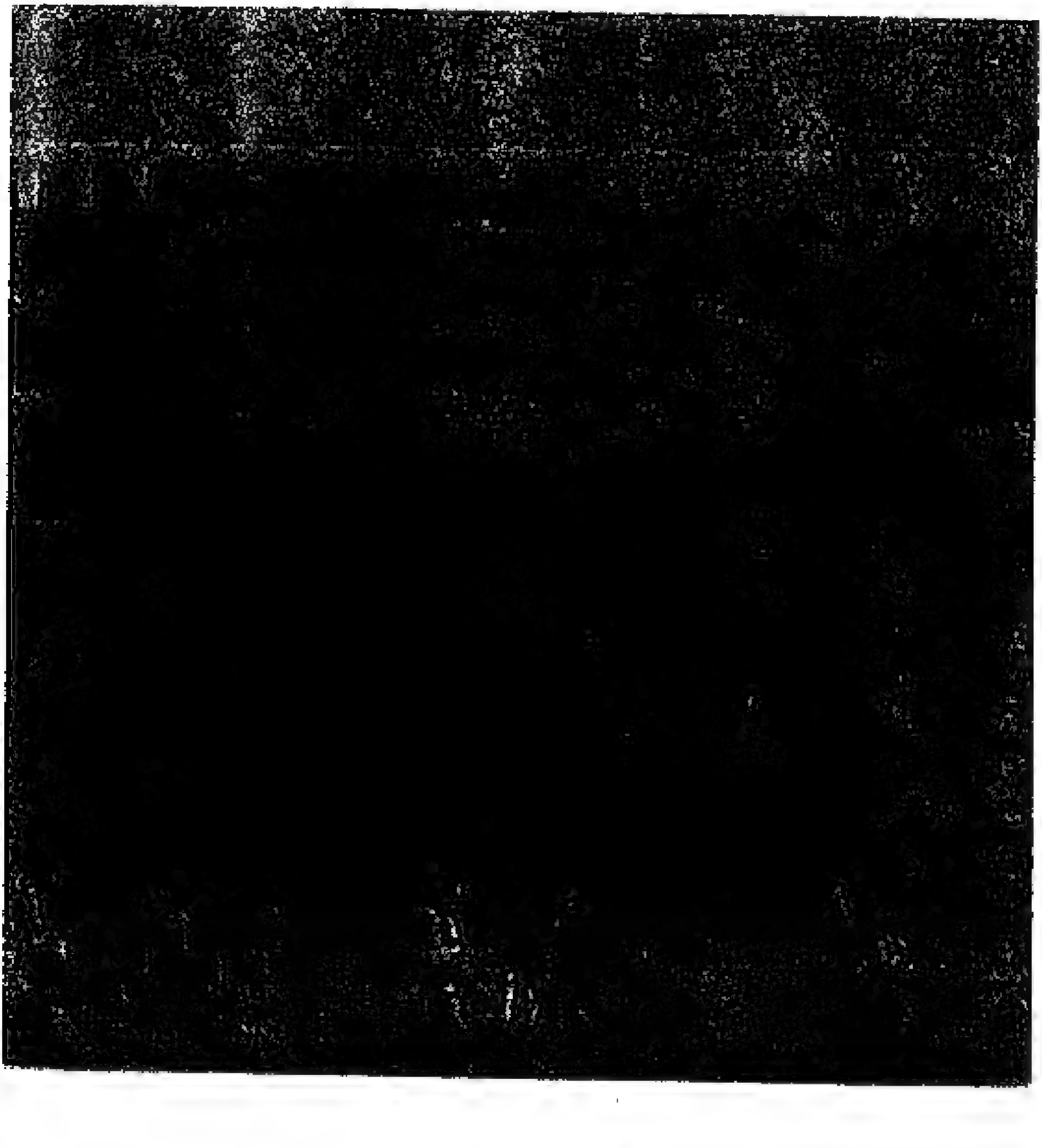

باب مسجد الانوار

فاس

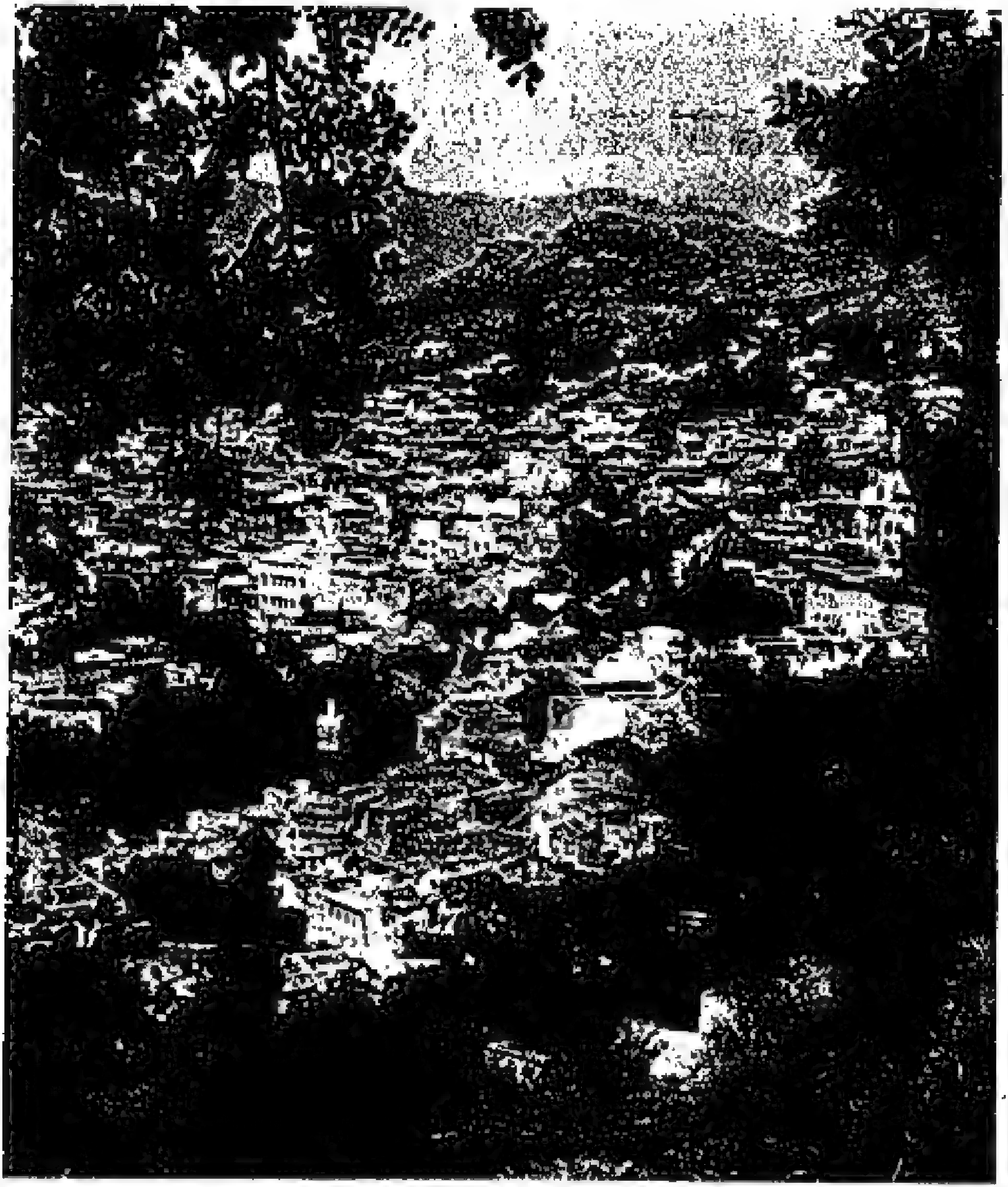

((. . حيث البنى التي نظر اليها عطارد فاستجفاها ، وخاف عليها الوجود ان يصيبها بعينه الحسود ، فسترها بالفور واخفاها . . .))

والبهاء ، والمقاصير والابهاء (115) . الا أن طينها ضحضاح (116) ، لذى الظرف فيه افتضاح ، وأزقتها لا يفارقها القذر ، وأسواقها يكثر بها الهذر ، (**وعقاربها لا تبقى ولا تذر**) (117) ، ومقبرتها لا يحتنج (124 : أ) عن اهمالها ولا يعتذر .

14 — « فـاس » (118)

قلت : فمدينة فاس ؟

فقال :

رعى الله قطرا ينبت الغنى   وآفاقه ظل على الدين ممدود

نعم العرين ، لاسود بني مرين ، ودار العبادة التى يشهد بها

---

(115) الابهاء ، ج بهو ، وهو : قاعة الاستقبال .

(116) يعنى انتشار الاوحال فى طرقات المدينة .

(117) زيادة فى نسختى س ، ط :

(118) فاس : هى بالاسبانية Fez اسسها المولى ادريس الثانى عام 808 م ، فهى أقدم عواصم المغرب التاريخية ، وتبعد عن « الرباط » العاصمة الادارية حاليا بنحو مائتى كم ، وقد عاصر مؤسسها الامير الاموى الحكم بن هشام بالاندلس ، وهو الذى كان قد نفى وشرد معظم سكان ضاحية الربض فى قرطبة ، اثر الموقعة الشهيرة التي تغلب فيها على هؤلاء الثائرين (202 هـ = 817 م) فلجأ الربضيون الى فاس ، وفيها أحيوا الصناعات المختلفة ، وطبعوا المدينة بطابع الفن الاندلسى ، ولاسيما فى المعمار ، حتى سميت فاس لذلك « مدينة الاندلسيين » . أما « مدينة القرويين » فهى الضاحية التى عمرها سكان المغرب الادنى ، بعد ان وفدوا من القيروان ، وحيث بنى بهسا « جامع القرويين » ، الذى اسسته السيدة فاطمة الفهرية الادريسية ، وهو الآن يمثل اقدم جامعات العالم ، ويؤمها الطلاب من كل حدب وصوب .
وتجدر الاشارة الى أن مركز فاس السياسى قد تضاءل فى عصر المرابطين ثم الموحدين ، الذين اتخذوا من مراكش عاصمة ، حتى تغلب بنو مرين فأعادوا الى فاس سابق مجدها ، باتخاذهم اياها العاصمة . أما « فاس الجديد » فهى التى بناها الامير ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى عام

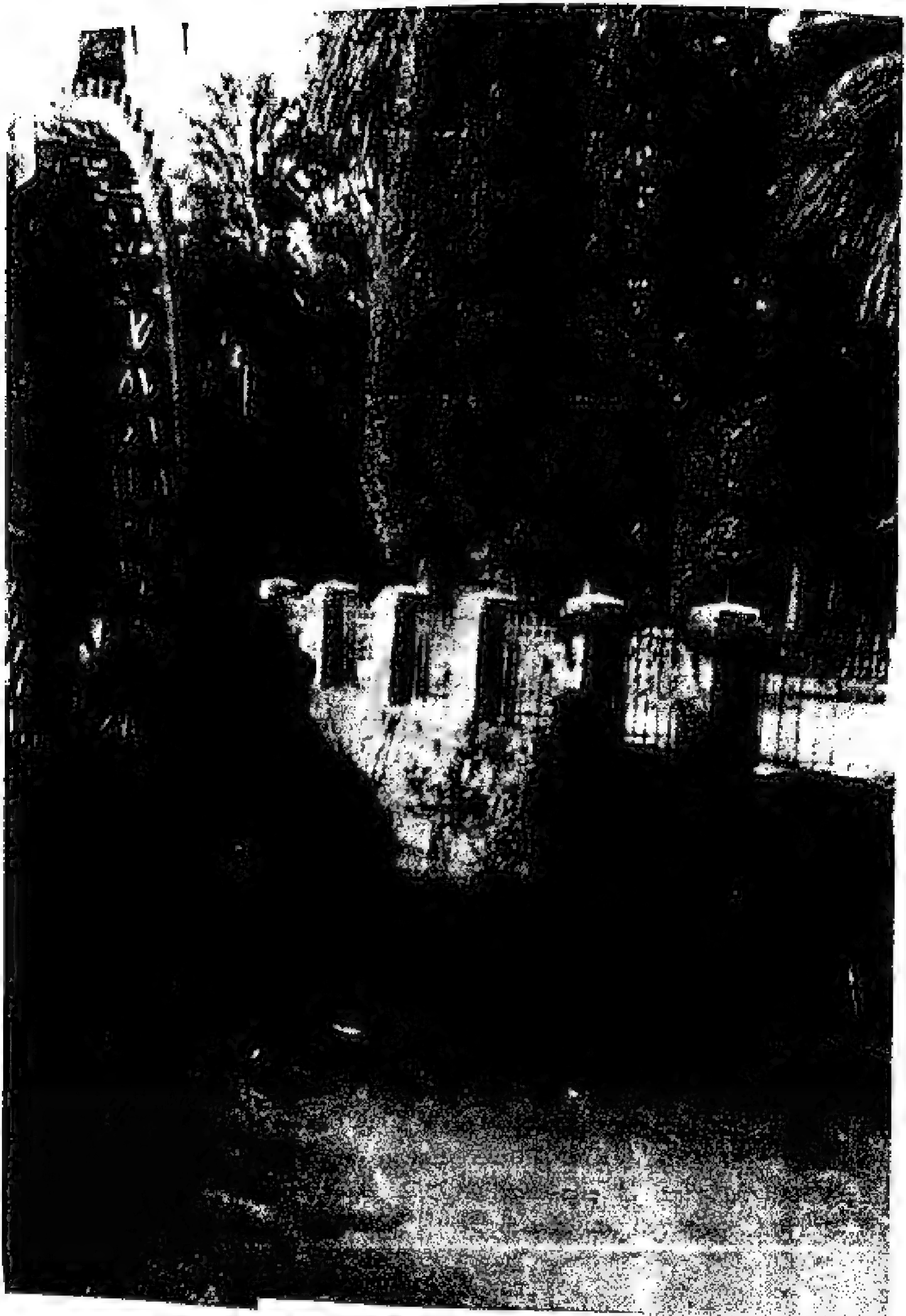

ناعورة فى جنان السبيل
(فاس)

مطرح الجنة ومسجد الصابرين . (119) أم القرى ، ومأم السمرى ، وموقد نار الوغى ونار القرى . ومقر العز الذى لا يهضم ، وكرسى الخلافة الاعظم . والجرية (120) التى شقها ثعبان الوادى فما ارتاعت والابية التي ما أذعنت اذعانها للايالة المرينية ولا أطاعت .

أى كلف وكلف ! ومتفق ومختلف ! ومحاباة وزلف ! وقضيم وعلف ! وخلف عن سلف ! انما الدنيا أبو دلف (121) ! .

---

674 هـ = 1275 م ، وقد اطلقت عليها عدة اسماء ، مثل المدينة البيضاء ، والبلد الجديد ، والمدينة الجديدة . وتتصل فاس القديمة بفاس الجديدة عبر حدائق أبى الجنود الغناء ، وتعتبر أبواب فاس غريبة الشكل ، كباب الدكاكين ، وباب الشماكمة ، وباب السمارين .

هذا وتعتبر المدينة فى مقدمة مدن المغرب ثقافيا وصناعيا وتجاريا ، وتزدهر فيها السياحة ، نظرا لما تشتمل عليه — غير ما ذكرنا — من آثار هامة ، كالمدرسة البوعنانية ذات الساعة الشمسية الغريبة ، ومدرسة العطارين ، ومدرسة المصباحية ، ومسجد الاندلس ، وزاوية المولى ادريس الثانى مؤسس المدينة ، حيث يوجد بها الضريح . كما توجد قبور المرينيين على مرتفع يمكن منه رؤية المدينة فى السفح ، وقد احاطتها الاسوار الاثرية ، لبدت فتنة الناظرين ..

راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 194 — 195 ، والسلاوى فى « الاستقصا » ج 2 ص 22 ، ثم

ود. عبد الهادى التازى فى : « جامع القرويين » .

وانظر : Descripcion de Africa, P.P. 122-148 (juin Léon Africano).

(119) مسجد الصابرين : احد المعالم الاسلامية بفاس .
انظر: مجلة البحث العلمي ـ السنة الثانية عشرة ـ العدد 14 الصادرة بالمغرب.

(120) الجرية : حوصلة الطائر .

(121) هذا التعبير اقتباسا من قول الشاعر العكوك على بن جبلة :

انما الدنيا ابو دلف   بين مغزاه ومحتضره

فاذا ولى ابو دلف   ولت الدنيا على اثره

وابو دلف هذا هو القاسم بن عيسى بن ادريس العجلى ، امير الكرخ ، وسيد قومه ، واحد الاجواد من الشعراء ، كما كان من رجال الرشيد ، ثم ابنه المامون وقد عقد له الكاتب ابن طيفور فصلا خاصا فى كتابه « بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية » عند حديثه عن الخليفة المامون ، توفى ابو دلف عام 226 هـ . والشهرة بعدئذ واضحة للرجل فى الغنى العريض ، والكرم النادر ...

سألت عن العالم الثانى (122) ، ومحراب السبع المثانى ، ومغنى المغانى ، ومرقص النادب والغانى ، وارم المبانى(123) ، ومصلى القاصى والدانى . هى الحشر الاول ، والقطب الذى عليه المعول ، والكتاب الذى لا يتاول . بلد المدارك والمدارس ، والمشايخ والفهارس ، وديوان الراجل والفارس . والباب الجامع من موطأ المرافق ، ولواء الملك الخافق ، وتنور الماء الدافق ، ومحشر المؤمن والمنافق ، وسوق الكاسد والنافق ، حيث البنى التى نظر اليها عطارد (124) فاستجفاها (125) وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه (124 : ب) الحسود فسترها بالغور وأخفاها (126) . والاسواق التى — ثمرات كل شىء اليها — قد جبيت ، والموارد التى اختصت بالخضر وحبيت ، والمنازه المخطوبة ، وصفاح الخلج المشطوبة ، والغدر التى منها أبو طوبة (127) .

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه ريش جناحه — الطاووس
فكانما الانهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

اجتمع بها ما أولده سام وحام ، وعظم الالتئام والالتحام ، فلا يعدم فى مسالكها زحام . فأحجارها طاحنة ، ومخابزها شاحنة ، وألسنتها — باللغات المختلفة — لاحنة ، ومكاتبها مائجة ، ورحابها متمائجة ، وأوقافها جارية ، والهمم فيها — الى الحسنات وأضدادها — متبارية .

---

(122) ويقصد بالعالم الاول الاندلس .
(123) ارم المبانى : علم المبانى .
(124) عطارد : نجم سيار قريب من الشمس .
(125) استجفاها : طلب منها البعد ، والتعبير كلية كناية عن علو شأن المدينة ومنزلتها السامية .
(126) يعنى ان موقع المدينة فى السفح المنخفض ، وهو حسن تعليل رائع ، لوقاية المدينة من عين الحسود بموقعها هكذا .
(127) أبو طوبه : الريح الطيبة .

بلد نكاح وأكل ، وضرب وركل ، وامتياز من النساء بحسن زى وشكل ، ينتبه بها الباه ، وتتل الجباه ، وتوجد للازواج الاشباه . الى وفور النشب (128) ، وكثرة الخشب ووجود الرقيق ، وطيب الدقيق ، وامكان الادام ، وتعدد الخدام ، وعمران المساجد والجوامع ، وادامة ذكر الله فى المآذن والصوامع .

وأما مدينة الملك (129) ، فبيضاء كالصباح ، أفق للغرر الصباح ، يحتقر — لايوانها — أيوان كسرى ، وترجع العين حسرى ، ومقاعد الحرس ، وملاعب (125 : أ) الليث المفترس (130) ، ومنابت الدوح المغترس ، ومدرس من درس أو درس ، ومجالس الحكم الفصل ، وسقائف الترس والنصل ، وأهداف الناشبة أولى الخصل (131) . وأواوين الكتاب ، وخزائن محمولات الاقتاب ، وكراسى الحجاب ، وعنصر الامر العجاب .

الى الناعورة التي مثلت من الفلك الدوار مثالا ، وأوحى المساء الى كل سماء منها أمرها فابدت امتثالا ، ومجت العذب البرود سلسالا ، وألفت أكوابها الترفه والترف ، فاذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى (132) .

---

(128) النشب : نوع من الشجر تستعمل من خشبه القسى .

(129) مدينة الملك : يقصد بها فاس الجديد .

(130) كان من عادة ملوك بنى مرين أن يشهدوا فى حلبة خاصة مصارعة بين الثور والاسد ، وكثيرا ما كانت تنتهي بانتصار الثور . ولعل هذا أصل مصارعة الثيران باسبانيا اليوم .

(131) الخصل : عود عليه شوك .

(132) قوراء : قرص مدور متسع المحيط مخروق الوسط ، والناعورة هكذا ، وعليها الاواني الفخارية ، وبدورانها تحمل المياه ، ثم تلقيها من عل كالشهب الراصدة .

فاس

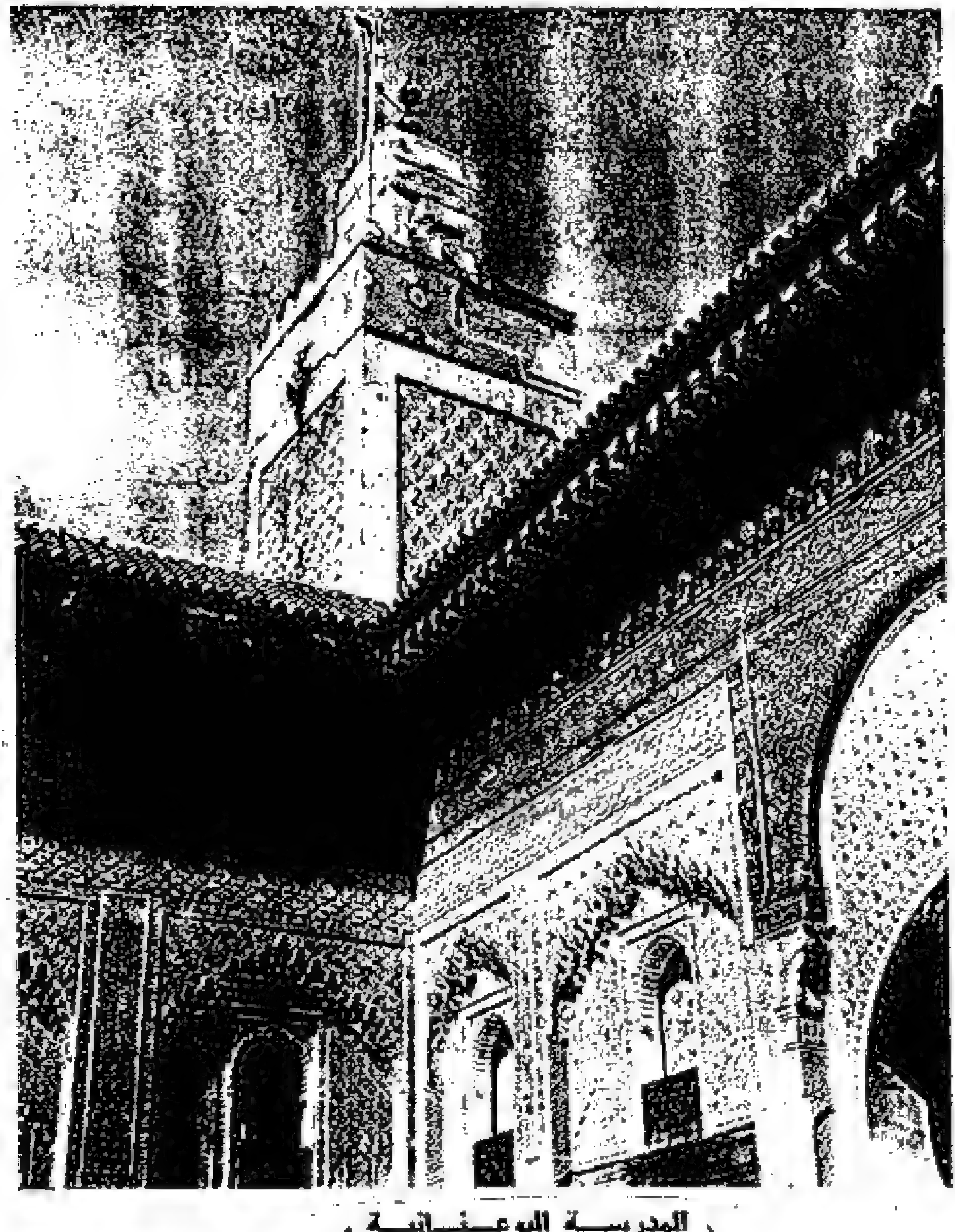

(المدرسة البوعنانية)

وقوراء (133) من قوس الغمام ابتغوا لها
مثالا أداروها عليه بلا شك

فبين الثريا والثرى سد جرمها
وللفلك الدوار قد أصبحت تحكى

تصوغ لجين النهر فى الروض دائما
دراهم نور قد خلصن من السبك

وترسل من شهبانها ذا ذؤابة
فتنفى استراق السمع عن حوزة الملك (134)

تذكرت العهد الذى اخترعت به
وحنت فما تنفك ساجمة تبكى

ثم قال : الا أن حر هذه المدينة مذيب ، وساكنها ذيب ، ومسالكها وعرة ، وظهائرها مستعرة ، وطينها هائل ، وزحامها حرب وائل (135) . ان نشد الجفاء ناشد ، فهى ضالته المنشودة ، أو حشد أصنافه حاشد

---

133) يشير بذلك الى قوله تعالى : « وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » سورة الجن ، آية : 9 ، وفى هذا — كما فى البيت التالى — حسن تعليل لطيف .

134) اقتباسا من قوله تعالى : « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليلا » سورة النساء ، آية : 142 .

135) وتعرف بحرب البسوس ، حدثت فى الجاهلية قبيل الاسلام ، وقد قامت بسببه ناقة لدار جساس ، قتلها كليب ، فقتل جساس قاتلها كليبا ، ودارت الحرب بين بكر وتغلب اثر ذلك ، واستمرت قرابة اربعين عاما ، وكانت بينهما فى تلك المدة خمس وقعات شهيرة ، تارة يكون الظهور فيها لبكر ، وتارة لتغلب ، وتارة ينتصفان ، حتى تصالحا بعد أن سقط خيرة القبيلتين وزهرة شبابهما ، فضرب المثل بحرب وائل ، كما قيل فى التطير فى الامثلة العربية : اشأم من البسوس .

(125 : ب) فهى كتيبته المحشودة . الى بعد الاقطار ، وعياث الميازب أوقات الامطار ، والاشتراك فى المساكن والديار ، على الموافقة والاختيار ، وتجهم الوجوه للغريب ، ذى الطرف المريب ، وغفلة الاملس عن الجريب (136) ، ودبيب العقارب ، أرسالا كالقطا القارب (137) . وأهلها يرون لانفسهم مزية الفضل ، ويدينون فى مكافاة الصنائع البالغة بالعضل (138) . يلقى الرجل أبا مثواه فلايدعوه الى بيته ، ولايسمح (139) له ببقله ولا زيته (140) ، فلا يطرق الضيف حماهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ماهم (141) . ومقبرتهم غير نابهة ، وأجداثها غير متشابهة ، مشربة حيوان ، ومشبعة جرذان ، غير وان (142) .

15 ـ آقر سلوين (143)

قلت : فما تقول فى آقر سلوين ؟

قال : واد عجيب ، وبلد لداعى الايناع مجيب ، مخضر الوهاد ، كثير شجر الجوز والزيتون ، كنفته الجبال الشم ، وحنا عليه الطود كما تحنو

---

136) كناية عن أن اهل المدينة يتميزون ومعروفون ، والغريب حينئذ ظاهر بينهم مهمل ، لا يلقونه كما يلقون بعضـا .

137) القطا القارب : القطا الذى يطلب الماء ليلا .

138) العضل : بفتح العين وسكون الضاد ، الشدة .

139) فى نسختى (ط ، س) « ولا يسمع » ، وهو ما لا يتناسب والسياق .

140) فى نسخة (ط) « ولا بزيته » ، وهو أوفق للعطف باعادة الجار .

141) اقتباسا من قوله تعالى : « قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود انما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب » سورة ص ، آية : 24 .

142) غير وان : غير مقصر .

143) آقر سلوين : يحتمل ان يكون المراد بها قصبة سلوان ، حيث تقطن قبائل « بنى بطلفتى » ، بالريف شمال المغرب .

على ولدها الام ، فهواؤها ملائم ، والعنب على الفصول دائم . الا أن الشمس لا تطرقه بنوال ، ولا ترمقه الا وقت زوال . قد باء بالحظ الموكوس وانكمش تحت أبط الظل المنكوس ، فجوه عديم الطلاوة (126 : أ) ، وعنبه ــ للبرد ــ قليل الحلاوة .

16 ــ « سجلماسة » (144)

قلت : فسجلماسة ؟

قال : تلك كورة (145) ، وقاعدة مذكورة ، ومدينة محمودة مشكورة ، كانت ذات تقديم ، ودار ملك قديم (146) ، وبلد تبر وأديم ، ومنمى تجر ومكسب عديم (147) . معدن التمر ، بحكمة صاحب الخلق والامر ، تتعدد أنواعه ، فتعيي الحساب . وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب ، قد استدار بها ــ لحلق السور ــ الامر العجاب ، والقطر الذى تحار فى ساحته النجاب ، فضرب منه على عذارها الحجاب (148) ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب (149) ، يحيط بها مرحلة راكب ،

---

144) سجلماسة : يطلق هذا الاسم على مقاطعة فى جنوب المغرب تسمى الآن « تافيلالت » .
راجع فى هذا : ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 5 ص 41 ، والتعريف بابن خلدون ص 40 حاشية 1 .

145) كورة ، اى بلد به قرى ومساكن ، يقول الحموى فى معجم البلدان « ان الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة او مدينة او نهر » (ج 1 ص 36) .

146) يقصد دولة « بنى مدرار » التى عاصرت دولة الادارسة ، فقد اتخذت سجلماسة قاعدة لملكها .

147) اى عديم النظير

148) كناية عن السور المحيط بالمدينة .

149) اقتباسا من قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » سورة الحديد ، آية : 13 .

ويصيرها سماء مخضرة ذات كواكب . فمنازلها لا تنال بهوان ، وفدنها ودمنها تحت صوان ، ونخلها تطل من خلف الجدار ، وتتبوأ الايمان والدار، وحللها مبثوثة بين الدمن، وضياعها تتملك على مر الزمن، وسوائمها آلفة للسمن ، موجودة بنزر الثمن ، وفواكهها جميمة ، ونعمها عميمة ، وسورها حصين مشيد ، وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد (150) . وسقيها يخص دار الملك بحظ معلوم ، ويرجع الى وال يكف كل (126 : ب) ظلوم .

وهى أم البلدان ، المجاورة لحدود السودان ، فتقصدها — بالتبر — القوافل ، وتهدى الى محرابها النوافل ، والرفاهية بها فاشية ، والنشافى (151) الحلية ناشية (152) . لكنها معركة غبار ، وقتيل عقربها جبار (153) ، ولباسها خامل ، والجفاء بها شامل ، والجو يسفر عن الوجه القطوب ، والمطر معدود من الخطوب ، لبناء جدرانها بالطوب ، والقرع برؤوس أهلها عابث ، والعمش (154) فى جفونهم لابث ، والحصا يصيبهم، ويتوفر (155) منه نصيبهم .

---

(150) المعتصم والرشيد ، من اشهر واعظم خلفاء بنى العباس ، فالمعتصم هو ابو اسحاق محمد بن هارون الرشيد ، 218 — 227 هـ (833 — 842 م) ، واما هارون الرشيد فقد حكم من عام (170 — 193 هـ ، 786 — 809 م) ، ويرمى بهذا الى المبالغة فى عظم شأن الجسر المؤدى الى المدينة .

(151) النشافى الحلية : الاحجار ذات التخاريب ، تستعملها النساء فى الحمامات .

(152) ناشية : ذات رائحة طيبة .

(153) جبار : هدر ، وذهب دم القتيل جبارا ، اى لم يؤخذ له بالقصاص ولا بالدية .

(154) العمش : ضعف بالبصر تصحبه الدموع .

(155) فى نسختى (س ، ط) « يتوتر » ، والصواب فى نسختنا .

17 ـ « تـــازة » (156)

قلت : فتـــازا ؟

قال : بلد امتناع ، وكشف قناع ، ومحل ريع وايناع ، ووطن طاب ماؤه ، (وصـــــح)هواؤه ، وبان شرافه واعتلاؤه ، وجلت فيه مواهب الله وآلاؤه . عصير مثل ، وأمر الخصب به ممتثل ، وفواكه لا تحصى ، يماريها (157) البلد الاقصى ، وحبوبه تدوم على الخزن ، وفخاره آية فى لطافة الجرم وخفة الوزن . الا أن ريحه عاصف ، وبرده لا يصفه واصف ، وأهله فى وبال ، من معرة أهل الجبال ، ولبيوثه مفترسة ، وأخلاق أهلـــه شرســـــة .

18 ـ غساسة (258)

قلت : فغساســـة ؟

---

156) تـــازة : « Taza »تبعد هذه المدينة المغربية عن فاس بنحو 119 كم ، كما تبعد عن مدينة وجدة بمسافة 230 كم . وتتمتع بموقع جغرافي هام ، ممـــا جعلها تتخذ على مر العصور قاعدة حربية ، هكذا فعل ادريس الثانى ، كمـــا اتخذها عبد المؤمن الموحدى حصنا هاما ، وفى عهد بنى مرين جعل منهـــا أبو يعقوب المرينى قاعدة لغزو تلمسان ، وهى قرب نهر « أناون » علـــى آخر الجبال المحاذية للاطلس المتوسط ، والمواجهة لجبال الريف ، وقـــد تأسست فى القرن الثامن الميلادى . من آثار المرينيين بها المدرسة والجامع الاعظم ، وهما آيتان فى روعة الفن الاندلسى المغربى .
راجع : التعريف بابن خلدون ص 134 حاشية 2 ، وتاج العروس ج 4 ص 12

157) يمـــار : يمـــون .

158) غساسة : مدينة ذات موقع يقرب من مصب نهر ملوية ɐᴉnlnW بالبحـــــر المتوسط ، وقد كانت هذه المدينة ــ يومئذ ــ مقرا لقبائل بطوية Buthoia ومن قبل فهى مرسى له اهميته ، يقع غرب مليلية ، اجهز عليه الاستعمار الاسبانى عام 1496 م ، ويعتقد ان عبد الرحمن الداخل ابحر من « غساسة » الى الاندلس ، كما نزل بها عبد الله ابن الاحمر آخر ملوك بنى نصر اثـــر سقوط غرناطة (2 يناير 1492 م) ، كما ان هذه المدينة التى اندثرت « كانت

قال : فريسة وأكيلة ، وحشف وسوء كيلة (259) . الا أنها مرسى مرسى مطروق ، بكل ما يروق ، ومرفأ جارية (127 : أ) بحرية ، ومحط جباية تجرية .

19 ــ تلمسان (260)

قلت : فمدينة تلمسان ؟

قال : تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت فى موضع

المعبر المفضل للمهمات السرية والسريعة » ولذلك يشير ابن الخطيب فى وصفها .

راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 6 ص 101 وانظر : د. عبد الهادى التازى فى مجلة « البحث العلمى » (عدد 24 من السنة 12 ص 13) تحت عنوان « الثغور المغربية بين المواجهة المسلحة والتدخل الديبلوماسى » .

159) هذا التعبير كناية عن سوء الخارج من المحاصيل الزراعية ، بالاضافة الى غش اربابها لها ، وبهذا يشير المؤلف الى المثل العربى (أحشفا وسوء كيلة !!) الذى يضرب للظلم يلحق صاحبه مضاعفا .

160) تذكر المعاجم والمؤرخات ان كلمة « تلمسان » مركبة من « تلم » ومعناه : لها ، « وشان » اى : لها شان ، ثم صرفت الشين ــ بمرور الزمن ــ الى السين . وذكر المقرى نقلا عن الكاتب ابى زكريا يحيى ابن خلدون من كتابه « بغية الرواد ، فى أخبار بنى عبد الواد ، وايام ابى حمو الشامخة الاطواد » ، بعد كلام فى شان البربر ما صورته : « ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل ، تسمى بلغة البربر « تلمس » كلمة مركبة من « تلم » ومعناه : تجمع « سن » ومعناه : اثنان ، اى الصحراء والتل ، فيما ذكره شيخنا العلامة ابو عبد الله الابلى ، رحمه الله ، وكان حافظا بلسان القوم » .

وتقع المدينة غرب الجزائر ، وهى مركز للمحافظة التى تسمى باسمها ، ويبلغ عدد سكانها حوالى 85،000 نسمة ، وتشتهر بينابيعها وكرومها وصناعاتها المحلية ، والتى اهمها السجاد والجلود ومعامل النسيج . وللمدينة شهرة علمية تاريخية ، كما كانت سوقا تجارية هامة ، ولا سيما فى عهد المرابطين الذين اسسوا بها « المسجد الكبير » . وقد اتخذها بنو عبد الواد عاصمة المغرب الاوسط ، وقد اخذت شهرتها فى الاضمحلال ، منذ الاحتلال العثمانى. من مشاهير علمائها ابو اسحاق الانصارى (1212 ــ 1291 م) وغيره من فقهاء العصر الاسلامى الوسيط .

راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 9 ص 331 ــ 342 (تحقيق محى الدين عبد الحميد ــ القاهرة 1369 هـ) .

شريف . كأنها ملك على رأسه تاجه ،وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه عبادها يدها ، وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها . هواء المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد . حجبتها أيدى القدرة عن الجنوب ، فلا تحول فيها ولا شحوب .

خزانة زرع ، ومسرح ضرع . فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع .

الا أنها بسبب حب الملوك (161) ، مطمعة للملوك ، ومن أجل ، مغلوبة للامرا . أهلها ليس عندهم (162) جمعها الصيد فى جوف الفرا الراحة ، الا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، الا لمن أقام رسم الفلاحة . ليس بها لسع العقارب ، الا فيما بين الاقارب ، ولا شطارة (163) الا فيمن ارتكب الخطارة (164)

ثم لما وصل الى هذا الحد ، نظر الى حاج السوق (165) قد أفاض ، ومزاده قد أعمل فيه الانفاض ، وعلو الاصوات به قد صار الى الانخفاض ، فقال : وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام . ومددت يدى الى الوعاء فخرقته ، والى العين فأرقته ، وقلت له : لاحكمنك من كرام بني الاصفر ، فى العدد الاوفر ، ماثلة فى اللباس المزعفر ، فلما خضب كفيه بحنائها ، وحصلت النفس على استغنائها ، استدنانى ، وشبك بنانه ببنانى ، وقال : لاحبط عملك ، ولا خاب أملك ، ولا عدم ــ المرعى الخصيب ــ

---

(161) حب الملوك فاكهة صيفية ، ولاسيما فى مناطق الجزائر والمغرب ، ويقام « مهرجان » خاص فى مدينة صفرو المغربية فى موسم هذه الفاكهة حتى الآن.

(162) اشارة الى المثل المشهور « كل الصيد فى جوف الفرا » .

(163) الشطارة ، بفتح الشين ، الخبث ، وتقول ، « شطر فلان شطارة ــ من بابه ضرب ــ فهو شاطر » وذلك اذا أعيا أهله خبثا .

(164) الخطارة : ما يراهن عليه وهو السبق .

(165) حاج السوق : المشترى بالسوق ، والمحتاج فيه .

همك ، فنعم مغلي البضائع ، وحافظ الفضل الضائع ، ومقتني الفوائد ، ومعود العوائد . واستثبت مخيلته ، فاذا الشيخ وتلميذه ، وحماره ونبيذه ، قد تنكر بالخضاب المموه ، والزي المنوه ، وعاث بخد الغلام الشعر المشوه . فقلت : هيه (166) ، أبت المعارف أن تتنكر ، والصباح أن يجحد أو ينكر ، كيف الحال بعدي ؟ وما اعتذارك عن اخلاف وعدي ؟ فقال :

خذ من زمانك ما تيسر   واترك بجهدك ما تعسر
ولرب مجمل حالة   ترضى به ما لم يفسر
والدهر ليس بدائم   لا بد أن سيسوء ان سر
(127 : ب) واكتم حديثك جاهدا   شمت المحدث أو تحسر
والناس آنية الزجاج   إذا عثرت به تكسر
لا تعدم التقوى ، فمن   عدم التقى فى الناس أعسر
واذا امرؤ خسر الاله   فليس خلق ـ منه ـ أخسر

ثم ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار (167) ، وتركنى أتقرى الآثار ، وكل نظيم (168) فالى انتثار .

تمت والحمد لله (169)

---

166) هيه : كلمة تقال لطلب الاستزادة .

167) الغمار : زحمة الناس .

168) فى نسختى س ، ط « نظم » ، ولعل الصواب فى نسختنا ، اذ فعيل هنا بمعنى مفعول اى : منظوم .

169) زيادة ـ فيما اعتقد ـ من وضع الناسخ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مصادر التحقيق
والدراسة

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أ ـ المصادر العربية

1) **ابن الاحمر :** (الامير ابو الوليد اسماعيل بن يوسف النصرى)
(ت. 810 هـ ـ 1325 م)
(2) نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان
دراسة وتحقيق : محمد رضوان الدايسة (بيروت 1967 م)
(1) نثر الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان
ـ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1863 ـ ادب

2) **ابن بطوطة :** (ابو عبد الله محمد عبد الله الطنجى) .
(ت. 779 هـ ـ 1377 م)
تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج 2 (القاهرة 1938)

3) **ابن الخطيب :** (لسان الدين ابو عبد الله محمد)
(ت. 776 هـ ـ 1374 م)
(1) الاحاطة فى اخبار غرناطة
نسخة خطية بالاسكوريال رقم 1673 ونسختان خطيتان بالاكاديمية الملكية التاريخية بمدريد تحت رقمى 34 ، 142 وتوجد النسخة مطبوعة فى جزاين (القاهرة 1319 هـ) كما توجد نسخة خطية اخرى برواق المغاربة بالازهر . وقد نشر الاستاذ عبد الله عنان الجزء الاول من كتاب الاحاطة فى مجموعة ذخائر العرب .
(ب) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ،
تحقيق الدكتور احمد مختار العبادى القاهرة ـ 1948 م)
(ج) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، مخطوط بالاسكوريال رقم 1825 وقد نشر جزءا كبيرا منه العالم الاسبانى جاسبار ريميرو تحت عنوان :
Gaspar Remiro. Correspondencia diplomatica entre granada y Fez en el siglo XLV.
(د) اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام
نشره ليفى بروفنسال فى طبعتين (رباط 1934) ، بيروت 1956 .
نشر محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة 1951 .
(هـ) كناسة الدكان بعد انتقال السكان
نشر وتحقيق د. محمد كمال شبانه ـ دار الكتاب العربى بالقاهرة 1347 هـ)
(س) رقم الحلل فى نظم الدول (تونس 1317)

4) **ابن خلـدون :** (عبد الرحمن بن محمد)
(ت. 808 هـ — 1405 م)
ا — المقدمة (نشر مصطفى محمد بالقاهرة)
ب — كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر (7 اجزاء بما فى ذلك المقدمة) ، القاهرة 1284 .
ج — التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا
نشر محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة 1951

5) **الادريسى :** (صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس) عن (نزهة المشتاق) نشر دوزى ودى خويه (ليدن 1866 م)

6) **ابن غازى :** (محمد بن احمد العثمانى المكناسى)
(841 — 919 هـ)
(الروض الهتون فى اخبار مكناسة الزيتون)
تحقيق عبد الوهاب بن منصور (الرباط 1964)

7) **ابن القاضى** (احمد بن محمد بن احمد)
عاش فى القرن السابع عشر الميلادى .
ا — جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس
(فاس 1309) .
ب — درة الحجال فى غرة اسماء الرجال 2 ج
(نشر علوش ، رباط 1934 م)

8) **ابو نواس :** (ابو الحسن بن هانىء)
(ت. 813 م — 198 هـ)
ديوان ابى نواس بتحقيق « ايفالد فاغر » — (طبعة القاهرة 1958)

9) **الجاحـظ :** (ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى)
(ت. 255 هـ — 868 م)
« البيان والتبيين »
تحقيق عبد السلام هارون طبعة (القاهرة 1948 م) .

10) **الجواليقي** (منصور بن احمد الخضر)
« المعرب من الكلام الاعجمى على حروف المعجم » .
تحقيق احمد محمد شاكر (دار الكتب المصرية بالقاهرة 1361 هـ)

11) **(جمال :** الدين محمد بن سالم بن نصر الله)
(ت. 697 هـ — 1394 م)
تجريدة الاغانـــى للاصبهانـــى

12) **الحميـــــرى :** (ابن عبـــد المنعـــم)

عاش فى القرن الثامن الهجـــــرى .
الروض المعطار فى خبر الاقطار .
نشره ليفى بروفنســـال .
(ليدن 1938)

13) **السباعـــى :** (بيومـــى)

« تاريخ القصة والنقد فى الادب العربى »
(القاهـــرة 1956) .

14) **الســـلاوى :** (شهاب الدين محمد بن خالد الناصرى)

ت. 1319 هـ — 1901 م
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى (4 اجزاء فى مجلدين)
القاهرة 1894 م

15) **شبانـــه :** (دكتور محمد كمال احمد)
يوسف الاول ابن الاحمر ، سلطان غرناطة (القاهرة 1969 م)

16) **الطبـــرى :** (ابو جعفر محمد بن جرير)
(ت 922 م — 310 هـ)
« تاريخ الامم والملوك » (12 جزءا طبعة القاهرة 1908)

17) **عنـــان :** (محمد عبد الله) معاصر
(لســان الدين ابن الخطيب) .
(القاهرة 1968 م)

18) **القلقشندى :** (ابو العباس احمد بن على)
ت 821 هـ — 1418 م
صبح الاعشى فى صناعة الانشا 14 جزءا
(القاهرة 1212 — 1219 هـ)

المصادر الأجنبية

[illegible] تايب فشود

1. Ballesteros, A. :
Historia De Espana, Tome III.
(Barcelona-Buenos Aires 1948)

2. GARIOS DE LUNA, JOSE :
Historia De Gibraltar (Madrid 1944).

3. LEVI PROVENCAL. E. :
La penisule iberique Du Moyen-Age d'après le Kitab Al-Rawd al Milar, D'Ibn Abd al Munim al Himyari. (Tetuan 1950).

4. LEON AFRICANO, JUAN (A) HASAN IBN MUHAMMAD ALWAZZAN AL-FASI) :
Description De Africa y De las cosas natables que en ella se encuentran.
(INSTITUTO GENERAL FRANCO-TETUAN 1952)

5. MULLER, MARCUS JOSEPH :
Beitrage zur Geschichte der westlichen araber (Munchen 1866)

6. SECO DE LUCENA, LOUIS :
Sobre el viaje de Ibn Battuta al Reinocle Granada (Al Andalus, Vol, XVI 1951).

7. SIMONET, FRANCISCO JAVIER :
Descripcion del Reine de Granada bajo la dominacion de los Nazaritas.
(Madrid 1860).

الفهارس الموجودة بالكتاب

* * *

الصفحة

1) فهرس عام 194

2) فهرس المدن الاندلسية .... 195 — 196

3) فهرس المدن المغربية 197

4) فهرس الخرائط والصور والوثائق .... 198 — 199

فهرس عام لمحتويات الكتاب

الصفحة

المقدمة ...... 3 —

الفصل الاول :

ترجمة للمؤلف 9
ابن الخطيب فى نظر بعض المؤرخين ...... 23 —

الفصل الثانى

تراث ابن الخطيب الفكرى وآثاره 27

الفصل الثالث :

عرض وتحليل للكتاب 41
موضوع الكتاب 43
منهج ابن الخطيب فى الكتاب 49
قيمة الكتاب الادبية ، ومدى صلته بفن المقامات فى الادب العربى 52

الفصل الرابع :

« معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار »

ـ المجلس الاول ـ

وصف المدن الاندلسية ...... 65 — 134

الفصل الخامس :

ـ المجلس الثانى ـ

وصف المدن المغربية ...... 135 — 186
فهرس المدن الاندلسية 194
فهرس المدن المغربية 195
فهرس الخرائط والصور والوثائق 196

فهرست المدن التي ورد وصفها فى المعيار

⁂

ا ــ المدن الاندلسية :

1 ــ جبل طارق 82
2 ــ اسطبونة 83
3 ــ مربلة 85
4 ــ سهيل 85
5 ــ مالقة 87
6 ــ بليش مالقة 92
7 ــ قمارش 92
8 ــ المنكب 94
9 ــ شلوبانية 97
10 ــ برجة 98
11 ــ دلاية 99
12 ــ المرية 100
13 ــ طبرنش 103
14 ــ بيرة 104
15 ــ مجاقر 105
16 ــ قنتورية 105
17 ــ برشانة 106
18 ــ اوربة 107
19 ــ بليش الشقراء 107
20 ــ بسطة 109
21 ــ اشكر 110
22 ــ اندرش 111
23 ــ شبالش 111
24 ــ وادي آش 112

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

25 ـ فنيانة 113
26 ـ غرناطة 113
27 ـ الحمة 124
28 ـ صالحة 125
29 ـ البيرة ومنتفريد 125
30 ـ لوشة 125
31 ـ ارجذونة 126
32 ـ انتقيرة 126
33 ـ ذكوان 127
34 ـ قرطمة 128
35 ـ رندة 130

ب ـ المدن المغربية :

1 ـ بادس 143
2 ـ سبتة 144
3 ـ طنجة 147
4 ـ قصر كتامة 149
5 ـ اصيلا 150
6 ـ سلا 152
7 ـ انفا 156
8 ـ ازمور 158
9 ـ تبط 159
10 ـ رباط اسفي 160
11 ـ مراكش 161
12 ـ اغمات 164
13 ـ مكناسة 165
14 ـ فاس 172
15 ـ آقر سلوين 179
16 ـ سجلماسة 180
17 ـ تازة 182
18 ـ غساسة 182
19 ـ تلمسان 183

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرست الخرائط والصور والوثائق

1) الخرائط

1 ـ خريطة الاندلس 80

2 ـ خريطة المغرب 142

2) الصور

ا ـ الاندلس :

1 ـ منظر جبل طارق 81
2 ـ منظر مربلة 84
3 ـ منظر مالقة (المدينة والساحل) 86
4 ـ منظر قصبة مالقة (الابهاء والقلعة) 86
5 ـ منظر المنكب (المدينة) 93
6 ـ منظر (الحصن) بالمنكب 95
8 ـ منظر (القصبة) بالمرية 101
9 ـ منظر بسطة 108
11 ـ منظر قصر الحمراء 114
12 ـ منظر فناء الاسود بالحمراء 116
13 ـ منظر جنة العريف (الحمراء) 118
14 ـ منظر بركة البرطل (الحمراء) 120
15 ـ منظر قصر جنة العريف (من الخارج المواجه
لحي البيازين) 122
16 ـ منظر رندة (القنطرة العربية) 129
17 ـ منظر باب المقابر (رندة) 131

ب ـ المغرب

1 ـ منظر سبتة 145
2 ـ منظر طنجة 148
3 ـ منظر سلا (الاسوار الاثرية) 151
4 ـ منظر الرباط (المدينة) 153
5 ـ منظر الرباط (مسجد حسان) 154
6 ـ منظر الرباط (قصبة الاوداية) 154
7 ـ منظر الدار البيضاء 157
9 ـ منظر صومعة مسجد (مراكش) 162
10 ـ منظر عام لمدينة مكناس 166
11 ـ مدخل ضريح مولاى اسماعيل 167
12 ـ باب الريح بمكناس 168
13 ـ باب منصور 169
14 ـ باب مسجد الانوار 170
15 ـ منظر مدينة فاس 171
16 ـ الناعورة 173
17 ـ منظر جانبى من المدرسة البوعنانية بالداخل
(فاس) 177

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

3) الوثائق

1 ـ صورة اللوحة الاولى من مخطوط « المعيار » من
الاصل المحفوظ بالاسكوريال (1777) 67
2 ـ اللوحة الاخيرة من « المجلس الاول » 68
3 ـ اللوحة الاولى « من المجلس الثانى » 69
4 ـ اللوحة الاخيرة من « المجلس الثانى » ، وهى
نهاية المخطوط 70